الحياة الشخصية عند أهل البيت

الشيخ فوزي آل سيف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحياة الشخصية لماذا ؟!

يشهد عالمنا الإسلامي منذ سنوات عودة إلى الذات وتقدماً نحو فهم المضامين الدينية من قبـــل اكثر فئات المجتمع مثقفيه وعوامه، وشبابه وناشئته، وهذا الأمر يحدونا إلى التعرف على نمط الحياة المطلوبة للإنسان المسلم ذلك أن أول تجل مطلوب لهذه المضامين إنما يلحظ في نمط الحياة الـــتي يختارها الإنسان، وربما يكون أيضا أصعبها. ذلك أنه من السهل أن تتم مطالبة الآخرين و(الغير) بتطبيق المبادئ، ولكن من الصعب أن يجسد هذا المطالب مطالبه في حياته.

كلأ وإذا كان يمكن للكثير أن يتحلوا بالأخلاق في المجتمع، ولعرف عنهم في حياتهم العمليـــة.. مثلا- الحسنات والدعوات الصالحة ، فليس هذا دليلا نهائيا على سلامة الشخصية، بل ينبغـــي النظر إلى الحياة (الخاصة) والسيرة الشخصية، وإلى السلوك في المترل، وإلى التعامل مع الزوجـــة وإلى إدارة الأطفال.. إلى حيث يبقى المرء وحيدا بلا رقابة خارجية بل صـــاحب الـــسيطرة.. فكيف تكون أخلاقه ؟! وأي نمط يجسد ؟!

من هنا كان ضرورياً اللجوء إلى حياة المعصومين عليهم السلام وفي طليعتهم سيدهم رسول الله

صلى الله عليه وآله الذي سئلت زوجته عائشة عن أخلاقه- في المترل- فأجابت: كان خلقه القران.

الحياة الشخصية بتفاصيلها التي نعيشها باعتبارنا اكثر قدرة على فهم ضروراتها وضغوطها، وكونها تخرج عن ذلك الحاجز السميك الذي صنعناه حول أنفسنا من كونهم (عليهم السلام) معصومين، وبالتالي خرجوا في (وعي البعض) عن دائرة البشر إلى دائرة الملائكة..

بالطبع سوف نجد في نهاية المطاف ذلك التناغم الرائع بين ما يقوله المعصومون من مبادئ وبين ما يعيشونه في حياتهم الشخصية من وقائع. وبالرغم من أن هذا الجانب من حياتهم المباركة لم يتناول في شكل نظرية كاملة، بل أستطيع القول لم يول العناية الكافية نظرا لوقوعه في دائرة الآداب والسنن غالبا، وهذه لا يتناولها المؤرخون باعتبارها ليست إحداثا تاريخية مهمة فهي خارجة عن اختصاصهم، كما يتسامح فيها الفقهاء نظرا للتسامح في أدلة السنن، إضافة إلى كونها تتعلق بالحياة الشخصية فلم يفصل فيها أهل البيت عليهم السلام كما بسطوا الحديث في مواضيع أخرى. لذلك نضطر إلى التقاط نقطة من هنا وإشارة من هناك واستظهارا من هذا الحديث، ومحاولة تفسير لذلك الحديث حتى نصل إلى القيم العامة الجامعة بين هذه التفاصيل.

* إننا في هذا الموضوع على حدي سيف قاطع:

- البشرية المطلقة.

- الغيبية المطلقة.

وكلاهما مخيف إن تم التمسك به، ذلك أن مآل الطريق الأول والذي سلكه بعض المسلمين تحويل المعصومين وفي طليعتهم سيد الخلق والرجل الأكمل في الكون إلى إنسان عبثي يخجل المسلم من النظر في أحاديث سيرته.

واني لا يكاد ينتهي تعجبي ممن يفكر بهذه الصورة بالنسبة للرسول الأعظم (صلى الله عليه واله وسلم) فهو على قول بعضهم- والعياذ بالله- رجل مشرك مدة أربعين سنة، وعلى دين قومه قبل البعثة وهو الذي ينهض بعد بعثته لكي يجامل قومه أو نسيانا فيضيف إلى القرآن آيات تمجد الأصنام!! وهو صاحب اللعب مع زوجاته وتارك شؤون الأمة ليقوم بسباق الضاحية معهن فيسبق مرة ويخسر أخرى!! و.. و.. إلى غير ذلك..

هذا والإفراط في النظرة البشرية المطلقة ينتهي بنا إلى أن يكون بعض العلماء المتزهين عن القبائح

المذكورة افضل سيرة من هذا الشخص، وهو خلاف كل المعتقدات.

كما ان الإفراط في الجانب الغيبي لدى مجموعة أخرى من المسلمين من الذين رفعوا المعصومين فوق منازلهم، لتصورهم بأنهم بذلك يقدرونهم ويحترمونهم، هو الآخر بدوره اشتباه كبير.. إن هذه المترلة لا لأنهم أنصاف ملائكة، وان دمهم كذا وتركيبهم الجسمي كذا.. وإنما تبوؤا هذه المترلة العظمى لأنهم كانوا بشرا مثلنا ولكنهم ارتفعوا بالوحي والعلم الإلهي، وتطبيق القرآن إلى درجة أعلى من منازل الملائكة.

إن الفخر والمجد الذي حصل عليه هؤلاء هو انهم عاشوا ضرورات الجسد وضغوط الواقع الخارجي وعوامل الهبوط ولكنهم مع ذلك اخلصوا العبادة لله حتى اختصهم واستخلصهم، ويلخص القرآن الكريم هذه المعادلة بالجمع بين حالتي البشرية والغيبية بقوله:- حاكيا عن لسان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)..

- (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي إنما ألهكم إله واحد) [1].

- (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا) [2].

يتعين على القارئ للسيرة الشخصية للمعصومين عليهم السلام أن يتحرك في إطار هذين الحدين، فلا بشرية تترل بالمعصوم إلى القبائح العرفية فضلا عن المحرمات باعتباره في اعتقادنا الأكمل في وقته- ومطلقا بالنسبة للنبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)-، ولا غيبية ترفعه عن الأرض التي يعيش عليها لتحجز مكانه في السماوات بين الملائكة.

* كان من نتائج غياب النظرية الكاملة في هذا الجانب ان تعددت التفاسير تبعا للتمسك بالتفاصيل، من دون ملاحظة القيم العامة والخطوط الرئيسية فإذا كانت ميول شخص (تقشفية) فإنك تراه يجمع الأحاديث الواردة عن زهد أمير المؤمنين عليه السلام وشربه اللبن الحازر الحامض مع كسرات شعير يكسرها بركبته ليبسها. بينما إذا كان ممن انعم الله عليه، وكان من أهل التأنق فانه يحفظ جيدا أحاديث لبس الإمام الصادق والرضا عليهما السلام تلك الأكسية اليمنية الجيدة

---

[1] / سورة الكهف، الآية. ١١.

[2] / سورة الإسراء، الآية ٩٣.

والثمينة.

وهذا الأمر ليس جديدا، إذ إننا نواجه في التاريخ أيضا إشارات تنبيه إلى هذا الفهم فهذا ابن المنكدر يذهب لينصح الإمام الباقر (عليه السلام) وقد رجع من عمله في بستان له وهو يتصبب عرقا، ينصحه بترك الدنيا فيرده الإمام ويعرفه الخط العام لمعنى طلب الدنيا، وهؤلاء قوم من الصوفية يدخلون على الإمام الصادق فينكرون عليه بعد أن رأوا عليه ثيابا بيضا كأنها غرقىء البياض [٣].

ان هذا ليس من ثيابه ولا من ثياب آبائه كرسول الله وأمير المؤمنين عليهما السلام فيخبرهم بمدخلية الزمان والظروف في تغيير التفاصيل مع المحافظة على القيم[٤] .

وهنا من الضروري البحث عن عدة قضايا أثناء التعرض إلى تفاصيل تلك الحياة المباركة للمعصومين عليهم السلام.

فهل كل الأعمال التفصيلية تدخل في إطار السنة ؟! مثلا تفضيل هذا المعصوم للطعام الكذائي، وتفضيل معصوم آخر لنوع آخر هل يدخل ضمن (الحالة البشرية) ولا مدخلية للحكم الشرعي ؟! خصوصاً انه توجد لدينا أحاديث تبين عدم الاتفاق على التفاصيل في تفضيل هذا الطعام أو ذاك ؟

وهل للزمان مدخلية في آكل هذا النوع، ولبس ذلك الصنف، والزواج من هذا الجنس ؟!

وهل للموقع الذي يشغله الشخص في المجتمع مدخلية في تعيين النمط المطلوب في الحياة الشخصية، فإذا كان قائدا ينبغي أن يكون بشكل كما يستفاد من حديث الإمام أمير المؤمنين مع عاصم بن زياد وإذا لم يكن فبشكل آخر ؟!

بل.. هل للمكان دور في تعيين جانب من الحياة الشخصية ؟! فإذا كان مثلاً الأكل الفلاني بالمدينة مناسبا ومطلوبا فهل يكون بخراسان أيضا مطلوبا مع اختلاف الأجواء، بل ومع اختلاف الأشخاص أيضا، هذا بناء على أن توجيهات المعصومين في هذا الجانب موافقة لقواعد الصحة-

---

3 / تشبيها لها بالقشرة الملتصقة ببياض البيض في بياضها ونعومتها.

4 / يراجع تحف العقول ص ٢٥٦.

إن قلنا بكونها إرشادية– على الامثل ؟!

ثم ما هو المطلوب.. هل هو التفاصيل أم القيم العامة ؟! هل المطلوب الزهد في الدنيا– بمعناه الحقيقي– ؟! أم هناك علاقة خاصة مع الصوف باعتباره صوفا ؟!

هل هي القناعة والخشونة أم حب عذري لأقراص الشعير ؟!

هذه الأسئلة وسواها قد تجد إجابة في الصفحات القادمة– كما سنحاول ونرجو ، وقد لا تجد، لكنها تفتح القمقم عن مارد العقل للتأمل في سيرهم الشخصية ولعلها تكون البسملة لسور آخرين من الباحثين.

فوزي آل سيف

١٤١٠/١١/١هـ

الفصل الأول

حياة المعصومين بين الغلو والتقصير

خطان يمكن للباحث أن يلحظهما في التعامل مع المعصومين عليهم السلام، بالرغم من كونهما على طرفي نقيض إلا انهما ينتهيان إلى نتيجة واحدة، هي إخراج الناس من محيط الاتباع والاقتداء.

خطان يخرجان من الحد الوسط، والجادة إلى حاشيتي الطريق، إفراطا وتفريطا.

هذان الخطان هما: الغلو و التقصير.

ونظرا لعلاقة هذا الموضوع الأكيدة ببحثنا فإننا سوف نتناوله بشيء من التفصيل ذلك أننا ندرس الحياة الشخصية بمختلف جوانبها في حياة المعصومين عليهم السلام لكي ننطلق منها إلى معرفة النمط المطلوب دينياً ، ونحاول أن نتمثله في حياتنا كما أوضحنا في المقدمة، هذه العملية تعتمد على تكوين (الاتباع والاقتداء) كعلاقة نهائية بين الأمة وبين المعصومين، وهذه العلاقة لا يمكن أن تتكرس في ظل سيادة نظرة الغلو، ولا التقصير. ذلك ان المغالي كما سيتبين– لاحقا– لا يغالي إلا وهو مصمم على عدم الاتباع، فيرفع درجة الشخص إلى مراتب لا يدعيها الشخص لنفسه، فيخرجه من حالته البشرية إلى نموذج (إله– أو نصف إله) وحينئذ لا يطالب نفسه بالاقتداء به،

وأما المقصر فلأنه لا يعتقد بأن هذا الشخص يختلف عنه كثيراً فلماذا يقتدي به ؟!

ويظهر من عدد من الأحاديث إشارات إلى هذين الصنفين، وإن كان التأكيد يكثر في ذم الغلاة، وذلك للخطر الاستثنائي الذي يمثله هؤلاء على العقيدة، ما لا يمثله المقصرون.

– فعن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال: يا علي مثلك في هذه الأمة كمثل عيسى بن مريم احبه قوم فأفرطوا فيه وابغضه قوم فأفرطوا فيه، فنزل الوحي (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون)[5] .

– وعن أمير المؤمنين (عليه السلام):– يهلك فيَّ اثنان محب غال ومبغض قال.

– وعن أمير المؤمنين أيضا (عليه السلام): يهلك فيَّ رجلان محب مفرط يقرظني بما ليس لي، ومبغض يحمله شنآني على أن يبهتني[6].

وكما ذكرنا آنفا فإن الغلو كان الداء الأخطر والأكثر الذي ابتلي به المعصومون عليهم السلام من قبل الجهلة، والخاطئين، وسوف نتحدث عن هؤلاء عند الحديث عن دوافع الغلو وبواعثه.

فقد جاء رجل إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقال له:

سلام عليك يا ربي!! فقال له الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): مالك لعنك الله ربي وربك الله، أما والله لكنت ما علمتك لجباناً في الحرب لئيماً في السلم[7].

واختص أمير المؤمنين (عليه السلام) بمجموعة لم تستطع إدراك سر عظمته ولم ينته عقلها إلى إمكان وجود هذه العظمة في بشر مثلهم فألهوه، ولذلك احرقهم بالنار. فقد روي أن أمير المؤمنين (عليه السلام) مر عليهم وهم يأكلون في شهر رمضان نهاراً، فقال لهم: أسفر (مسافرون) أم مرضى ؟! قالوا : ولا واحدة منهما !!

قال: أفمن أهل الكتاب انتم ؟! قالوا: لا.

---

[5] / بحار الأنوار ٢ ص ٢٨٣، عن أحمد بن حنبل في مسنده.

[6] / نفس المصدرص ه ٢٨.

[7] / المصدر ٢٩٧.

قال: فما بال الأكل في شهر رمضان نهاراً ؟! قالوا: أنت! أنت..

و لم يزيدوا عن ذلك، ففهم مرادهم، فنزل عن فرسه، فالصق خده بالتراب ثم قال:

ويلكم إنما أنا عبد من عبيد الله فاتقوا الله وارجعوا إلى الإسلام فأبوا فدعاهم مرارا، فأقاموا على أمرهم، فنهض عنهم، ثم قال شدوهم وثاقاً وعلي بالفعلة والنار والحطب، ثم أمر بحفر بئـــرين فحفرتا فجعل احداهما سربا، والأخرى مكشوفة وألقى الحطب في المكشوفة وفتح بينهما فتحاً وألقى النار في الحطب فدخن عليهم وجعل يهتف بهم ويناشدهم: ارجعوا إلى الإسلام فأبوا فأمر بالحطب والنار، وألقي عليهم فاحترقوا، فلم يبرح واقفا عليهم حتى صاروا حمما[٨] .

ويظهر أن هذه المجموعة وإن انتهت بأشخاصها إلا أن منحى الغلو استمر لفترات متأخرة حيث نجد رجلا يسأل الإمام الرضا عليه السلام محتجا بقول ينتهي إلى الغلو في أمير المؤمنين وســـيأتي نص جواب الإمام عليه السلام. ويظهر أن الإمام الصادق عليه السلام قد ابتلي أيضا بفئة أخرى من هؤلاء الغلاة، فقد قام بعضهم يلبي باسم الإمام (يقولون لبيك) فلما أخبر بذلك خر ساجدا إلى الأرض وهو يبكي، ويلوذ بإصبعه ويقول: بل عبد الله، قنّ داخر، يقول ذلك مراراً كثيرة ثم رفع رأسه ودموعه تسيل على لحيته، قال مصادف (احد مواليه) فندمت على إخباره، وقلت له: جعلت فداك وما عليك أنت من ذا ؟!

فقال: يا مصادف إن عيسى لو سكت عما قالت النصارى فيه لكان حقا على الله أن يصم سمعه ويعمي بصره، ولو سكت عما قال ابو الخطاب (احد الغلاة) لكان حقا على الله أن يصم سمعي ويعمي بصري [٩] .

وهكذا الحال نجد أن عددا من الانتهازيين ممن صنعوا مذهب الواقفة، اضطرهم ذلك إلى القول باستمرار حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام تلك لم تكن إلا نماذج لأنماط غلو الجهال في حياة المعصومين عليهم السلام ننطلق منها للحديث عن دوافع الغلو، وعوامله.

---

8 / شرح نهج البلاغة ٥/٦.

9 / بحار الأنوارج ٥ ٢ ص ٢٩٣.

عوامل نشوء الغلو

(١) عدم المعرفة أو المعرفة الناقصة:

المراقب لموقع المفاهيم في الثقافة الإسلامية يجد أن المعرفة الصحيحة تحتل أهم المواقع، فحركة الإنسان الحياتية مرهونة في صحتها أو خطئها بالمعرفة التي يحملها، إذ (ما من حركة إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة)، ولهذا السبب يقيم المرء طبقاً لمعرفته، قبل تقييم عمله، فكم من عامل يجهد نفسه في العمل ولكنه يخطى الاتجاه لأنه ناقص المعرفة ولذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام: (لا تستعظمنّ أحدا حتى تستكشف معرفته)، ويتم تصنيف الاتباع لا على مقدار ممارساتهم العبادية فقط، وإنما على قدر معرفتهم ويقينهم (اعرف منازل الشيعة على قدر رواياتهم ومعرفتهم)، بل إن العبادة تختلف فهي من العارف أفضل في قيمتها عن عبادة قليل المعرفة أو الشاك إلى درجة أن يكون (نوم على يقين خير من عبادة على شك).

وأثر المعرفة في السلوك والعمل يدرك بملاحظة آثار الجهل الوخيمة في حركة الإنسان ذلك انك (لا ترى الجاهل إلا مفرطاً أو مفرطاً)[١٠] .

وكما أن المعرفة الصحيحة تؤثر في (حركة) الإنسان، فإن تأثيرها في (عقيدته) اكثر أهمية. ذلك أن العقيدة هي الإطار العام لحركة الإنسان، بل هي محتوى حياته. وبقدر ما تكون عقيدته سليمة، تكون حياته سعيدة، لذلك أمر الله الناس بالاستجابة لرسله لأنهم يدعون البشر إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم وحياتهم (يا أيها الذين أمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم).

ونحن نجد أن من أهم الدعوات التي يسألها المؤمن ربه، دعوات المعرفة (اللهم عرفني نفسك فانك إن لم تعرفني نفسك لم اعرف نبيك، اللهم عرفني نبيك فإنك إن لم تعرفني نبيك لم اعرف حجتك، اللهم عرفني حجتك فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني). وهذا التسلسل البديع في معرفة الله، ثم معرفة الرسول ثم معرفة الحجة والإمام، يبين احد الأسباب التي ضل لأجلها من ضل إذ انهم في إحدى حلقات هذه السلسلة لم يتوفقوا للمعرفة الصحيحة والكاملة،

10 / الأحاديث المذكورة عن كتاب الحياة ج ١.

فالذين لم يعرفوا الله حق معرفته، لم يقدروه حق قدره، فانحرفوا عن الجادة من بدايتها، وأولئك الذين لم يعرفوا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يسلموا له لذلك أعلنوا عليه الحـــرب، وأولئك الذين لم يعرفوا الإمام معرفة صحيحة انقسموا إلى (محب غال ومبغض قال).

في هذا المجال وجدنا أن عدم المعرفة نهائيا أو المعرفة الناقصة أدت بهـــؤلاء النـــاس إلى الغلـــو، خصوصا انهم جهلوا أسرار الفضل والتفوق في شخصيات المعصومين فرفعوا المعصومين (عليهم السلام) فوق مرتبة البشر (الأمر الذي لم يكن يدعيه المعصومون بل يلعنون من يصنع ذلك).

هؤلاء لم يستطيعوا الجمع بين (بشرية) الأنبياء والأئمة، وبين (جامعيتهم) للمناقب والفـــضائل فسلكوا احد طريقين لإراحة البال من عناء التفكير والجمع بين هاتين النقطتين المشكلتين فالبعض سلك طريق التفريط والتقصير، فكذب ما ورد بحق تلك الصفوة من البشر، زاعما أن مـــا ورد أكاذيب، وانه لا فرق بينهم وبينه، فكيف لا يستطيع هو أن يتخلص من قيود الهوى وأغـــلال المادة بينما يستطيع أولئك التحليق في سماء الفضائل، وهكذا وجد (المبغض القالي)، والـــبعض الآخر أراح نفسه بان أوجد تبريرا يرضي به ضميره، وذلك بأن اعتقد أن هؤلاء لا يحملون هذه الصفات، ولا يتمثلون تلك الفضائل إلا وهم يحملون روحاً أخرى (إلهية مثلاً) وإنهـــم ليـــسوا بشرا، إذ البشر يخضع للهوى والجسد، ويحد بحدود الزمان والمكان، وهؤلاء ليسوا محـــدودين!! وهكذا نشأ (المحب الغالي)، الذي صدق ولكنه لم يستطع أن يعرف وان يوفـــق بـــين بـــشرية المعصومين وجامعيتهم للفضائل.

(٢) الأحاديث المتشابهة:

في القرآن الكريم توجد (آيات محكمات هن أم الكتاب واخر متشابهات) والمحكمات هي التي يستطيع الغالب فهمها ومعرفة مؤدياتها ومعانيها، بينما المتشابهات تلك التي لا يستطيع معرفـــة معانيها غير من أنزلت عليهم والراسخين في العلم، وكل ذلك بتعليم الله سبحانه.

ووظيفة عموم الناس في ما يرتبط بالمتشابهات ردها إلى الله ثم إلى الرسول وخلفائه والعمل بهذه الآيات المتشابهات- من قبل الرجوع إلى الله وإلى الرسول- ليس فقط لا يهـــدي بـــل يوبـــق ويهلك.

وكما في القرآن الكريم آيات محكمة وأخرى يغلق فهمها على غير الراسخين في العلم، كذلك في الأحاديث والآثار، فمنها ما يستطيع فهمه غالب من يسمعه ومنها ما لا يستطيع إلا العلماء.

وكما كانت وظيفة العموم في ما يرتبط بمتشابه القرآن رده إلى الله وإلى الرسول فإن الوظيفة هنا كذلك- مع حفظ النسبة بين الآيات والأحاديث لجهة قطعية الصدور في الأولى وحاجة الثانية للتحقيق- فلا يجوز رد الآثار والأحاديث لمجرد أن عقولنا لا تبلغ أو لا تصدق وإنما ترد إلى العلماء بها، والمشكلة هي حين يقوم غير الخبراء بالتعاطي مع هذه الأحاديث وتفسيرها حسب مدركاتهم، فيفسدون ولا يصلحون.

وما نحن فيه هو من هذا القبيل ذلك فلو أخذنا مثالا هو الغلاة أيام أمير المؤمنين (عليه السلام)، يقول ابن ابي الحديد " لما ظهر من أخباره بالمغيبات حالا بعد حال، قالوا: ان ذلك لا يمكن أن يكون إلا من الله تعالى، أو من حلت ذات الإله في جسده، ولعمري انه لا يقدر على ذلك إلا بأقدار الله تعالى إياه عليه، ولكن لا يلزم من أقداره إياه عليه أن يكون هو الإله أو تكون ذات الإله حالة فيه، وتعلق بعضهم بشبهة ضعيفة نحو قول عمر وقد فقأ علي عين إنسان ألحد في الحرم: ما اقول في يد الله فقأت عينا في حرم الله!! ونحو قول علي: والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسمانية بل بقوة الهية، ونحو قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ا لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده واعز جنده وهزم الاحزاب وحده) والذي هزم الاحزاب هو علي بن ابي طالب لانه قتل شجاعهم وفارسهم عمرا لما اقتحم الخندق فاصبحوا صبيحة تلك الليلة هاربين مغلوبين من غير حرب سوى قتل فارسهم" [١١].

وهكذا ما أثر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: اتاكم علي في السحاب، فتصور هؤلاء جهلا بأن المقصود من كلامه أنه اتى في الغيوم والسحب، بينما إشارة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم أ إلى لبس علي (عليه السلام) عمامة سوداء اهداها الرسول اياه وكان يسميها السحاب ؟!

(٣) مصلحة المغالين:

يضاف إلى عدم المعرفة ومتشابهات الأحاديث، ان عددا من الغلاة كانوا (ملكيين اكثر من الملك) فبالرغم من انهم كانوا ينهون من قبل المعصومين (عليهم السلام) من دعواهم في المرحلة الاولى وفي مراحل أخرى يلعنون ويطردون ويتبرأ منهم، إلا انهم لا ينفكون متعلقين بدعوتهم،

---

[11] / شرح النهج ٥/٧.

هنا لا بد من التفتيش عن المصلحة، فهؤلاء لو كان دافعهم غير المـــصلحة الماديـــة أو الـــشهرة الاجتماعية والرئاسة لكانوا بذلك النهي، بل بتلك البراءة يتركون دعواهم وينصرفون عنـــها، ولكن ما دامت هذه الدعوة تحقق لهم وجودا اجتماعيا، والتفافا من قبل السذج والبسطاء مـــن الناس، فلم لا يستمرون فيها ؟!

بل كان الغلو نوعا من الهروب عن الالتزام الديني، فالمغالي يبدأ بتقديس الرسول أو الإمام ويرفعه فوق درجته بأن يجعله نبياً أو رباً– والعياذ بالله – ثم ينصب نفسه باباً وطريقاً وحيـــداً اليـــه، ويفرض على من يؤمن بدعوته أن يؤمن به باباً للإمام أو نبيا لذلك الرب!! ثم يبـــدأ باســـقاط التكاليف عن نفسه وعن من يتبعه واجبا تلو الاخر. ولو نظرنا إلى ما سطره التاريخ من حركات الغلو وجدنا انها انتهت إلى حركات اباحية ومذاهب غير ملتزمة.

فالغلاة في أيام امير المؤمنين (عليه السلام) يفطرون ايام شهر رمضان من غير مرض ولا سفر ثم يدعون: أنت أنت !!

وهم انفسهم في وقت متأخر– ايام الإمام الحسن العسكري– تجدهم يتأولون تاويلات باطلـــة لنفي التكاليف، فهم يقولون: ان الصلاة معناها رجل، لا ركوع ولا سجود، وكذلك الزكـــاة معناه رجل لا عدد دراهم ولا اخراج مال، وترقوا في ذلك حتى اسقطوا الواجبـــات واحلـــوا المحرمات واباحوا نكاح المحارم!!

وقد فضح أهل البيت عليهم السلام هذا الهدف الذي يسعى له الغلاة، الا وهو اسقاط التكاليف الدينية وحذروا منها.

فعن الإمام الصادق (عليه السلام) إنه قال: احذروا على شبابكم، الغلاة لا يفسدوهم فان الغلاة شر خلق الله، يصغرون عظمة الله ويدعون الربوبية لعباد الله، والله ان الغلاة شر مـــن اليهـــود والنصارى والمجوس الذين اشركوا.. ثم قال:

الينا يرجع الغالي فلا نقبله، وبنا يلحق المقصر فنقبله.. قيل له: كيف يا ابن رسول الله ؟!

قال: الغالي قد اعتاد على ترك الصلاة والزكاة والصيام والحج فلا يقدر على ترك عادتـــه ابـــدا والمقصر إذا عرف عمل و اطاع[١٢].

---

12 / بحار الأنوارج ٢٥ ص ٢٩٥.

(٤).. وعوامل ا خرى:

ولأننا لا نريد أن نمحض البحث لموضوع الغلو وعوامله لذلك سنشير اليها اشارة عابرة. فمن العوامل المساعدة على نشوء الغلو تسرب (وتسريب) الافكار الاجنبية عن العقيدة الاسلامية الى المجتمع الاسلامي.. ذلك أن عمليات الفتح الاسلامي للبلاد المجاورة جعلت شعوب تلك المناطق يختلطون بسهولة بالمسلمين وحصل في هذا الاختلاط الاجتماعي تبادل ثقافي، فكما اثر المسلمون في شعوب تلك المناطق واقنعوها بالدين، فإن عقائد تلك الشعوب وجدت طريقا كي تختلط بعقائد المسلمين لابسة من جديد ثوب الاسلام، إضافة إلى حركات التوجيه التي نشطت حينئذ كان لها دور كبير في هذا (التسرب)، فقد كان إضافة إلى هذا (التسرب) عملية تسريب " فقد تسرب كثير من الاسرائيليات عن طريق نفر من المسلمين انفسهم امثال عبد الله بن عمرو بن العاص فقد روى انه اصاب زاملتين من كتب اهل الكتاب يوم اليرموك فكان يحدث الناس ببعض ما فيها اعتمادا على حديث مروي "[١٣]. ونستطيع أن نفهم هذا التسريب بتتبعنا لنشوء بعض الفرق، فهذا سوسن النصراني كان أول من نطق بالقدر وقد اظهر الإسلام، وعنه اخذ معبد الجهني، واخذ غيلان الدمشقي عن معبد، ثم عاد سوسن إلى النصرانية بعد أن بث فكرته.

وهذا ابن كلاب من بابية الحشوية، وكان عباد بن سليمان يقول انه نصراني، قال ابو عباس البغوي: دخلنا على فيثون النصراني وكان في دار الروم بالجانب الغربي فجرى الحديث إلى أن سألته عن ابن كلاب فقال فيثون: رحم الله عبد الله (اسم ابن كلاب) كان يجيئني فيجلس إلى تلك الزاوية وعني اخذ هذا القول، ولو عاش لنصرنا المسلمين[١٤] (أي جعلناهم نصارى).

* كما كان من العوامل ردة الفعل التي حصلت لدى بعض فئات المسلمين- أو افرادهم- تجاه مظلومية شخصيات معينة في التاريخ، فتراكم الظلم، وزيادته عن الحد المحتمل في حق أهل البيت (عليهم السلام) ادى بعدد من جهال الناس- إلى أن يأخذوا موقفا معاكسا لتلك المظالم في زيادة

---

13 / الاسرائيليات واثرها في كتب التفسير د. رمزي نعناعة ص ١١٠.

14 / الإمام الصادق والمذاهب الاربعة ج ٤ ص ٣٧٣.

التقديس لهذه الشخصيات، بحيث خرجوا من جادة الاعتدال.

كيف واجهوا الغلو:

يمكننا تقسيم جهد أهل البيت عليهم السلام في مواجهة الغلو إلى قسمين تبعا لانقسام هذه الفئات، فالفئة الأولى تلك التي قررت أن تمضي في خط الغلو، لا لأجل شبهة، وإنما لأجل مصلحة، هؤلاء الذين يعرفون ماذا يصنعون، لمثل هؤلاء لم يكن لأهل البيت من موقف سوى فضحهم ولعنهم وطردهم، فإن قدروا عليهم كما كان الحال ايام امير المؤمنين (عليه السلام) فانهم يصفون قتلا وحرقا، وفي الازمنة التالية كان اهل البيت (عليهم السلام) يأمرون اتباعهم بقتلهم اغتيالا [15]– إن استطاعوا– ويظهرون البراءة منهم أمام اتباعهم.

أما الفئة الثانية والتي يبدو انها كانت الاكثر، تلك التي لم تكن تستطيع (معرفة) الرسول والأئمة معرفة صحيحة فيلتبس عليها الأمر، فتنسب اليهم امورا يبرؤون منها تنسب اليهم ذلك بدافع التقدير، وحل المعضل الفكري الذي تعانيه، لهؤلاء وجدنا أهل البيت عليهم السلام كانوا يقومون بـ :

(تأكيد الحالة البشرية):

كما سبق وأن قلنا إن بعض الناس لنقص في معرفتهم يلجؤون إلى رفع الأنبياء واوصيائهم عن الدرجة البشرية إلى درجة أعلى.. والقرآن الكريم وهو يعالج هذه المسألة كان واضحا وصريحا عندما قال:– موجها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)–: (قل إ نما انا بشر مثلكم يوحى الي إنما الهكم إله واحد) فهو (صلى الله عليه واله وسلم) مثلهم تماما في تركيبه وخلقه، والغرائز التي ركبت فيه والضغوط التي تلم به، إلا أن الفارق بينه وبينهم انه يتلقى الوحي، وانه قد صاغ نفسه– لا جسمه– من جديد على اساس هذا الوحي، وفي آية أخرى يتحدث القرآن عن نبي الله عيسى وامه مريم، حيث غالى فيهما بنو اسرائيل (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا ياكلان الطعام) فكلمتا (رسول وصديقة) تشيران إلى الجانب المرتبط بالرسالة وبالله، بينما كلمة (ياكلان الطعام) تشير إلى الممارسة البشرية التي كانا يقومان بها، وقد ورد في تفسير (ياكلان الطعام) انهما يتغوطان من باب ذكر اللازم للدلالة على الملزوم، وهذه

---

15 / يراجع نظام الادارة الدينية للمؤلف.

العملية عملية بشرية صرفة.

وفي الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم): لا ترفعوني فوق حقي فإن الله اتخـذني عبدا قبل أن يتخذني نبيا. ويحذر امير المؤمنين من الغلو مبيناً انه مع كل فضائله إلا أنـه عبـد مربوب.

ونجد الإمام الصادق (عليه السلام) يأمر أحدهم وكان يحمل بعض افكار الغلاة بان يجهز له ماءاً ليدخل الى بيت الخلاء، وبهذا العمل يسقط كل افكار ذلك الرجل، ولنقرأ الرواية، فقـد روي عن اسماعيل بن عبد العزيز قال: قال لي ابو عبد الله (عليه السلام) يا اسماعيل: ضع لي في المتوضأ ماء.. فقمت فوضعت له، فدخل فقلت في نفسي: انا اقول فيه كذا وكذا ويدخل المتوضأ يتوضأ ؟! فلم يلبث أن خرج فقال: يا اسماعيل لا ترفع البناء فوق طاقته فينهدم، اجعلونا مخلوقين وقولوا فينا ما شئتم فلن تبلغوا.. قال اسماعيل.. وكنت اقول انه.. واقول واقول. (اي انه رب ورازق وما شابه)!! فانت ترى ان الإمام (عليه السلام) بهذه المسألة هدم صرحا من الافكار الخاطئة في ذهن هذا الرجل.

وسوف يأتي في البحوث القادمة عن حياتهم الزوجية وما يرتبط بها من الشهوة الجنسية وعـن مسائل الطعام والشراب واللباس، ما يفي ويزيد في تأكيد هذا الجانب البشري لتلك الفئة الـتي أرادت أن تحترمهم احتراما كبيرا فاخطأت الطريق.. لكننا هنا نكتفي بنقل حديث عن الإمـام الرضا (عليه السلام) والذي يبدو أن عصره، باعتبار انه كان عصر مناظرات ومناقشات، شهد نقاشات كثيرة حول هذا الجانب.

فقد قال المأمون للإمام الرضا (عليه السلام): بلغني أن قوما يغلون فيكم ويتجاوزون فيكم الحد. فقال الرضا (عليه السلام): حدثني ابي موسى بن جعفر عن ابيه جعفر بن محمد عن ابيه محمد بن علي عن ابيه علي بن الحسين عن ابيه الحسين بن علي بن ابي طالب قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): لا ترفعوني فوق حقي فإن الله تبارك وتعالى اتخذني عبداً قبل أن يتخـذني نبيا، قال الله تبارك وتعالى: (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكمة والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسـون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين اربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) وقال علي (عليه السلام) : يهلك في اثنان ولا ذنب لي: محب مفرط ومبغض مفرط.

وأنا لنبرأ إلى الله عز وجل ممن يغلو فينا فيرفعنا فوق حدنا كبراءة عيسى بن مريم من النصارى، قال الله عز وجل: (وإذ قال الله يا عيسى بن مريم ءأنت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن اقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك إنك انت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما امرتني به ان اعبــدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وانت علــى كل شيء شهيد) .

وقال الله عز وجل: (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون) وقال عــز وجل: (ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة كانا ياكلان الطعام) ومعناه انهما كانا يتغوطان، فمن ادعى للانبياء ربوبية أو ادعى للأئمة ربوبية أو نبــوة أو لغــير الأئمة امامة فنحن براء منه في الدنيا والاخرة [١٦].

خط التقصير:

في الطرف المقابل لخط الغلو والإفراط في الأنبياء والاوصياء كان هناك خط التقصير والتفريط، حيث أن هذا الخط ليسر فقط لم يغال فيهم بل بخسهم حقوقهم، ونسب اليهم اقوالاً أو افعالاً لا تليق بالعاديين من محترمي العلماء أو أصحاب العلم، بل اشراف القبائل ولقد افرط اصحاب هذا الخط في التركيز على بشريتهم بحيث حصروا الجانب الغيبي، وما يتصل بالوحي والرســالة في زاوية ضيقة جدا من حياتهم.

وسوف نتحدث عن العوامل التي ساعدت على انتشار افكار هذا الخط، والذي يبــدو انــه لا يتصل فقط بتفسير حياة الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بل يتعدى إلى تفسير حيــاة الأنبياء السابقين (عليهم السلام) فضلا عن

الاوصياء وبالرغم من أن النصوص التالية- والتي نعتقد بخطئها- لا تليق بمقام الرسالة والنبوة، إلا انها لما كانت قد وردت في كتب الحديث بل و(الصحاح) فلا بد من الاشارة إلى بعضها، لنرى كيف أن هذا الاتجاه أيضا وقع في التطرف الذي وقع فيه خط الغلاة ولكن من الجهة المقابلــة. ونرى كيف أن هذا الخط لما كان قائما على اساس غير سليم، ادى به ذلك إلى أن يدعي هذه

---

[16] / بحار الأنوارج ٥ ٢ ص ٢٧١.

الأحاديث على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والرسل السابقين.

* واليك بعض هذه الأحاديث:

– النبي يبول واقفا ؟!

عن أبي وائل قال كان ابو موسى يشدد في البول ويقول أن بني اسرائيل كانوا إذا اصاب ثوب احدهم البول قرضه، فقال حذيفة: لوددت أن صاحبكم لا يشدد هذا التشديد فلقد رأيتني أنـــا ورسول الله نتماشا فلقي سباطة خلف حائط فقام كما يقوم احدكم فبال، فانتبذت منه، فاشار الي فجئت فقمت عقبه حتى فرغ [١٧].

–.. ويلعن بدون استحقاق!!

عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: اللهم إنما محمد يغضب كما يغـــضب البشر واني قد اتخذت عندك عهدا لم تخلفنيه، فأيما عبد آذيته أو سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها كفارة وقربة تقربه اليك [١٨] –... وينسى آيات القرآن فيسقطها!

عن هشام عن ابيه عن عائشة قالت: سمع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رجلا يقرأ في المسجد فقال: رحمه الله اذكرني كذا وكذا اية اسقطتها في سورة كذا وكذا[١٩] .

– ويستمع الغناء من المغنيات!.

عن عائشة: ان ابا بكر دخل عليها والنبي عندها يوم فطر أو أضحى وعندها مغنيتان تغنيان بمـــا تقاذفت الانصار يوم بغاث، فقال ابو بكر: مزمار الشيطان ؟! (مرتين قالها) فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): دعهما يا ابا بكر ان لكل قوم عيداً وان عيدنا هذا اليوم [٢٠].

– ويتفرج مع زوجاته على الراقصين في المسجد!

---

17 / صحيح البخاري ج ا كتاب الوضوء.

18 / المصدر ج٤ **كتاب الدعوات**.

19 / المصدر ج٨ كتاب الدعوات.

20 / المصدر ج ه كتاب فضائل اصحاب النبي.

– عن عائشة أنها قالت: لقد رأيت رسول الله يوما على باب حجرتي والحبشة (الراقصون السود) يلعبون في المسجد ورسول الله يسترني بردائه لكي انظر إلى لعبهم ثم يقوم من اجلي حتى اكون أنا التي انصرف فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن حريصة على اللهو[٢١].

–.. وخده على خد زوجته!

–– ايضا عن عائشة في حديث اخر.. وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب فاما سألت النبي واما قال تشتهين تنظرين ؟ فقلت نعم: فاقامني وراءه خدي على خده وهو يقول دونكم يا بني ارفدة (تشجيعا لهم) حتى مللت قال: حسبك ؟! قلت نعم قال: فاذهبي [٢٢].

ولو تتبعنا بقية الأحاديث لطال بنا المقام، ونحن هنا لا نريد أن نناقش كل حديث بمفرده سواء من ناحية سنده أو من ناحية مخالفته مع احاديث أخرى

تنقلها هذه الصحاح فيما يرتبط بسيرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد تعرض لذلك– بشكل مستقصى صاحب كتاب (في رحاب الصحيحين) [٢٣] فليراجع في موقعه.

الا إننا ومن النظرة الاولى نستطيع أن نرى أن هذه الأحاديث لا تليق في مؤدياتها بأي مؤمن عادي فضلا عن سيد الخلق، وافضل الأنبياء، واكمل المرسلين. و(اديب الله). فلو لم ترد هذه الأحاديث في (الصحاح)، واغفلنا الاسم المذكور فيها ثم عرضناها على علماء المسلمين على أنها وقائع حياة عالم من العلماء، فانهم لا شك يتنفرون منه، ويتقززون!!

فإذا كان ابو موسى– وهو احد المسلمين– يشدد في مسألة البول، ويراها منقصة لمن يبول واقفا، وترى احاديث أخرى– في نفس الصحيح– ان من عذاب القبر ما يسببه الاستهانة بالبول والنجاسة، ثم يحث ابو موسى المسلمين الذين يستمعون له على الاهتمام بذلك– استقذارا للعادة الجاهلية–، فكيف يعتبر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)– وهو اكمل الناس خلقا– الأمر

---

21 / المصدر ج١ ا كتاب الصلاة.

22 / المصدر ج٤ كتاب الجهاد.

23 / في رحاب الصحيحين/ الشيخ محمد صادق نجمي وترجمة السيد حسن القزويني

طبيعيا ثم... كما يقوم احدكم ؟! حسب نص الحديث !!
ثم إننا في مسألة اللعن لا نستطيع أن نقبل ذلك من شخص عادي لأن اللعن من دون استحقاق والسب والشتم هكذا عبثا خلاف العدالة والاخلاق، فكيف نقبله من الرسول وهو الذي اثـــر عنه أنه لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ، حتى في مقابل اليهود الذين كانوا يشتمونه ويدعون عليه بالموت، ولا في مقابل الكفار في غزوة احد لأنه لم يبعث لعاناً وإنما بعث رحمة للعالمين، فكيف يقوم والحال هذه بلعن اشخاص من المسلمين من دون استحقاق [٢٤] ؟!
وشخص يلعن عبثاً، ويسب، ويجلد ويخضع لعواطفه ومشاعره في ما يرتبط بعقوبات الناس من دون دليل ولا جناية.. كيف يؤتمن على كلام الله وعلى تطبيق احكامه ؟!
جواب هذا السؤال في الحديث الثالث الذي يرى أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ينسى، ويسقط آيات من القرآن من السور!!.
ثم داهية الدواهي..
بالله عليك– ايها القارىء– هل تتوقع من رجل كان عليه أن يجهز اكثر من ثمانين سرية وجيشا، وأن يقيم دولة، وأن يطبق احكام الله، وأن يعلم المسلمين.. وان.. وان.. هل تتوقع من رجـــل كهذا أن يترك كل تلك المسؤوليات لكي ينفذ رغبات زوجاته في مشاهدة الراقصين، واللاعبين بالحراب ورجال السيرك ؟! واين ؟! في المسجد، في بيت الله الذي وضع للعبادة وذكر الله!! الأمر الذي لا يقبل به عاقل، فقد روي في تتمة هذه الأحاديث أن عمر بن الخطــاب لمــا رأى هؤلاء الراقصين في المسجد نهرهم وحصبهم بالحصى!! بينما يجلس اعظم الأنبياء والمرسلين– مع زوجته وخدها على خده– متفرجاً ومأنوساً بهذه المناظر اللاهية ؟!
وتحولت هذه المسائل في جهتين: الأولى انها توسعت لتشمل بقية الأنبياء (عليهم السلام) والثانية انها تبلورت في صورة عقيدة، بعد أن كانت (اخباراً).
قال ابن ابي الحديد ما خلاصته: قال قوم من الخوارج وابن فورك من الاشعرية انه يجوز بعثة من كان كافرا، وقال برغوث المتكلم من النجارية لم يكن الرسول قبل البعثة مؤمنا بالله!! وقـــال

---

24 / لا يخفى الهدف السياسي الذي تنتهي اليه هذه الأحاديث حيث لعن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عــدداً مــن الــذين اظهروا الإسلام، وتبرأ منهم **وطرد** بعضهم من المدينة، فلكي يبيضوا صفحة هؤلاء نسبوا للرسول هذه الأحاديث.

السري: انه (الرسول) كان على دين قومه (الشرك) أربعين سنة!!.

وقال ابن حزم في كتابه الفصل في الملل والأهواء: فذهب طائفة إلى أن رسل الله يعصون في جميع الكبائر والصغائر حاشا الكذب في التبليغ فقط، وهو قول الكرامية من المرجئة وقول ابي الطيب الباقلاني من الاشعرية ومن اتبعه.. ثم قال واما هذا الباقلاني فانما رأينا في كتاب صاحبه ابي جعفر السمناني، قاضي الموصل انه كان يقول : أن كل ذنب دق أو جل فانه جائز على الرسول حاشا الكذب في التبليغ فقط، وقال: جائز عليهم أن يكفروا !! وقال: إذا نهى النبي عن شيء ثم فعله فليس دليلاً على أن ذلك النهي قد نسخ لأنه قد فعله عاصيا لله تعالى ! وليس لاصحابه أن ينكروا عليه، وجوز أن يكون في امة محمد من هو افضل من محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) منذ بعث إلى أن مات [٢٥]!!

ونوجه القارئ الكريم إلى أن هؤلاء القائلين: من المسلمين ! لكيلا يشتبه عليه الأمر.

ونحن هنا لا نريد أن نناقش المسألة عقيديا، لابطالها، إنما كنا في صدد بيان شيء من تعامل خط التقصير مع الأنبياء (عليهم السلام) وسيدهم محمد (صلى الله عليه واله وسلم) ثم يهون عليك معرفة نظرهم في الاوصياء والأئمة (عليهم السلام).

دوافع التقصير

ا- المعرفة الناقصة:

كما سبق وأن قلنا في مبحث الغلو، فإن الأمر هنا أيضا يأتي، فالمعرفة الناقصة بشأن الرسول أو المعصوم، تجعل هؤلاء المفرطين يغلبون الجانب البشري الى الحد الذي ينعدم فيه تأثير الجانب الرسالي (الوحي) في شخصية المعصوم.

انهم يتصورون ان النبوة أو الإمامة لباس يلبسه صاحبه في اوقات الدوام ليعرف من أي صنف هو. أو وظيفة يؤديها كما يؤديها غيره لو كان هناك غيره، وانه لا ميزة له اطلاقاً و" ان الرسول ما هو إلا مجرد وسيلة لا غاية، فضله من الوحي ومآثره من الرسالة وعظمته في الجهاد، وقدوته

---

25 / تعليقة الشيخ الارموي على نهج الحق للعلامة الحلي ص ١٤٢.

في الاخلاق مثل اي قائد أو زعيم، فاختياره للرسالة ليس ميزة لشخصه بل لأن الرسالة لا بد ان تبلغ من خلال رسول تتوفر فيه شروط الاداء والتبليغ، والتركيز على الاختيار والاصطفاء ليس من الوحي في شيء، وهو اقرب إلى الاصطفاء اليهودي والوحي يرمي إلى ما بعد الاختيار وهو التبليغ وليس إلى اختيار الشخص ذاته ".

ويضيف د. حسن حنفي معبرا عن رأي هذا الخط فيما يرتبط بالرسول:

" وان اثبات ان الرسول خاتم الأنبياء والمرسلين لا يعني أيضا تركيزاً على فضائل شخص أو على مزايا فردية لأحد بل يعني أن النبوة قد انتهت وأن الإنسان قد استقل " [٢٦].

هذه النظرية تتجاوز الكثير من حقائق التاريخ وثوابت العقيدة، ويتجلى فيها نقص المعرفة الذي يؤدي إلى تضخيم الجانب البشري والغاء جانب الوحي والرعاية الالهية، بالتدريج.

إن اختيار محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لأداء الرسالة ميزة مهمة لشخصه لأنه كان افـــضل خلق الله لاداء هذه الرسالة وتبليغها، ولو كان في خلق الله من اول الخلق الى قيام الساعة افضل منه لكان هو الذي يتحمل مسؤولية تبليغ الرسالة، وكونه خاتماً للنبيين يعني اضافة إلى ختمـــه للنبوات والرسالات، ختمه للفضائل..

إننا نجد أنفسنا أمام منطق متميز عندما يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا (صلى الله عليه واله وسلم)، فهذا النبي الذي ادبه الله حتى بلغ مبلغا قال فيه (.. وانك لعلى خلق عظيم) آنئذ اعطاه سمة لم يتحدث عنها القرآن لاحد من النبيين حينما قال مخاطبا البشر- والمسلمين خـــصوصا- (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهحم عنه فانتهوا) بل أدب المسلمين بأدب خاص مع الرسول، انه امرهم بالصلاة عليه، لأن الله وملائكته يصلون عليه (إن الله وملائكته يصلون على النبي يـــا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) ووضع مجموعة قوانين وآداب، تحدثت عنها سورة الحجرات .

وهذا لم يتم إلا بعد أن تهيأ الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) بعون الله إلى المقام الذي اريد له، فمنذ البدايات كان يتقلب في الساجدين [٢٧] وكان تحت رعاية الله وعند طفولته (قرن الله بـــه

---

26 / من العقيدة إلى الثورة ج ا ص ا- ١٧.

27 / يراجع فصل الاصلاب الطاهرة والارحام المطهرة.

(صلى الله عليه وآله وسلم) من لدن أن كان فطيماً اعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن اخلاق العالم ليله ونهاره) [28]. وهكذا حتى بعثه الله هادياً للخلق.

لقد كان الأنبياء والاوصياء بشراً .. وهذا صحيح، ولكن بشر (أعلى في الصفات) بحيث يستطيعون أن يصبحوا (محال معرفة الله، ومساكن بركة الله، ومعادن حكمة الله وحفظة سر الله). ميزتهم لم تكن في الصفات الجسمية الخارجية، والتركيب البدني وخطأ معاصريهم- وربما من جاء بعدهم ايضا- انهم ارادوا أن يكون هناك علامات فارقة تدل على نبوة هؤلاء وامامة أولئك (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق) ارادوا ملكاً يمشي على الأرض، بينما ميزتهم كانت في صفاتهم النفسية، في علمهم، وحلمهم، وقدرتهم القيادية، في عمق ايمانهم بالله، واخلاصهم لدينه.

ب- العامل السياسي:

الناظر بعمق يلاحظ بوضوح آثار العامل السياسي في تشكيل هذه النظرة ونشرها بين المسلمين. ذلك ان اظهار الأنبياء والمعصومين بمظهر العابثين والبشر الذين ينساقون وراء عواطفهم وشهواتهم، يسهل على الحاكمين الذين يريدون الاستمرار في طريق العبث الاغراق في الترع.

ومن المعلوم أن مرتكز المسلمين قائم على ان المخالفات الدينية وتجاوز الاحكام والتشريعات لا تنسجم مع مقام الزعامة الدينية و(خلافة المسلمين)، ونظراً لكون هؤلاء الزعماء قد مردوا على الانحراف، لذلك لا بد من مخرج، وافضل مخرج ادعاء تلك الاعمال- بنسبة ما- للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والتأكيد عليها، ليصبح القيام بها من قبل الخليفة والحاكم امراً معقولا.

فإذا كان الرسول يستمع إلى المغنيات في بيته دون أن ينكر عليهن فما الذي يمنع الخليفة من شرب الخمر بين حبابة وسلامة، حتى يريد الطيران ؟!

وإذا كان- والعياذ بالله- يهدى له الخمر قبل البعثة [29] فما الذي يمنع الحاكمين من شربها

---

28 / نهج البلاغة خطبة ١٩٢.

29 / روي في مسند احمد ج ٤ ح ٢٣٥ ما يلي: عن نافع بن كيسان أن اباه اخبره انه كان يتجر في الخمر زمن النبي ومعه خمر في زقاق يريد بها التجارة فأتى رسول الله فقال: يا رسول الله جئتك بشراب جيد، فقال رسول الله: يا كيسان انها حرمت بعدك !!.

(صبوحا) و(غبوقا) بعد البعثة ؟!

وهكذا على قاعدة:

(إذا كان رب البيت بالدف مولعا فشيمة أهل البيت كلهم الرقص) تصوير الرسول- فضلا عن الأئمة- بهذه الصورة (البشرية في اسفل درجاتها) يجعل من السهل على الحاكم أن يكون امير المؤمنين- وظل الله في الأرض- ومحيي السنة ولكنه في نفس الوقت يعاقر الخمر ويترك الصلاة و.. الخ.

القضية اشبه هنا بان يكون الرسول شخصاً عادياً فتوظف في شركة إلهية فهو مطالب أمام هذه الشركة- ومسؤولها- بواجبات وفروض، لكنه عندما ينتهي الدوام ليس مطالبا بأي شيء تجاه هذه الشركة..

إضافة إلى ذلك فإن نزع صفة (وما ينطق عن الهوى) يجعل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) زعيماً جاء لمرحلة، وكما حركته مبادؤه، حركته مشاعره وعواطفه فظل يوزع اللعنات والرحمات، يمينا وشمالا، ويعطي الاوسمة واحكام العقوبات لمن يستحق ولمن لا يستحق وبالتالي، إذا سادت هذه الفكرة، فهذا يعني أن ما ورد في ذم بني امية وكونهم الشجرة الملعونة في القرآن، وما ورد من طرده لبعض الاشخاص وهدر دم البعض الاخر، لم يكن من الدين وإنما هو من الهوى وهكذا يتم تبرئة الحكم ومروان ومعاوية وبني امية ليتم اتهام الرسول [30] (صلى الله عليه وآله وسلم)!!

بالتالي فكلام الرسول في ايامه لم يكن حجة حسب هذه النظرية لأنه منبعث عن الهوى ! فضلاً عن تأثير هذا الكلام بعد وفاته (صلى الله عليه واله وسلم).. آنئذ يكون اتباعه امرا غير عقلائي ألم يقل الحجاج الثقفي وهو ينظر الى المسلمين يطوفون بقبر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):

- ما لهم يطوفون باعواد ورمة بالية ؟! هلا طافوا بقصر امير المؤمنين ؟!

---

30 / الغريب أن هذه الأحاديث في صحيح مسلم جاءت تحت عنوان من لعنه النبي و لم يكن لذلك مستحقا!! انظر ج ٤ ص ٢٠٠٧ باب من لعنه النبي وليس هو اهلاً لذلك.

إن هذه هي النتيجة الطبيعية لخط التقصير، فهل يمكن بعدها افتراض اقتداء الاتباع بسيرته والحال هذه ؟!

ج- افكار الخارج :

شجع المستشرقون هذا التوجه في كتابة السيرة وفي عرض شخصية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، سواء منهم المنصفون أو المغرضون، أما المغرضون فالسبب واضح، وأما المنصفون فلأن التركيبة الثقافية التي ينطلقون منها، تركيبة مادية لا تستطيع أن تفهم كامل العوامل الغيبية، ولا تستطيع إدراك شخصية الرسول بالتالي.

والملاحظ انهم يتعاملون مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من خارج الدائرة، التي وضع نفسه فيها لذلك فإن تحليلاتهم تبنى على هذا الاساس، خصوصا انهم ينطلقون من واقع تهميش الدين المسيحي في حياتهم، والغاء دور السيد المسيح (عليه السلام).

وبالرغم من أننا نتجنب- عادة- نقل أقوالهم لما فيها من جرأة على مقام الرسالة وشخصية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا أننا هنا سنضطر إلى نقل بعضها للتدليل على ذلك الخط الحاقد الذي أراد إبراز شخصية الرسول ضمن إطار بشري وضيع، ثم نستكشف من هذه الأقوال أو بعضها الأثر الذي خلفته في رؤية بعض المسلمين من اصحاب خط التقصير فيما يرتبط بشخصية الرسول ا لكريم.

ففي كتاب الإسلام والغرب نقرأ ما يلي عن تصورات الكتاب والقساوسة المسيحيين عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم):

ينسب المؤلف إلى المؤرخ " ليل " قوله: " كان يسكن يثرب (المدينة) ومكة، وكل المنطقة التي بجوارهما اناس يؤمنون بالأصنام ويعبدون الشمس، والقمر، والوحوش، والطيور، وليس لديهم معرفة بالله، ولا يوجد عندهم ملك ؟ فهم اناس ذوو دراية وفهم بسيطين ". " وكانت ولادة محمد عادية، إذ كان في البداية وثنيا كما كان العرب القدماء في زمانه !!. وقد عاش بربريا بين برابرة، ووثنيا بين وثنيين ". ويتابع: " كانت الجزيرة العربية على تخوم العالم المسيحي، وكانت الملجأ الآمن والطبيعي للهراطقة الخارجين على القانون وبدأ الإسلام مجموعة من العقائد المسيحية واليهودية والوثنية "!!

وينسب المؤلف إلى المرجع (ريبرو بيشو) قوله: " احضرت إلى محمد امرأة تدعى مارية القبطية،

فاتخذها محظيته. وقد حدث أن خلا بها في بيت زوجته حفصة. وعندما رجعت زوجة محمـــد رأهما فأثار هذا غضبها، واقتربت منه قائلة: يا نبي الله، ألا يوجد بين نسائك امرأة أحقر مني ؟ لماذا خلوت بها في بيتي ؟، فأجابها محاولا تهدئتها واسترضاءها: هل يسرك لو أنني امتنعت عنها ؟ فأجابته (نعم) ؟ فأقسم أن لا يقرب مارية مرة ثانية وقال لحفصة: لا تخبري أحدا بهذا الأمـــر! وبعدئذ نكث بقسمه ووعده وعاد إلى مارية ثانية. ومن ثم جاء في قرآنه في هذا الصدد ما معناه: إذا أقسم المسلمون قسما ثم رغبوا أن ينكثوه، فبإمكانهم أن يفعلوا ذلك على أن يكفروا بعـــد ذلك عن خطئهم دون الالتزام والتقيد بقسمهم ".

ويقول المؤلف: " لقد تبنى الكاتب اللاتيني (سان بيدرو) رأي أعداء محمد المعاصـــرين وذلـــك بقوله: إن اصطناع الوحي عند النبي ما هو إلا دليل على التظاهر الكاذب بالفضيلة والدين، أو إن الشيطان قد تلبس في شخصية محمد، وأعتقد بأن ولع محمد بعائشة ليس بعمل جدير بنبي !. ويشارك المؤلف منتقدي محمد في موضوع تعدد زوجاته فيقول: " ليس ممكنا ذكر قوائم باسماء زوجات محمد فهن كثيرات... ". ويقول المؤرخ " سان بيدور" معللا تعلق النساء بمحمد: لقد كان محمد يلبس الحلي، ويتعطر بالروائح، وهكذا كانت رائحته جميلة وكـــان يلـــون شـــفتيه ويكحّل عينيه، وكان يفعل كما يفعل زعماء المسلمين (زعماء فاتحي الاندلس من المـــسلمين) اليوم ". وعندما انتقد اتباع محمد النبي على تصرفه هذا اجابهم بأنه منح ثلاث متـــع في هـــذه الدنيا: الطيب والنساء والصلاة " وكم تبدو هذه الاشياء معيبة فى نظر المـــسيحيين " ويقـــول المؤلف " في نظر مسيحيي القرون الوسطى، فإن تصرفات محمد مع النساء كافية وحـــدها لأن تجعل محمدا غير نبي " [٣١]!!

بقدر ما يشكل الغلو من خطر حقيقي- عموديا- على صفاء العقيدة وسلامتها، فإن التقـــصير يشكل خطراً آخر- أفقياً- على صعيد الجمهور والناس، بل ربما قيل بأن التقصير لأنه يتحرك في مساحة واسعة عند الناس – بينما يبقى الغلو محصوراً في فئة قليلة معزولة يسهل رصد فكرهـــا ومواجهته لأنه يخالف مسلمات المسلمين- فإنه يشبه الداء الدفين الذي لا يشعر به بينما يفتك بالجسم. هذا إضافة إلى كونه قريبا من النفس، ومحبباً اليها، كونه يغذي في الإنـــسان مـــشاعر

[31] / عن مجلة الفكر العربي عدد ٣٢/ ابريل ١٩٨٣م .

الغرور وانه يشبه الرسل والاوصياء تماماً، وعندما يتنازل تحت ضغط نقاط ضعفه فيذنب يجـــد العزاء- في هذه النظرة- ان الرسل أيضا خضعوا لنقاط ضعفهم !!

لذلك نعتقد أن الإسلام وعلى لسان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة المعـــصومين (عليه السلام) وهم يتوجهون إلى اخطار نظرة التقصير المفرطة، اتخذوا عدة تدابير لمواجهتـــها. وسنتعرض إلى عدد من الأحاديث في هذه المواجهة:

* احاديث الاصطفاء:

من البداية كان يتم التركيز على أن مسألة النبوة والإمامة من المسائل الغيبية التي تتصل باصطفاء الله تعالى وانتخابه، لأشخاص كانوا- في علمه- اصلح الخلق لهذه المواقع خلافاً للنظريـــة الـــتي تقول باختيار الناس مطلقا.

فعن سعد بن عبد الله القمي عن الحجة القائم (عج).. قلت: فاخبرني يا مولاي عن العلة التي تمنع القوم من اختيار الإمام لأنفسهم ؟!

قال: مصلح أو مفسد ؟! (اي ينتخبون مصلحاً أو مفسداً ؟).

قلت: مصلح. قال: فهل يجوز أن تقع خيرتهم على المفسد بعد أن لا يعلم احد ما يخطر ببال غيره من صلاح أو فساد ؟!

قلت: بلى. قال: فهي العلة واوردها لك ببرهان ينقاد لك عقلك.

ثم قال: اخبرني عن الرسل الذين اصطفاهم الله عز وجل وانزل عليهم الكتب وايدهم بـــالوحي والعصمة، وهم اعلام الأمن اهدى إلى الاختيار منهم مثل موسى وعيسى (عليهما السلام) هل يجوز مع وفور عقلهما وكمال علمهما إذ هما بالاختيار ان تقع خيرتهما على المنافق وهما يظنان انه مؤمن ؟!

قلت: لا.

قال هذا موسى كليم الله مع وفور عقله وكمال علمه ونزول الوحي عليه اختار من اعيان قومه ووجوه عسكره لميقات ربه عز وجل سبعين رجلا ممن لا يشك في ايمانهم واخلاصـــهم فوقـــع خيرته على المنافقين، قال الله عز وجل:

(واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا..) فلما وجدنا اختيار من قد اصطفاه عز وجل للنبوة واقعا على الافسد دون الاصلح وهو يظن انه الاصلح دون الافسد علمنا أن الاختيار لا يجوز إلا

لمن يعلم ما تخفي الصدور [٣٢]..

* احاديث الحب والولاية:

- عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): لا يؤمن احدكم حتى اكون اليه احب من نفسه وأهلي أحب اليه من أهله وعترتي أحب اليه من عترته وذريتي احب اليه من ذريته [٣٣].

- عن امير المؤمنين (عليه السلام): انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم واتبعوا اثـــرهم فلـــن يخرجوكم من هدى ولن يعيدوكم في ردى فإن لبدوا فالبدوا وان نهضوا فانهضوا [٣٤].

- وقال- واصفا أهل البيت-: فانهم عيش العلم وموت الجهل، هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم وصمتهم عن منطقهم، وظاهرهم عن باطنهم، لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه فهـــو بينهم شاهد صادق وصامت ناطق [٣٥].

* ارساء آداب خاصة في العلاقة مع الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) وأهل ببته:

المتتبع للنصوص الإسلامية، وسيرة المسلمين مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يلاحظ أن هناك آدابا خاصة تم اقرارها من قبل القرآن الكريم، كما نجد ذلك في سورة الحجرات، مثل عدم رفع الصوت فوق صوت النبي وعدم الجهر له بالقول (يا ايها الذين آمنوا لا ترفعوا اصـــواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ان تحـــبط اعمـــالكم وانـــتم لا تشعرون).

وتحت طائلة التهديد بحبط الاعمال تنهى عن ذلك، وتنعى على أولئك الذين لا يعقلـــون مـــن المنادين من وراء الحجرات، ثم تنهى عن الضغط على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والجائه لاتخاذ مواقف لا يريدها لأن في ذلك عنت المجتمع (واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم).

---

32 / ميزان الحكمة ١/ ١٩٠.

33 / (٢)المصدر ٢/ ٢٣٦.

34 / نفس المصدر

35 / نفس المصدر

وقد كانت سيرة المسلمين الأوائل الذين عرفوا قدر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قائمة على الاحترام الكامل، والتوقير الاكيد للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته، فالتاريخ ينقل هذه الصورة لنا عن مدى تعلقهم وحبهم لرسول الله..

ففي الخبر عن اسامة بن شريك قال: اتيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واصحابه حوله كأنما على رؤسهم الطير.

وقال عروة بن مسعود حين وجهته قريش عام القضية الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ورأى من تعظيم اصحابه له وانه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه وكادوا يقتتلون عليه ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها، وإذا امرهم بأمر ابتدروا امره، وإذا تكلم خفضوا اصواتهم عنده، وما يحدون النظر اليه تعظيما له، فلما رجع إلى قريش قال: يا معشر قريش اني اتيت كسرى في ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشي في ملكه واني والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في اصحابه.

وعن انس قال: لقد رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والحلاق يحلقه وقد أطاف به اصحابه فما يريدون أن يقع شعره إلا في يد رجل [٣٦].

وتعزيزا لهذا الجانب كانت الصلاة على النبي وآله جزءا من الصلاة اليومية لدى جميع المسلمين، واليها يشير الإمام الشافعي في الشعر المنسوب له:

يا آل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن انزله

كفاكم من عظيم الشأن انكم من لم يصل عليكم لاصلاة له

ولهذا لما نزلت آية الصلاة على النبي: (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا ايها الذين أمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) [٣٧]، فهم منها المسلمون الأمر الشرعي، فجاؤا يسألون عن معناها يروي كعب بن عجرة: لما نزلت هذه الآية قلنا: يا رسول الله هذا السلام عليك قد عرفناه كيف الصلاة عليك ؟! فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): قولوا: اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على ابراهيم وآل ابراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على ابراهيم وآل ابراهيم إنك حميد مجيد [٣٨].

---

36 / بحار الأنوارج ١٧ ص ٣٢

37 / سورة الأحزاب، الآية ٥٦

38 / بحار الأنوار١٧ ص ١٩.

* التاكيد على مسألة العصمة:

ذهب اتباع أهل البيت (عليهم السلام) إلى عصمة الأنبياء عن الصغائر والكبائر، وتتريههم عن المعاصي قبل النبوة وبعدها. على سبيل العمد والنسيان، وعن كل رذيلة ومنقصة، وما يدل على الخسة والضعة، وكذلك الحال بالنسبة إلى عصمة الأئمة (عليهم السلام)، لنفس الحيثيات الـــتي يجب فيها عصمة الرسول وكذلك كمالهم "فإن المقطوع به كمالهم في جميع احوالهم التي كانوا فيها حججاً لله تعالى على خلقه ".

قال الشيخ المفيد رحمه الله: العصمة من الله لحججه هي التوفيق واللطف والاعتصام من الحجج بهما عن الذنوب والغلط في دين الله تعالى والعصمة تفضل من الله تعالى على من علم انه يتمسك بعصمته، والاعتصام فعل المعتصم، وليست العصمة مانعة من القدرة على القبيح ولا مـــضطرة للمعصوم إلى الحسن ولا ملجئة له اليه بل هي الشيء الذي يعلم الله انه إذا فعل بعبد من عبيده لم يؤثر معه معصية له، وليس كل الخلق يعلم هذا من حاله بل المعلوم منهم ذلك هـــم الـــصفوة والاخيار، قال الله تعالى: (إن الذين سبقت لهم من الحسنى) وقال: ولقد اخترناهم على علم على العالمين) وقال: (وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار) والانبياء والأئمة من بعدهم- معصومون في حال نبوتهم وامامتهم من الكبائر كلها والصغائر والعقل يجوز عليهم ترك مندوب اليه على غير التعمد للتقصير والعصيان ولا يجوز عليهم ترك مفترض لأن نبينا (صلى الله عليه وآله وســـلم) والأئمة من بعده كانوا سالمين من ترك المندوب والمفترض قبل حال امامتهم وبعدها[٣٩] .

حصيلة المطاف

نستطيع بعد هذا المطاف في الخطين الخاطئين المتطرفين وبعد أن اشرنا الى عيوبهما اثناء الحديث عنهما، أن نستفيد النتائج التالية، خلاصة للبحث، وحصيلة:

ا- لا يجوز تبرير التطرف بالتطرف المقابل:

إن احد الاخطاء التي وقع فيها الطرفان في النظرة إلى شخصيات الأنبياء والاوصياء، أن كل نظرة

---

[39] / تصحيح الاعتقاد للشيخ المفيد ص ١٠٦.

كانت رداً على تطرف النظرة المقابلة ولعل هذا الخطأ لا يزال مستمرا، ففيما يقـــوم الـــبعض- خاطئين- بالمغالاة في هذه الشخصية أو تلك نظرا لتصورهم بأنها ظلمت و لم تعط حقها كمـــا ينبغي، فتقوم لتعويض تلك المظلومية، باضفاء صفات المبالغة والغلو، مثلا عندما ترى أن الأئمة (عليهم السلام) كانوا أيام حياتهم يعانون أنواع الألم و الأذى من قبل الحاكمين وإلى أن انتهت حياتهم قتلا وسما، فيأتي بعض الاتباع فيما بعد، ويقومون- بزعمهم- برد هذه المظلومية عـــبر احترامهم وتقديرهم، فيضفون عليهم تلك الصفات. بينما كان الأمر طبيعيا حسب سنة التاريخ، إذ أن المصلحين والعباقرة لا يستقبلون بالورود والرياحين بل بالمتاعب والصعوبات في مهمتـــهم الاصلاحية حتى يصلوا إلى اهدافهم الكبرى إذ أن (الله لو أراد لأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن العقيان ومغارس الجنان وان يحشر معهم طيور السماء ووحوش الأرضيين لفعل، ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء واضمحلت الأنباء ولما وجب للقابلين أجور المبـــتلين ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين ولا لزمت الأسماء معانيها ولكن الله سبحانه جعل رسله أولي قوة في عزائمهم وضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم مع قناعة تملأ القلوب والعيـــون غـــنى، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذى. ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا ترام وعزة لا تضام وملك تمد نحوه أعناق الرجال وتشد إليه عقد الرحال لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار وابعد لهم في الاستكبار ولآمنوا عن رهبة قاهرة لهم أو رغبة مائلة بهم فكانت النيات مشتركة والحسنات مقتسمة ولكن الله سبحانه اراد أن يكون الإتباع لرسله والتصديق بكتبه والخـــشوع لوجهـــه والاستكانة لأمره والاستسلام لطاعته أمورا خاصة لا تشوبها من غيرها شائبة وكلمـــا كانـــت البلوى والاختيار اعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل [40].

كما يقول امير المؤمنين (عليه السلام). إلا أن عدم فهم هؤلاء لهذه السنة أدى بهـــم إلى ذلـــك الاتجاه من المغالاة والإفراط.

في الطرف المقابل كان هناك تطرف اخر اتخذ صورة افعال إحيانا وردود افعال احياناً أخرى.. إذ أن ذلك التقديس والإفراط ادى إلى تنكر وتقصير في هذا الجانب فافسدوا من حيث ارادوا أن يصلحوا، غافلين عن قول الله عز وجل (ولا يجرمنكم شنان قوم الا تعدلوا، اعدلوا هو اقـــرب

---

[40] / نهج البلاغة خطبة ١٩٢.

للتقوى)، وهكذا كما باء اليهود بخطيئة عداوة المسيح، مباغضة منهم لتقديس المسيحيين اياه، تكرر الأمر هنا، فوجد بين المسلمين من ينتقص الأنبياء عليهم السلام وخصوصا خاتمهم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومن بعده أهل بيته (عليهم السلام). وقد تقدم نقل كلمات بعضهم.

إننا كما ندين التطرف في المغالاة، ونعتقد أنه منهج خاطىء خصوصا انه يخرج الناس عن امكانية اتباع هذه الشخصية (التي اخرجت من طور البشر)، كذلك ندين التطرف في التقصير والتنكر للفضائل والمترلة الخاصة بها ونعتقد ايضا انه منهج خاطىء، لأنه يخرج هذه الشخصيات من مترلة (القدوة).

إن الخط الوسط بين التطرفين هو الذي نختاره، حيث اننا فى الوقت الذي نعتقد فيه أن الأنبياء والاوصياء بشر وأناس مثلنا من ناحية التركيب البدني إلا أنهم يختلفون عنا في حجم مسؤوليتهم، وفي مستوى صفاتهم، وفي اتصالهم بالله سبحانه وتعالى.

٢- التفصيل بين نوعين من الحياة لدى المعصوم:

إننا نعتقد أن الروايات التي تتناول حياة المعصومين (عليهم السلام) ينبغي تقسيمها إلى نوعين تبعا لأن حياتهم تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: الحياة المرتبطة بالشؤون الدينية، بما يمثله (المعصوم) من دور بالتبليغ لدين الله، بكونه مبلغاً لرسالة الله في هذا المجتمع، وفي هذه الحياة تكون سنة المعصوم (أقواله و أفعاله وتقريره) حجة نهائية كاملة، لأنه في هذه الحياة يتعامل على اساس صفته التي اعطي اياها من قبل الله سبحانه، والمجتمع ينظر إلى اعماله ويقيمها ضمن هذا الإطار، وهو في هذه الحياة يتعامل ضمن اطار العصمة، لذلك كل كلمة منه تعتبر تشريعاً أو ارشاداً الى تشريع.

ويظهر أن المسلمين فهموا هذه المعادلة- غالبا- لذلك كانوا ينقلون سيرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ويهتمون بها اهتماماً بالغاً، واختص اتباع اهل البيت (عليهم السلام) بتتبع سيرة الأئمة إضافة إلى سيرة الرسول، لكونهم يعتبرون أن هذه السير تشكل ركيزة لاكتشاف الكثير من الاحكام الالهية في الحياة والدين.

القسم الثاني: ما يرتبط بالامور الشخصية المتعلقة بالمعصومين باعتبارهم (بشرا) يعيشون وسط مجموعة من الناس، إضافة إلى كونهم، خاضعين- مع هذه الحالة البشرية- إلى متطلباتها

واحتياجاتها. ما يرتبط بالامور الخاصة- حسب الاصطلاح الحديث-.
وبالرغم من اننا لا نجد في الأحاديث هذا الفصل الواضح، إلا ان طبيعة كل قسم من الحياة تقتضي هذا الأمر. وفي هذا النوع الثاني لسنا مضطرين - بالضرورة- إلى اجراء قانون العصمة، ولا تقع بالضرورة ايضا- في دائرة التشريع، فمثلا ما يرتبط بالطعام- وسوف يأتي بحثه-.. استحسان المعصوم لهذا الطعام أو ذاك، واكله لهذا النوع أو ذاك لا يدخل- بالضرورة- ضمن دائرة الاحكام (الالزامية أو الاقتضائية) بل قد يدخل ضمن دائرة الامور الشخصية والذوقية المباحة.

إن هذا الفهم الواقعي لحياة المعصومين، يقطع الطريق على خط الغلو والتقصير في نفس الوقت، ويضع رجلي الباحث على سكة التعامل الصحيح مع هذه السير.

إننا عندما نعتقد أن المعصومين (عليهم السلام) بشر، وان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) (بشر مثلكم يوحى اليه) فإن هذا يعني انه يؤكد هذه الحقيقة بممارساته البشرية، وتلك الممارسات التي يدخل قسم منها في اطار التوجيه الى الحكم الشرعي، بينما القسم الاخر لا يتجه هذا الاتجاه، وإنما يلبي حاجة خاصة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

وينبغي أن لا يفهم أن هناك انفصالا وتناقضا بين القسمين، بل العلاقة علاقة انسجام وتكامل، إنما ننفي في القسم الثاني (ضرورة) أن يكون تشريعاً فقد يكون وقد لا يكون ولكنه لا يخرج عن اطار الشخصية الكاملة التي يجسدها المعصوم، فليس ممكنا أن نفترض في هذا القسم وجود أعمال أو ممارسات مخلة بالمبادىء العامة لشخصية المعصوم (عليه السلام).

٣- فتش عن عظمة المعصومين (عليهم السلام) في صفاتهم ومسؤولياتهم:

المتتبع لالفاظ الأحاديث والروايات الواردة حول اهل البيت (عليهم السلام) يلاحظ أن تلك الروايات لا تكشف عن ميزات خارجية استثنائية، وإنما تعين الصفات الاخلاقية وتبين مفردات (الدور) الأساسي الذى كانوا يقومون به.

والفرق كبير بين مفردات (الدور) الديني والاجتماعي والسياسي، وبين مفردات الشخص وحالاته الاستثنائية (فيما يرتبط به كشخص)، فبينما يدور النقاش ويحتدم بين الخطين (الغلو والتقصير) حول امور الشخص (هل انه يدخل دورة المياه مثلنا ؟! هل ان دمه ازرق أو احمر ؟! وهل هذا الدم طاهر أو نجس ؟! هل أن جزئه الناسوتي اكبر أم اللاهوتي ؟!.. إلى آخر قائمة

المناقشات التي تدور..) فإن الجانب الأهم والذي يطالب الناس بالاقتداء به وهو صفات الدور والمسؤولية، ينسى في تلك المعمعات!!

ولنقرأ أحد هذه النماذج التي تتكلم عن مواصفات الدور الذي يقوم به المعصومون (علـــيهم السلام).. والنموذج يروى عن الإمام علي الهادي (عليه السلام) مما يكتسب اهمية اســـتثنائية، ونستطيع أن نلاحظ أن صدوره كان عن الإمام الهادي الذي ابتلى أيام امامته بالغلاة، وحيـــث توسع نشاطهم وتعاظم، ولذلك كانت هناك حاجة لنص صريح فيما يرتبط بالمواصفات الحقيقية التي يمثلها أهل البيت عليهم السلام بعيدا عن الغلو، وعن التقصير أيضا.

وسوف نستشهد ببعض فقراته ولا نورده بالكامل لطوله من جهة، و لإبهام بعـــض الفقـــرات وحاجتها إلى الشرح والتفسير، الأمر الذي سيخرج بنا عن أصل البحث، وقد نوفق لالقاء نظرة متأنية شارحة في وقت لاحق على هذا النص المسمى (بالزيارة الجامعة): (السلام عليكم يا أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ومهبط الوحي ومعدن الرحمة وخزان العلم ومنتهى الحلم واصول الكرم وقادة الأمم واولياء النعم وعناصر الابرار ودعائم الاخيار وساسة العبـــاد واركان البلاد وابواب الإيمان وابناء الرحمن وسلالة النبيين وصفوة المرسلين وعترة خـــيرة رب العالمين..).

إننا في هذا النص نجد بعد تعيين الاشخاص مورد العلاقة وكونهم أهل بيت النبوة وموضع الرسالة نلتقي بعدد من المفردات، ادعو القارىء الكريم إلى التأمل فيها، إننا أمـــام (قـــادة) و(اوليـــاء) و(دعائم) و(ساسة) و(أركان) و(أمناء).. وهكذا يستمر النص في هـــذه الـــصفات (ائمـــة) و(مصابيح) و(اعلام) و(مثل) و(دعوة) و(حجج) و(حفظة) و(حملة الكتاب) (السلام على أئمة الهدى ومصابيح الدجى واعلام التقى وذوي النهى واولي الحجى وكهف الورى وورثة الأنبياء والمثل الاعلى والدعوة الحسنى وحجج الله على اهل الآخرة والأولى ورحمة الله وبركاته. السلام على محال معرفة الله ومساكن بركة الله ومعادن حكمة الله وحفظة سر الله وحملة كتـــاب الله واوصياء نبي الله وذرية رسول الله صلى الله عليه وآله ورحمة الله وبركاته).

ثم لينظر القارىء الكريم إلى الدقة في التعبير، حيث أن هؤلاء لا وجود لهم إلا باعتبارهم عبيد، وخدم، ودعاة إلى الله سبحانه وتعالى، ولا يمكن بالتالي أن ينزلوا منزلة الارباب كمـــا يفعـــل الغلاة.. انهم مطيعون لله ، وقوامون بامره وعاملون ولكن بارادته إلا أن النص يستمر وكما نفى

خط الغلاة فانه ينفي خط التقصير، فيكمل الفقرة تلك بتبيان موارد اصطفاء الله لهم، فهم عبيد، ومطيعون، ولكن في نفس الوقت (اصطفاهم) بعلمه و(ارتضاهم) لغيبه و(اختـــارهم) لـــسره و(اجتبا هم) بقدرته..

(السلام على الدعاة إلى الله والادلاء على مرضاة الله والمستقرين في امر الله والتامين في محبة الله والمخلصين في توحيد الله والمظهرين لأمر الله ونهيه وعباده المكرمين...)

(.. واشهد انكم الأئمة.. المطيعون لله القوامون بأمره العاملون بارادتـــه الفـــائزون بكرامتـــه اصطفاكم بعلمه وارتضاكم لغيبه واختاركم لسره واجتباكم بقدرته واعزكم بهداه وخـــصكم ببرهانه وانتجبكم لنوره..).

غير ان هذا الاصطفاء والاجتباء لم ينته إلى الغرور أو الجحود وإنما بعد كل ذلك اتخذوه طريقاً للعبودية وتعظيم الخالق (فعظمتم جلاله واكبرتم شانه ومجدتم كرمه وادمتم ذكره ووكدتم ميثاقه واحكمتم عقد طاعته ونصحتم له في السر والعلانية ودعوتم إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة وبذلتم انفسكم في مرضاته، وصبرتم على ما اصابكم في جنبه واقمتم الصلاة وآتيـــتم الزكـــاة وامرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر ٠٠)[٤١] .

الفصل الثاني

١- الأصلاب الطاهرة والأرحام المطهرة

عند الحديث عن الحياة الشخصية، والزوجية بالذات يستوقفنا عنوان عريض هـــو (الاصـــلاب الطاهرة والارحام المطهرة).

ذلك أننا نعتقد أن الله سبحانه وتعالى وهو يقذر لخلقه هداة وقادة (اصطفى) (وانتخب) هؤلاء منذ الازل، وقضى بان يكون هؤلاء في خير العتر، وان ينموا في خير الاسر.. ونظـــرا لأهميـــة الموضوع، نبسط الكلام فيه عبر النقاط التالية:

* تبعاً للدور الذي ينتظر الأنبياء والاوصياء من هداية البشر، وتوجيههم إلى عبادة الله، تلـــك

[41] / مفاتيح الجنان الشيخ عباس القمي.

المسؤولية الخطيرة التي تختزل هدف خلق الاكوان، والانس والجان ف (ما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) لذلك فإن الافراد المؤهلين للقيام بهذه المسؤولية لا بد أن يكونوا من نوع خاص، يخلقون، و(يصنعون) [٤٢] تحت عين الله، وهذا يعني انهم يصطفون في البداية من خـــير الاســـر، وينتخبون من أفضل السلالات في النسل البشري، حيث لا يحملون في انفسهم (اقذارا) بعثـــوا لتطهير البشر منها.

من هنا نجد أن العملية تتم ضمن اطار (الاصطفاء) الذي لا يخضع للصدف، أو للعبث، بل حتى لا يدخل فيه رغبة هذا النبي أو عدم رغبته في أن يكون كذلك، ولا يؤثر فيه انتخـــاب النــــاس ورضاهم به، ضمن تصويت (د يمقراطي).

إن هذه العملية غيبية مطلقة، وإلهية بحتة، ومهما حاول البشر تفسيرها فإنهم لن يصلوا إلا للمعاني الخارجية منها.

ولذلك نجد في القرآن الكريم، نسبة تمام الفعل (الاصطفاء) إلى الله سبحانه بينما يقف الأنبياء في موقف الانفعال المطلق:

– (إن الله اصطفى آدم ونوحا وأل ابراهيم وآ ل عمران على العالمين* ذرية بعضها من بعـــض والله سميع عليم)[٤٣].

ولأن هذه المعادلة غيبية وإلهية ولا تدخلها المقاييس البشرية التي نعتادها، لذلك فإن الله تارة يختار ويصطفي رجلا، واخرى يصطفي النساء، مع أن المنطق البشري العادي لا يتوقع ذلك (قالت: رب إني وضعتها انثى)!!، إلا أن القرآن يقول:

– (وإذ قالت الملائكة يا مريم: ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين)[٤٤] .

ولعل علة هذا الاصطفاء الذي جاء متكرراً في الآية كون مريم ستحتضن أحد انبياء الله العظام،

---

[42]/ في قصة نبي الله موسى (عليه السلام) (**والقيت عليك محبة** مني **ولتصنع على عيني**) طه ٣٩.

[43] / سورة آل عمران، الآية ٣٣– ٣٤.

[44] / سورة آل عمران، الآية ٤٢.

عيسى بن مريم عليهما السلام.

بل حتى حين يعارض الناس اختيار شخص معين، تكون الحجة النهائية للمؤمنين (إن الله اصطفاه عليكم) إذ ان الله سبحانه صاحب الخيرة ولا يستطيعها سواه عز وجل (وربك يخلق ما يــشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون) [٤٥].

*- هذا الإصطفاء الخاص للمهمة الكبرى يجعل من الضروري أن تستمر العناية واللطف الالهي بشأن الشخص (المصطفى) منذ بداية البدايات، من الحلقة الاولى في السلــسلة الطويلــة الــتي سيتكون فيها، ذلك اننا نعتقد أن هذا المصطفى المنقذ يجب أن يكون الأكمل والافضل- في زمنه للبعض ومطلقا لنبينا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)-.

ونظرا لأن للوراثة دوراً هاماً في اكساب الحلقات المتأخرة من النسل صفات الحلقات المتقدمــة (الاباء، والاجداد) لذلك لا بد أن تكون كل السلسلة النبوية طاهرة حتى يحمل ذلك الوليــد- الذي سيكون نبيا مرسلاً أو إماماً قائداً- صفات الطهر، وإلا فإنك (لا تجــني مــن الــشوك العنب)!!

إن علماء الوراثة يقررون أن الإنسان يتأثر سواء في تركيبه البدني وشكله الخارجي أم في ميوله النفسية وصفاته الاخلاقية- بقدر ما- باسلافه:

" الإنسان في الزمن مثلما يمتد في الفراغ إلى وراء حدود جسمه.. وحدوده الزمنية ليست اكثر دقة ولا ثباتا من حدوده الاتساعية، فهو مرتبط بالماضي والمستقبل على الرغم من ان ذاته لا تمتد خارج الحاضر.. وتأتي فرديتنا كما نعلم إلى الوجود حينما يدخل الجنين في البويــضة ولكــن عناصر الذات تكون موجودة قبل هذه اللحظة ومبعثرة في انسجة ابوينا واجــدادنا واســلافنا البعيدين جدا، لأننا مصنوعون من مواد آبائنا وامهاتنا الخلوية وتتوقف في الماضي علــى حالــة عضوية لا تتحلل.. ونحمل في داخل أنفسنا قطعا ضئيلة لا عداد لها من اجسام اســلافنا ومــا صفاتنا ونقائصنا إلا امتداد لنقائصهم وصفاهم.

إن أساس تكوين انسجة الإنسان مسألة يكتنفها الغموض إذ اننا لا نعرف كيف جمعت جينات

---

[45] / سورة القصص، الأية ٦٨ وجاء في تفسير هذه الآية عن الإمام الصادق (عليه السلام): يختار الله عز وجل الإمام وليس لهــم ان يختاروا./ عن نور الثقلين ج ٤.

أبويه وأجداده وأجداد اجداده في البويضة التي نشأ هو منها كما نجهل إذا كانت ذرات نووية معينة من احد الاسلاف البعيدين المنسيين غير موجودة فيه، أو إذا كانت تغييرات اختيارية في الجينات قد لا تتسبب في ظهور بعض الصفات غير المتوقعة فقد يحدث احيانا أن يبدي احد الأطفال الذين عرفت ميول اسلافهم لعدة اجيال اتجاهات جديدة غير متوقعة " [٤٦].

وبالرغم من اننا لا نعتقد بحتمية تأثير الوراثة- خصوصاً في الجانب المعنوي- بمعنى أن يكون الإنسان مسلوب الإرادة تماما تجاهها إلا:

" ان القاعدة العامة للوراثة تقتضي ان ينجب الأباء المؤمنون والامهات العفيفات أولادا طيبين فهولاء يمكن أن يحرزوا السعادة في ارحام امهاتهم فلا توجد في سلوكهم عوامل الانحراف الموروثة إلا اننا لا نستطيع أن نحكم على هؤلاء بأن ينموا وينشؤوا ويعيشوا الى الأبد كذلك إذ قد يصادفون بيئة فاسدة تعمل على انحرافهم وتغيير سلوكهم وسجاياهم الموررثة وقلبها رأسا على عقب ".

وهكذا الطفل المولود من آباء وامهات. لا يعرفون عن الإيمان شيئاً فإنه يعتبر شقيا في رحم امه- تبعاً لقانون الوراثة- لكن قد يصادف بيئة صالحة وتربية جذرية تعمل على استئصال العوامل الشريرة من داخل نفسه و أخيراً يكون في الاتقياء المؤمنين والافراد الصالحين في المجتمع [٤٧]

ولعلنا نستطيع تفسير حديث الإمام الصادق (عليه السلام) في هذا الإطار إذ قال:

- إذا اراد الله ان يخلق خلقا جمع كل صورة بينه وبين ادم ثم خلقه على صورة احداهن-.

هذه الآثار التي تخلفها الوراثة على الاشخاص متسالم عليها بين العقلاء لذلك نجد امير المؤمنين (عليه السلام) عندما أراد الزواج بعد وفاة الزهراء فاطمة (عليها السلام) يقول لاخيه عقيل- وكان عارفا بانساب العرب- اختر لي امرأة ولدتها الفحولة من العرب حتى تلد لي غلاما يكون ناصرا لابني الحسين. ويقول لمالك الاشتر في عهده الشهير اليه:

(ثم الصق بذوي المروءات والاحساب، واهلى البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة، ثم اهل النجدة

---

46 / الطفل بين الوراثة والتربية للشيخ الفلسفي ١/ ٦٤ عن الإنسان ذلك المجهول.

47 / المصدر السابق ١/ ٧٩.

والشجاعة، والسخاء والسماحة فانهم جماع من الكرم، وشعب من العرف) [48].

فهو يتعامل مع القضية وكأنها مسألة مسلمة، ففي الحديث الأول لا يريد امرأة جميلة، أو من قبيلة معروفة أو ثرية، و إنما من اسرة شجاعة، لتلد بطلاً ، وهكذا في النص الثاني حيث يرى أن اهل البيوتات الصالحة والعوامل الكريمة تتجمع فيها الصفات الجيدة ويتركز فيها المعروف.

وكما أن الاثار الايجابية تنتقل من جد إلى اب الى ابن فكذلك الاثار السلبية، فالمولود عن سفاح مؤهل اكثر من غيره للزنا والجريمة، ولو نظرنا في حياة القتلة ومجرمي التاريخ لوجدنا آثار الوراثة ظاهرة، فهذا ابن النابغة وذاك ابن آكلة الاكباد، وعداهم ابن الزرقاء.. وهكذا..

نظرا لذلك فإننا نعتقد ان الله سبحانه وتعالى- وهو يدبر الأمور بحكمته- جعل الأنبياء والأئمة نجي خير نسل منذ آدم حتى خرجوا إلى هذه الدنيا ولكيلا نطيل البحث نترك الاخبار تتحدث:

- ففي تفسير الاية الشريفة في سورة الشعراء:

(وتوكل على العزيز الرحيم * الذي يراك حين تقوم * وتقلبك في الساجدين).

عن جابر بن عبد الله الانصاري قال: سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): اين كنت وآدم في الجنة ؟!

قال (صلى الله عليه وآله وسلم): (كنت في صلبه، وهبط الى الارض وانا في صلبه، وركبت السفينة في صلب نوح، وقذف بي في النار في صلب ابراهيم، لم يلتق ابوان لي على سفاح قط، لم يزل الله ينقلني في الاصلاب الطيبة إلى الارحام المطهرة هادياً مهدياً حتى اخذ الله بالنبوة عهدي وبالإسلام ميثاقي).

- وعن الباقر محمد بن علي عليهما السلام في تفسير الآية المذكورة قال:

(يرى تقلبه في اصلاب النبيين من نبي إلى نبي حتى أخرجه الله من صلب أبيه من نكاح غير سفاح من لدن آدم عليه السلام).

- وعن ابن عباس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (أخرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح).

- وعنه أيضاً : قال رسول الله:

---

48 / نهج البلاغة كتاب ٥٣.

(لم يلتق ابواي قط على سفاح، لم يزل الله ينقلني من الاصلاب الطيبة الى الارحام الطاهرة، مصفى مهذبا، لا تنشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما)[49] .

وهكذا: (ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما فاخرجت من بين ابوي فلم يصبني من شيء من عهد الجاهلية وخرجت من نكاح ولم اخرج من سفاح من لدن ادم حتى انتهيت إلى امي وابي فأنا خيركم نفسا وخيركم ابا) [50].

ويتحدث امير المؤمنين (عليه السلام) عن هذه المسألة في عدد من خطبه، باعتبارهـا احـدى المسلمات العقيدية، فيقول (عليه السلام): واصفا الأنبياء عليهم السلام:-

(.. فاستودعهم في افضل مستودع، واقرهم في خير مستقر تناسختهم كـرائم الاصـلاب الى مطهرات الارحام كلما قضى منهم سلف قام منهم بدين الله خلف، حتى افـضت كرامـة الله سبحانه وتعالى إلى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، فاخرجه من أفضل المعادن منبتـا وأعـز الارومات مغرسا، من الشجرة التي صدع منها انبياءه، وانتجب منها امناءه، عترته خير العتـر، واسرته خير الاسر، وشجرته خير الشجر نبتت في حرم، وبسقت في كرم، لها فروع طوال وثمر لا ينال..) [51].

ويقول (عليه السلام) ايضا في ذكر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).:

- (اختاره من شجرة الأنبياء، ومشكاة الضياء، وذؤابة العلماء وسـدة البطحـاء، ومـصابيح الظلمة، وينابيع الحكمة).

ويقول في موضع اخر:

- (واشهد أن محمد عبده ورسوله وسيد عباده، كلما نسخ الخلق فرقتين جعله في خيرهمـا لم

49 / الأحاديث من نهج الحق وكشف الصدق للعلامة الحلي ص ١٥٧.

50 / البداية لابن كثير ٢/ ٢٥٥.

51 / التركيز هنا على آباء واجداد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لأنه اصل تلك الشجرة.

يسهم فيه عاهر ولا ضرب فيه فاجر) [52].

هذا والتاريخ يحدثنا عن أن آباء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واجداده كـــانوا في جـــصخ ادوارهم رواد الفضيلة والعفة واهل الشرف والكرامة، والمدافعين عن المظلومين النـــاهين عـــن المنكرات [53]. وننقل من التاريخ بعض، مايذكر عن عفة عبد الله، والد النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، والذي توفي وكان الرسول جنيناً في بطن امه آمنة.

فقد روى ابن اسحاق: أن عبد المطلب لما انصرف عقب فداء ابنه مرت بعبد الله امرأة من بـــني اسد بن عبد العزى بن قصي وهي أم قتّال اخت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وهي عند الكعبة، فنظرت إلى وجهه، فقالت: اين تذهب يا عبد الله ؟!

قال: مع أبي .

قالت: لك مثل الابل التي نحرت عنك على ان تتزوجني.

قال-: أنا مع ابي ولا أستطيع خلافه ولا فراقه.

فخرج به عبد المطلب حتى اتى وهب بن عبد مناف بن زهرة ووهب هذا سيد بني زهرة ســـنا وشرفا يومئذ فزوجه ابنته آمنة بنت وهب وهي يومئذ سيدة نساء قومها.

وبعد أن زف عبد الله إلى عروسه آمنة وفد على رهط من قريش وفيهم المرأة التي عرضت نفسها عليه، فقال لها لما لم تابه به:- ما لك لا تعرضين عليّ اليوم ما كنت عرضت بالامس ؟!

قالت له: فارقك النور الذي كان معك بالامس فليس لي بك حاجة، وكانت تسمع من اخيها ورقة بن نوفل- وكان قد تنصر و اتبع الكتب- انه كائن في هذه الأمة نبي فطمعت أن يكـــون منها، رمما قالته أم قتال بنت نوفل من الشعر تتأسف على ما فاتها من الأمر الذي رامته وذلك في ما رواه البيهقي:

عليك بآل زهرة حيث كانوا وآمنة التي حملت غلاما

ترى المهدي حين نزا عليها ونورا قد تقدمه اماما

[52] / نهج البلاغة خطبة ٩٤ و١٠٨ و ٢١٤.

[53] / للتفصيل يمكن مراجعة شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد المعتزلي ج ه ا ص٢٠٠

إلى أن قالت:

فكل الخلق يرجوه جميعا يسود الناس مهتديا إماما
براه الله من نور صفاه فأذهب نوره عنا الظلاما
وذلك صنع ربك إذ حباه إذا ما سار يوما أو اقاما
فيهدي اهل مكة بعد كفر ويفرض بعد ذلكم الصياما

وروى ابو بكر الخرائطي: ان كاهنة متهودة من اهل تبالة كانت قد قرأت الكتب يقال لها فاطمة بنت مر الخثعمية رأت في وجه عبد الله نور النبوة فراودته عن نفسه على أن له مائة من الابل، فاجابها عبد الله:

اما الحرام فالممات دونه والحل، لا حل فساتبينه
فكيف بالامر الذي تبغينه يحمي الكريم عرضه ودينه[٥٤]

وفي هذا الشعر الذي ينسب لوالد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)،تتجلى العفة والالتزام بالحنيفية، إذ الأمر لا يخلو من ان يكون حراما أو حلالا، فاما الحرام فانه يقدم على الموت قبل أن يقدم على الحرام، ولا يستبين فيه الحلال فصد عنه على كل حال.. هذا في ايام جاهلية العرب حيث كان الكثير لا يتورع في هذه الموارد، بل ترى الرجل السري فيهم يذهب إلى بيوت الدعارة ويمارس الفاحشة مع ذوات الاعلام، ويأتي فيما بعد الولد مجهول النسب لاشتراك آبائه واختلاطهم!!

وما ورد في القصة الاولى مع أم قتال ينفعنا في هذا المقام حيث تؤكد – عياناً– الاخبار التي تفيد أن رسول الله كان نورا من صلب طاهر الى رحم طيب، ورغبة المرأة في عبد الله أول يوم كانت لملاحظة هذا النور، فحين تزوج وانتقل هذا النور الى آمنة بنت وهب والدة الرسول، ليتخلق في رحمها الطاهر، فقدته من وجهه، والذي يظهر ان هذا الأمر كان من القضايا المشهورة لذلك عندما يخطب ابو طالب في الناس مبينا هذه الخصائص في عدة مناسبات، لا ينكر عليه احد، فقد قال في خطبة نكاح فاطمة بنت اسد زوجته: الحمد لله رب العالمين، رب العرش العظيم والمقام الكريم والمشعر والحطيم الذي اصطفانا اعلاماً وسدنة وعرفاء خلصاء وحجبة بهاليل اطهاراً من

---

[54] / صور من حياة صحابيات الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لخالد عبد الرحمن العك ص اه نقلاً عن البداية لابن كثير.

الخنى والريب والاذى والعيب واقام لنا المشاعر وفضلنا على العشائر، نخب آل ابراهيم وصفوته وزرع اسماعيل.. إلى اخر خطبته [55] فهو يؤكد الطهارة من الخنى والريب اي السفاح والحرام بل المشتبه، والاذى والعيب إشارة إلى الطهارة المعنوية في الاخلاق والصفات. كما يبين هذا الامتداد الذي يصلهم بابراهيم واسماعيل عليهما السلام.

استمرار العناية الالهية :-

وكما بدأت هذه العناية الالهية بنبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد استمرت معه ومع اوصيائه عليهم السلام، إذ ان نفس المقدمات التي تم الحديث عنها فيما يرتبط بضرورة صيانة آباء الرسول و اجداده عن كل العيوب الاخلاقية والمفاسد المعنوية جارية هنا فيما يرتبط بضرورة صيانة الاوصياء من بعده.

أما في ما يرتبط برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث يكون والد هذه الاسرة (من خلال الزهراء فاطمة عليها السلام) فقد تقدم الحديث، واما ما يرتبط بامير المؤمنين (عليه السلام) حيث هو والد هذه الاسرة المباركة مباشرة ويشترك في النسب مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في جدهما عبد المطلب فقد قال (عليه السلام):

- (والله ما عبد ابي ولا جدي عبد المطلب ولا هاشم ولا عبد مناف صنماً قط) [56].

وما يراه بعض الكتاب من شرك ابي طالب والد امير المؤمنين (عليه السلام)، إذا فرض تجرد هذا الرأي عن العصبيات المعروفة، في التاريخ، يفسره الحديث المروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) من أن ابا طالب اوتي اجره مرتين لأنه آمن أولاً وكتم ايمانه ثانياً [57].

وهكذا تشترك والدة امير المؤمنين (عليه السلام) فاطمة بنت اسد بن هاشم في هذا النسب المطهر عندما تتصل بجدها هاشم.

---

55 / بحار الأنوار ج ٣٥ ص ٩٨.

56 / بحار الأنوار ج ١٥ ص ١٤٤.

57 / للتفصيل يمكن مراجعة كتاب الغدير للعلامة الاميني (ره) الجزء السابع.

وعندما يكون لرسول الله زوجات متعددة تكون أفضلهن والمهيأة لحمل هذا النسب الطاهر خديجة بنت خويلد التي تشترك مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في النسب في جده الرابع (قصي بن كلاب) وكانت تلقب حتى في الجاهلية (بالطاهرة) وبالرغم من وجود نساء اخريات، بعضهن أجمل من خديجة، واكثرهن اقل سناً منها- وهذا يعني انهن اكثر قابلية للحمل والانجاب من الرسول- إلا انها تبقى هي المفضلة بهذه المأثرة- كيف لا و(افضل نساء الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة ابنة محمد ومريم ابنة عمران وآسية ابنة مزاحم امرأة فرعون) ؟!

وهكذا عندما يصل الدور الى سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام التي كانت وعاء الإمامة والولاية.. فهي ام الحسن والحسين عليهما السلام، والواسطة بين النبوة والإمامة.

وما ظنك بمولود يأتي من افضل خلق الله من الاولين والاخرين سيد الأنبياء محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وبين افضل نساء الجنة، الطاهرة خديجة بنت خويلد ؟

لذلك- وتأكيداً لهذه الحقيقة- نقرأ من زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) المعروفة بزيارة وارث والمروية عن الإمام الصادق (عليه السلام) بالسند الصحيح:

(اشهد انك كنت نورا في الاصلاب الشامخة والارحام المطهرة لم تنجسك الجاهلية بانجاسها و لم تلبسك من مدلهمات ثيابها) [58].

ونظراً لكون المسألة جزءاً من الثقافة العقيدية التي يلتزم بها المؤمن نجد التأكيد عليها في نصوص الزيارات الواردة عن الأئمة (عليهم السلام)، فاضافة إلى ما تقدم نجد نفس المعنى يتكرر في الزيارة الرجبية.

(اشهد انك طهر طاهر مطهر من طهر طاهر مطهر طهرت وطهرت بك البلاد). وكذلك يتكرر المعنى في زيارته (عليه السلام) في العيدين وزيارة الاربعين، وما ذلك إلا اشعار بالأهمية الخاصة التي يوليها المعصومون للتاكيد على هذا المعنى.

كما أن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليهما السلام يؤكد على هذه الحقيقة في خطبته ببلاط يزيد بن معاوية عندما جلب إلى الشام ومعه ركب الاسرى من النساء والاطفال، وبالرغم من وجود ايماءات تعريضية بأصل الحاكم يزيد، وضعة منبته، إلا انها تؤكد المعنى الذي نحن

---

58 / **وما بعده** مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي (ره).

بصدده، وذلك في قوله (عليه السلام):

- (انا ابن عديمات العيوب، انا ابن نقيات الجيوب).

.. وحتى امهات الاولاد (الجواري)[59] :

سوف نتطرق في صفحات قادمة إلى موضوع زواج اهل البيت عليهم السلام من الجواري وخلفيات ذلك، ولكننا الآن في إطار الحديث عن حفظ الله ورعايته لطهارة هذا النسل الذي انتخب لهداية البشر، إذ ان من المعروف ان الجواري كن يبعن ويشترين من يد إلى يد، وعادة لا تسلم واحدة منهن إلا فيما ندر، ولكن عندما تكون مشيئة الله سبحانه أن تحتضن احداهن احدى حلقات هذه السلسلة المباركة فإن كل الامور تهيأ ضمن إطار الحفظ والطهارة والنزاهة. ولنقرأ ما يسطره التاريخ عن حميدة المصفاة البربرية زوجة الإمام الصادق ووالدة الإمام الكاظم عليهما السلام.

فقد دخل عكاشة بن محصن الاسدي على ابي جعفر الباقر (عليه السلام) وكان ابو عبد الله قائما عنده فسأل ابن عكاشة الإمام الباقر (عليه السلام) عن سبب تأخر زواج الإمام الصادق (عليه السلام) فاجابه بأنه سيأتي نخاس من اهل البربر، وينزل في دار ميمون فنشتري له بهذه الصرة جارية. ومرت ايام أخرى ثم دخل الراوي على الإمام الباقر مرة أخرى فقال: الا اخبركم عن النخاس الذي ذكرته لكم ؟! قد قدم فاذهبوا واشتروا بهذه الصرة منه جارية، فاتينا النخاس، فقال: قد بعت ما عندى إلا جاريتين مريضتين احداهما امثل من الاخرى، قلنا: فأخرجهما حتى ننظر اليهما فقلنا بكم تبيع هذه الجارية المتماثلة ؟! قال: بسبعين دينارا، قلنا: احسن ؟! قال: لا انقص من سبعين دينارا، فقلنا: نشتريها منك بهذه الصرة ما بلغت..

وبعد ان تم الاتفاق، وجيء بالجارية إلى الإمام الباقر (عليه السلام) سألها عن اسمها، فقالت حميدة، قال حميدة في الدنيا محمودة في الآخرة.. اخبريني عنك: أبكر أم ثيب ؟! قالت بكر، قال: وكيف ؟! ولا يقع في يد النخاسين شيء إلا افسدوه ؟! وكأن الإمام (عليه السلام) كان يريد أن يظهر للحاضرين حفظ الله لهذه الجارية من الدنس ويتوقع جوابها لذلك، وإلا فلو كان يتوقع غير ذلك لم يكن ليسألها أمام الحاضرين.. فأجابته بأنه كان يأتي فيمنعه الله من ذلك.

---

59 / يطلق على الجارية التي تكون في ملك الرجل فتلد له وحينئذ تسمى (ام ولد) وتنعتق بموت زوجها.

وتعظيما لشأن هذه الجارية التي أهلها الله لتكون حاملة لأحد الأنوار من الهادين قال عنها الإمام الصادق (عليه السلام): حميدة مصفاة من الأدناس، كسبيكة الذهب ما زالت الاملاك تحرسها حتى أديت اليّ كرامة من الله لي والحجة من بعدي [60].

هذا مع العلم انه كان للإمام الصادق (عليه السلام) زوجات عديدة احداهن حفيدة الإمام الحسن السبط (عليه السلام)، إلا أن مشيئة الله سبحانه اقتضت ان تتشرف هذه الجارية المغربية بحمل ولي الله.

وبالتالي ألم نتقدم في الصفحات السابقة للقارىء الكريم، ان المسألة عملية غيبية مطلقة، وإلهية بحتة ؟!

الحياة الزوجية عند أهل البيت

٢- أهل البيت والمسألة الجنسية :

تحتل المسألة الجنسية جزءاً كبيراً من فكر الإنسان نظرا لما تشكله من ضغط وما تمثله من حاجة مستمرة. ونظراً لذلك فإن رأي البشر من اجل حلها كان أمام طريقين: القمع والاباحة المطلقة. بينما كان للوحي طريق ثالث.

أ/ القمع: توجه الرهبان والصوفية:

منذ البدايات وحيث كان البشر يفتش منفرداً عن طريق يوصله إلى الله سبحانه رأى ان هناك تناقضاً بين الدنيا والآخرة، وبين الغرائز والسمو، لذلك اتخذ طريق رفض الاولى، فهو يرفض الطعام اللذيذ- بالرغم من أنه نعمة الله- لكي يحصل على الآخرة ، وهو يترك اللباس النظيف والناعم مستبدلاً به الصوف والخشن لكون الأول يصده عن التوجه إلى الله، وهو يترك الزواج ايضا لأن المقاربة الجنسية دليل تعلق بالدنيا.

وفيما يرتبط بالمسألة الجنسية عززها ما فهم لدى بعض المتدينين من كون المرأة مثالاً للخطيئة، من خلال تفسيرهم لقصة خروج آدم وحواء من الجنة، وكون المسيح عيسى بن مريم (عليه

---

60 / بحار الأنوار ج ٤٨ ص ٦.

السلام) قد عاش حياة عزوبة وصدود عن النساء.

إن اساس هذا التوجه قائم على امرين:

ا/ إن ترك المقاربة الجنسية بل قمع الغريزة الجنسية في النفس يفسح المجال للطاقات العاقلة والمبدعة لكي تتبلور وتبرز، وكما ان القيام بالتمارين الرياضية ينفع البدن في ازالة الشحوم الاضافية الضارة وفي ابراز العضلات والقوة، فإن هذا القمع للغريزة الجنسية عبر عصيان نداءاتها وعدم الالتفات اليها، يعتبر رياضة روحية تنفع في اطلاق الملكات الكامنة وعبقرية النفس، بينما الاصغاء اليها- في رأيهم- وتلبية مطالبها يجعل الإنسان أسير الشهوة وعبد الغريزة فتنطفىء مصابيح الحكمة في قلبه.

٢/ إن التفرغ لعبادة الله وطلب ما عنده من الفضل يقتضي اخلاص التوجه اليه قلباً وقالباً، فلا يتعلق القلب بغير حب الله، ولا ينشغل القالب سر عبادته، وكل استجابة لغريزة من الغرائز تعتبر عبادة لمتعلق تلك الغريزة لذلك فإن اخلاص العبادة- في رأيهم- يقتضي التخلص من هذه الغرائز وتركها. وهذه المذاهب وجدت (في العصور القديمة وخالفت مبدأ الجنس، وان هذه الفكرة كانت تلاقي رواجاً بالاخص في المناطق التي سادت فيها الديانتان المسيحية والبوذية، وان " سر تارك" يذكر لنا نماذج من هذا التفكير العجيب القائل بأن الخبث والضياع امران ملازمان لكل علاقة جنسية).

وفي المناطق التي عاشت بعيدة عن تأثير الديانتين البوذية والمسيحية ظهرت مذاهب ووجد رهبان دعوا الى التبتل والعزوبة..

(.. وعلى ما يبدو فإن فكرة خبث " العلاقة والمقاربة الجنسية " راجت عند المسيحيين لهذا الحد بسبب تفسير من جانب الكنيسة في بداية تأسيسها حول حياة العزوبة التي عاشها عيسى المسيح، فقد قيل بأن المسيح عاش أعزب بسبب الخبث الذاتي الموجود في العلاقة الجنسية ولذلك فإن رجال الدين المسيحيين عرفوا الارتقاء الى المراتب الروحية العالية بعدم المخالطة مع المرأة طيلة حياة الفرد كما ان البابا يجب أن ينتخب من بين اناس لم يخالطوا النساء مطلقا، ورجال الكنيسة يعتقدون بان التقوى من الفرد الابتعاد عن ا لزواج..) [٦١].

---

[61] / الضوابط الاخلاقية للسلوك الجنسي للشيخ مرتضى مطهري عن كتاب (الزواج وا لاخلاق) لبرترا **ند** راسل.

و لم تكن هذه الفكرة مقصورة على البوذية والمسيحية بل وجدت حتى بين المسلمين بالرغم من تعاليم الإسلام الواضحة التي تعتني بالدنيا للآخرة. فقد جاءت زوجة عثمان بن مظعون عاطلة عن الزينة، فسألتها احدى زوجات الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عن سبب ذلك فأخبرتها ان زوجها يصوم النهار ويقوم الليل ولا يقربها، فاخبرت بذلك الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فخرج إلى اصحابه فقال: اترغبون عن النساء ؟! اني آتي النساء وآكل بالنهار وأنام بالليل فمن رغب عن سنتي فليس مني، وقد انزل الله (لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا انه لا يحب المعتدين * وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً واتقوا الله الذي انتم به مؤمنون) فقالوا يا رسول الله: انا حلفنا على ذلك!! فأنزل الله: (لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم).

وكذلك نجد ان امرأة تترك التزويج، رغبة في الفضل، وتتقرب بذلك إلى الله، فقد جاءت امرأة للإمام الصادق (عليه السلام) فقالت: اصلحك الله اني متبتلة فقال لها: وما التبتل عندك ؟! قالت: لا اريد التزويج ابداً ؟ قال: و لم ؟! قالت: التمس الفضل في ذلك.. فقال: انصرفي فلو كان في ذلك فضل لكانت فاطمة (عليها السلام) أحق به منك، انه ليس احد يسبقها إلى الفضل.

هذا هو الطريق الأول الذي اختاره البشر لمعالجة المسألة الجنسية ويتلخص في ضرورة قمع الغريزه بترك الاستجابة لها، واغفال نداءاتها من اجل اطلاق الطاقات العقلية الكامنة من جهة ولأجل التقرب الى الله- في رأيهم- من جهة أخرى.

ب/ الحرية الكاملة: افراز الحضارة الحديثة:

بعد ذلك المشوار الطويل الذي سلكه البشر (أو بعضهم) في قمع المسألة الجنسية جاؤوا من جديد ليسلكوا طريقاً معاكساً للسابق، وذلك بفتح الباب على مصراعيه في عبادة اللذة، وممارسة هذه الغريزة.

وتنطلق هذه الممارسة من نقاط ثلاث:

* اعتبار الممارسة الجنسية عملاً عادياً تؤديه بعض أعضاء الإنسان بشكل آلي، تماماً كالاكل والشرب والنوم.. وكما ان هذه الاعمال عادية وطبيعية عند البشر، فإن الممارسة الجنسية- حسب هذه النظرية- يجب أن تكون كذلك. بكثرة الممارسة وفي مختلف الظروف، ودون قيود او حدود، ومتى اصبحت كذلك: كثيرة، ودون قيود، فقد انتهت كمشكلة.

اعتبار المسألة الجنسية امر شخصي، يحدده رغبة الطرفين المشتركين فيه، من دون دخل للقانون، او حتى للعرف الاجتماعي في تحديده سواء في الكمية أو في طريقة الاداء.. فحسب اصحاب هذه النظرية ما دامت المسألة لا تتعارض مع حرية الآخرين فإن الأمر متروك لطرفي هذه الممارسة. ومتى ما اخلت بحرية الآخرين فالها تقيد بذلك المقدار. وبالتالي فلا دخل للقانون ولا للعرف في تحديد طريقتها او كميتها في الاساس. لألها شأن شخصي.. تماما كما لا يستطيع القانون أن يحدد عدد ساعات النوم بالنسبة للشخص، أو مقدار ما يأكل.

" ولأن هذه الممارسة عمل (عادي) و(آلي) كالأكل، ولالها من جهة أخرى شأن (شخصي) لذلك لا يوجد مكان يمنع فيه ممارستها لالها بحسب رغبة (الشخص)، سواء في الحديقة العامة أو في المترل.

هذا فضلا عن سائر القيود (الدينية والشرعية) وهذا يصح وذاك لا يجوز !!

وكان من نتيجة هذه النظرية، نلاحظ اليوم في الغرب من الهيار سريع لنظم العائلة ومن انفجار شهواني مدمر، ومن النسب المتزايدة في اعداد الأطفال غير الشرعيين وإلى آخر القائمة.

الإسلام والجنس:

وقبل ان نبدأ بالحديث عن بصيرة الإسلام من خلال تطبيقات المعصومين عليهم السلام نعيد الى الذهن ما سبق بحثه حول الجانب البشري والغيبي لأهل البيت ونعيد القارىء إلى ذلك الفصل قبل ان يبدأ بقراءة الاسطر التالية:-

بعد الفراغ من اهمية الزواج نعتقد ان الله سبحانه ما خلق في الإنسان عضوا ولا غريزة إلا بهدف، وهدف سام أيضاً، إذا تم توجيه ذلك العضو وتلك الغريزة الاتجاه السليم. وهؤلاء المتصوفة أو الرهبان يعتقدون دون أن يشعروا الهم اعرف من الله ؟! وابصر منه بطريق عبادته، والعياذ بالله، وان خلق هذه الغريزة قد تم في غفلة وبدون تخطيط، ولذلك فهم مكلفون ان يتداركوا هذا الخطأ بقمعها والقضاء عليها !! فهذه الطريقة ليست فقط لا تقرب لعبادة الله، بل قد توصل إلى حد الكفر بالله، عبر المعرفة الخاطئة به سبحانه.

أما فيما يرتبط بتبلور الطاقات الكامنة فقد وجدنا ان اكثر الأنبياء بشكل مطلق وعلى رأسهم وافضلهم نبينا محمد (صلى الله عليه واله وسلم) وهو العقل الاكمل والخلق الافضل في هذا الكون، كانوا قد اعلنوا ان سنتهم هي الزواج بل نجد ان لهذا الرسول الأعظم (صلى الله عليه

وآله وسلم) تسع زوجات بشكل دائم، و لم يؤثر ذلك في ملكاته ومواهبه إلا صقلاً و ابـــرازاً او(من رغب عن سنتي فليس مني) وفي المقابل وجدنا غالب أولئك المعتوهين وذوي الشطحات من غير المتزوجين.

أما النظرية الثانية فالنتائج التي اسفرت عنها خلال هذه الفترة القليلة من تطبيقها في الغرب افضل رد عليها، ولكونها كذلك فلا نكلف أنفسنا عناء مناقشتها.

أما عن المسألة الجنسية في الإسلام، فنحن نعتقد انها تتميز، لأمور التالية:

ا- عملية هادفة لاستمرار النوع

في البداية ينبغي أن نوضح ان الله سبحانه وتعالى عندما خلق هذا الإنسان (في احسن تقـــويم) رتب كل جزء فيه وكل خلية وعضو فيه لأجل هدف، ولا يستطيع العقل البشري تصور نموذج اكمل من هذا النموذج الذي خلقه الباري سبحانه.

وإذا كان لكل نوع من المخلوقات نوع خاص من التكاثر والتوالد فإن ارقى طرق الاستمرار في الخلق ما نجده لدى الإنسان عبر العملية الجنسية وما يتبعها من امور الحمل والولادة والرضاع..

٢- تعبير حسي عن الحب القلبي:

حين نتأمل في النصوص التي تتناول هذه القضية نجدها تبتعد بها عن الحالة الآلية المجردة، لتحولها إلى حالة انسانية، ومن وظيفة اعضاء إلى عواطف قلوب، ولذلك نقرأ في الآية الكريمة (ومن أياته أن خلق لكم من انفسكم أزواجاً وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) [٦٢].

إننا نجد في الآية المباركة، التي تأتي في سياق تعداد الآيات الكبرى لله في الكون من خلق البشر من تراب، ثم آياته في خلق السماوات والارض، واختلاف الالسن واللغات وتغـــاير الالـــوان والعناصر.. فهذه الآية تأتي في سياق تبيان آيات الله الكبرى.. والحق ان التحول الذي يحدث في حياة اثنين كانوا غرباء كل الغربة عن بعضهما لأيام خلت، فإذا الرحمة بينهما وإذا المودة، وإذا السكن الزوجي، هذا التحول فيه آيات كافية لمن اراد ان يتفكر.

---

[62] / سورة الروم، الآية ٢١.

٣- البعد الروحي في المسألة الجنسية:

لا يكتفي الدين باعطاء هذه العملية هدفا يتصل بالتكاثر ولا بتأطيرها بالرحمة والمودة والحب، إنما يعطيها بعداً روحياً سامياً حيث يحولها- نظراً لما تحمل من معان- الى احدى العبادات، فيضع لها قوانين ومستحبات، و ا ذكار.

- فعن امير المؤمنين (عليه السلام) قال: إذا جامع احدكم فليقل: بسم الله، اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني.. قال (عليه السلام) فإن قضى الله بينهما ولدا لا يضيره الشيطان بشيء ابداً [٦٣].

- وورد أيضا: إذا قرب الزفاف يستحب ان تأمرها ان تصلي ركعتين وتكون على وضوء إذا ادخلت عليك وتصلي انت أيضا مثل ذلك وتحمد الله وتصلي على النبي وآله وتقول (اللهم ارزقني الفها وودها ورضاها بي وارضني بها واجمع بيننا بأحسن اجتماع وايسر ائتلاف فانك تحب الحلال وتكره ا لحرام) [٦٤].

واهمية هذا الجانب تظهر في تحول العملية الى طريق للتقرب الى الله عبر صيانة الإنسان نفسه من الحرام، والتزامه في قضاء شهوته- وهي حاجة انسانية بحتة، بل هي بتجردها الى الجانب الحيواني أقرب- التزامه في قضائها بالطريقة الإلهية.

وهذا الموقف الملتزم بالتشريع الالهي من قبل المؤمن لا يختلف بحسب متعلقاته، من صلاة أو صوم أو جهاد أو زواج، إذ ان المطلوب من المؤمن هو اصل الالتزام وايجاد حالة الخضوع والاستسلام لأمر الله في نفسه، ولذلك فإننا نجد أن كثيرا من الأحاديث تساوي بين هذه المتعلقات والافعال، مع اننا نعلم في الخارج وبادىء ذي بدء بوجود اختلاف وتمايز بينها، وما تلك المساواة إلا اشارة إلى مبدأ الاستسلام والخضوع المطلوب من قبل العبد لله سبحانه.

فقد دخل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بيت ام سلمة فشم ريحاً طيبة، فقال: اتتكم الحولاء فقالت أم سلمة: هو ذا هي تشكو زوجها فخرجت عليه الحولاء فقالت: بأبي انت وأمي

---

63 / الوسائل ج ٧ ص ٩٦.

64 / مكارم الاخلاق ص ٢٠٨.

ان زوجي عني معرض، فقال: زيديه يا حولاء، فقالت: لا اترك شيئاً طيباً مما اتطيب له به وهو معرض، فقال: أما لو يدري ما له باقباله عليك !!

قالت: وما له باقباله علي ؟! فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): اما انه إذا اقبل اكتنفه ملكـــان وكان كالشاهر سيفه في سبيل الله، فإذا هو جامع تحات عنه الذنوب كما يتحات ورق الشجر فإذا هو اغتسل انسلخ من الذنوب [٦٥].

ويفسر الإمام الصادق (عليه السلام) الأمر المتقدم بنقله قول الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) لابي ذر: ائت اهلك تؤجر، فقال: يا رسول الله آتيهم وأؤجر ؟! فقال رسول الله: كما انك إذا اتيت الحرام أزرت كذلك إذا أتيت الحلال أجرت [٦٦].

ويعتبر العمل الجنسي ما دام في طريقه الحلال (صدقة). فعن الإمام الصادق (عليه الســـلام) ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لرجل من اصحابه يوم الجمعة: هل صمت اليوم ؟! قال: لا قال (صلى الله عليه وآله وسلم) فهل تصدقت بشيء ؟! قال: لا، قال (ص) له: قـــم فأصب من اهلك فانه منك صدقة عليها [٦٧].

٤- الواقعية:

بالرغم من ان من جوانب المسألة الجنسية اشتمالها على مقدار من الخيال مما يجعلها اكثر لذة، إلا ان الإفراط في هذا الجانب يسلب من الشباب الناشيء طاقات العمل والفاعلية، عندما يتحـــول كل منهم إلى (مجنون ليلى) هائم على وجهه مع افكاره واوهام حبه، واستنشاده لاشعار الحب والغرام.. فهو مشروع مشكلة متنقلة على رجلين، وبالطبع لا يستطيع أن يحل مشكلته، لأنـــه يعيش في عالم آخر غير هذا العالم وهكذا يستمر، إلى احدى نهايتين إما أن يحصل على من يهديه

65/ الوسائل ج ٧ ص ٧٥.

66 / الوسائل ج٧ ص ٧٦.

67 / الوسائل ج ٧ ص ٧٦.

إلى طريق الواقعية فينجيه من (دوامة الوهم) هذه، عبر الزواج أو اشغاله بمجالات أخرى من الفاعلية تستترف اهتماماته، وأما نهاية الجنون ان استمر في هذه المسيرة، معطلاً طاقة عقله، وفاقداً لهدف حياته وقد ينتهي على هذه الحالة، فلا يبقى منه ذكر ونحن نقرأ في كتب الادب والتاريخ سيرة (من عشق فعف فمات) !! ويختلط فيها خيال القصاصين بقصص الخياليين لكن خلاصتها تنبيء عن لا واقعية شخص او اكثر في معالجة (مشكلة قلب) حتى انهت امره الى حطام الحياة.

ونحن نجد هذه الحالة منتشرة بشكل اكبر في صفوف الشباب والمراهقين والمراهقات الذين لا يستطيعون (و احياناً لا يحاولون) السيطرة على عواطفهم، فيختارون طريق الخيال والهروب من مواجهة المشكلة الواقعية على سائر الطرق. وهذا الاختيار لا يزيد المشكلة إلا حدة.

عندما ننظر إلى كيفية تعامل الإسلام مع هذه القضية، خصوصاً من خلال روايات اهل البيت (عليهم السلام) نجد انهم كانوا يسعون من اجل تجريد هذه المسألة عن الخيال قدر الامكان وحلها من خلال الواقع، علما بأنها إذا جردت عن المقادير الخيالية الزائدة وبقيت في حدودها الواقعية امكن حلها بغير صعوبة، وابرز دليل على ذلك ما نجده في الواقع الخارجي حيث لا يوجد شاب بالغ إلا وهو مرشح لأن يصبح عاشقا ولهانا، هائما في عوالم الخيال، نظراً لتفتح غرائزه الجنسية، وتوجهها نحو الجنس الاخر سواء في صورة معينة ومحددة أو في صورة كلية، إلا أن الاكثر يتعاملون مع هذه المسألة بواقعية فتنتهي، ويبقى البعض في هذه المشكلة حتى توردهم حياض حتفهم، واول ما نواجه في هذه الاخبار:

رفض الإنسياق مع العشق:

إننا حين ننظر إلى الأحاديث التي تناولت هذا الجانب نجدها تتحدث تارة عن آثار العشق والهوى التي تجعل الإنسان لا يفكر بصبورة متوازنة، بغض النظر عن متعلق عشقه وهواه، إذ ان من النتائج الطبيعية لهذا النوع من الحب العنيف انه يسلب صاحبه ميزان الاعتدال في تقييم الامور. وتارة تتحدث عن عبثية هذا العمل، فبينما ينبغي ان يوجه المرء همه وهمته وحبه لله سبحانه وتعالى الذي انعم عليه ضروب النعم، وفي الدرجة الثانية لاصحاب النعمة عليه كوالديه، ولأهل بيته، إذا به يوجه كل ذلك إلى ما ينتهي- آخر الأمر- إلى الشهوة ه وتقديس الجنس، ويا ليته يسلك الطريق الواقعي، الذي يسلكه عموم الناس. - فعن المفضل قال سألت ابا عبد الله (عليه

السلام) عن العشق فقال: (قلوب خلت عن ذكر الله فاذاقها الله حب غيره)[٦٨] .

– وعن الإمام موسى بن جعفر عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): ان اخوف ما أخاف على امتي من بعدي هذه المكاسب المحرمة والشهوة الخفية والربا)[٦٩] .

– وعن الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) عن آبائه قال:

قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): تعوذوا بالله من حب الحزن [٧٠].

وفي روايات كثيرة تحدثت عن ثار حب الاشياء، على القدرات العاقلة في الإنسان مما يشمل بالطريق الاولى الهوى والعشق، فعن امير المؤمنين (عليه السلام):

– (من عشق شيئاً اعشى بصره وأمرض قلبه فهو ينظر بعين غير صحيحة، و يسمع بأذن غير سميعة، قد خرقت الشهوات عقله و اماتت الدنيا قلبه) . ويحذر من النتائج المدمرة المتعقبة لافساح المجال للهوى في حياة الإنسان فيقول:

– (إنك ان أطعت هواك أصمك وأعماك وافسد منقلبك ورداك)[٧١] بل ان (الهوى شريك العمى)[٧٢] .

والغريب اننا بالرغم من ملاحظتنا لأحاديث (حب النساء) وهي من صفات الأنبياء والأئمة والمؤمنين إلا اننا لا نجد تعبيرا واحدا عنها (بعشق النساء) والذي يظهر ان هناك ثلاثة مصطلحات يمثل كل مصطلح نمط خاصا من العلاقة مع النساء.

العشق– ا لحب– الجماع.

فالأول مغرق في التجريد، والاخير مغرق في التجسيد، والاوسط جامع بينهما، وبينما لا نجد

---

68 / بحار الأنوار ج ٧٠ ص ١٥٨. وقد فسروا حب الحزن والشهوة الخفية بالعشق.

69 / نفس المصدر

70 / نهج البلاغة خطبة ١٠٩.

71 / ميزان الحكمة.

72 / نفس المصدر

التعبير الأول في كلمات المعصومين (عليهم السلام) نجد المصطلح الثاني كثيرا، والثالث أحياناً لسبب سنتحدث عنه فيما بعد. ولنتعرض إلى بعض الأحاديث في هذا الجانب ثم نلقي عليها نظرة كاشفة:

– عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (ما أصيب (احب) من دنياكم. إلا النساء والطيب).

– وعنه أيضا: (جعل قرة عيني في الصلاة ولذتي في النساء).

– وعن الإمام الصادق (عليه السلام): (من اخلاق الأنبياء حب النساء).

– وعنه ايضا: (ما أظن رجلاً يزداد في الايمان خيرا إلا ازداد حبا للنساء) [٧٣].

– وعنه (عليه السلام) أيضا: العبد كلما ازداد في النساء حبا ازداد في الإيمان فضلا [٧٤].

ماذا تعني هذه الأحاديث ؟!

، في البداية ينبغي الإشارة إلى أن هذا الحب للنساء لا يعني الإفراط والمبالغة إذ ان ذلك خارج عن مدلول هذه الروايات، لأن الإفراط اساساً غير محبوب حتى في العبادة [٧٥]، بل قد تحمل الروايات الذامة لحب النساء والمعبرة عنك (بسيف الشيطان) وانه من (الخصال التي عصي الله بها) على هذا الإفراط حين يلخص الإنسان حياته في المخادع والمضاجع.

* أما معنى هذا الحب: فقد يكون بمعنى حب مطلق النساء في مقابل كره العرب لهن، وإهانتهن قبل الإسلام، وهو هنا يفسر بعدد من الأحاديث التي توصي برحمة النساء ، والعطف على ضعفهن، فإذا كان حظ المرأة في الجاهلية الوأد حية، وفي احسن الفروض تشاؤم الوالدين بقدمها (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم أيمسكه على هون أم

---

73 / الوسائل ٧.

74 / مكارم الاخلاق ١٩٧.

75 / كتاب النكاح من موسوعة الفقه لآية الله الشيرازي ج ا ص ١٦.

يدسه في التراب).

فعندما جاء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حاملا معه تعاليم الرسالة، كان من أول الأمور التي قام بها، أنه أعاد للنساء قيمتهن، واوصى المسلمين بحبهن والعطف عليهن فهو يوصي (بالضعيفين اليتيم والمرأة) إذ أن (المرأة ريحانة وليست بقهرمانة).

وهذا المعنى وإن كان صحيحا في نفسه، ويساعد عليه ما ورد من الروايات في الرحمة بالنساء، إلا أن سياق أحاديث (حب النساء) وما في معناها لا يساعد عليه.

* والمعنى الثاني: الذي يستقرب هو تلك العلاقة التي خلقها الله سبحانه وتعالى وافرغها على البشر: الرجال بالنساء [٧٦] وبالعكس، تلك العلاقة التي تبدأ بالحب وتنتهي بالشهوة.

هذا الحب (القوي) أمر طبيعي يجده الأشخاص الأسوياء في حياتهم ولا ينكره إلا المكابرون، خلق مع الإنسان ويستمر معه حتى تشيخ أجهزته وتتعطل، فكما خلق الله الجمال فطر البشر على حب الجمال والتعلق به.

بل لقد جرت سيرة البشر في أدوارهم المختلفة على التعامل مع هذه الحقيقة الواضحة واعتبار من يتجاهلها خارجا عن الطبيعة البشرية.

وما ورد من كون نبي الله عيسى ويحيى (عليهما السلام) قد انصرفا عن الزواج وان يحيى مدح بكونه (حصورا) فذلك إنما هو لأجل كونهما مطاردين من قبل السلطة واليهود والحياة الزوجية المستقرة عادة متنافية مع حياة المطاردة والتهديد، ثم من المعلوم أن من يحصر نفسه عن الزواج لأجل أمر أهم لا شك يكون ممدوحا بذلك العمل [٧٧].

وهذا المعنى لعله يوجه أحاديث كون النكاح والزواج فطرة، بناء على كون الفطرة تشير إلى جانب الخلق والتكوين [٧٨].

---

76 / مفاد حديث: في بداية الخلق حيث خلق الله ادم ثم خلق حواء منه، والقى عليه الشهوة وزوجه اياها. الوسائل ج ٧

77 / كتاب النكاح ج ا ص ٨.

78 / فطر الله الخلق: إيجاده الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال فقال (فطرة **الله** التي **فطر الناس** عليها) إشارة منه تعالى إلى **ما** فطر أي أبدع **وركز** في الناس من معرفته تعالى. مفردات الراغب ٣٨٢٠.

ومما يؤيد هذا الرأي، الأحاديث الأكثر صراحة التي تتحدث عن حب اللذة [٧٩] وانه من أخلاق الأنبياء وصفاتهم، ومن ثم المؤمنين (كثرة الطروقة).

– فعن الإمام الرضا (عليه السلام): ثلاث من سنن المرسلين: العطر واحفاء الشعر وكثرة الطروقة .

– وعنه (عليه السلام) قال: في الديك الأبيض خمس خصال من خصال الأنبياء (عليهم السلام) معرفته بأوقات الصلاة، والغيرة، والسخاء، والشجاعة، وكثرة الطروقة [٨٠].

أما كيف يتحدث المعصومون (عليهم السلام) بهذه الصراحة عن قضية، نتعامل معها عادة بكثير من الخجل والحياء ؟! إن الأمر ليبدو صعب التحمل على البعض خصوصا أولئك (المتقدسين) الذين ينظرون إلى المعصومين (عليهم السلام) بخلاف ما هم عليه. وسوف نجد أن المعصومين (عليهم السلام) كانوا صريحين جدا في ما يرتبط بهذه المسألة – كبقية المسائل– سواء في الحديث عن الأصل أم التفاصيل.

فعن الإمام الصادق (عليه السلام) أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) رأى امرأة فأعجبته فدخل على أم سلمة وكان يومها فأصاب منها وخرج إلى الناس ورأسه يقطر فقال: أيها الناس إنما النظر من الشيطان فمن وجد من ذلك شيئا فليأت أهله [٨١].

---

79 / قسم الراغب في مفرداته استخدامات (الحب) في الآيات إلى أقسام أولها: حب اللذة وهو حب الرجل للمرأة.

80 / الوسائل ج ٧ ص١٧٩ .

81 / ضعف بعض العلماء الرواية المذكورة، سندا. والذي يظهر لي أن هذا التضعيف، ناشئ من إيحاء الدلالة،**كون** مدلولها الظاهري لا **يوافق** ما نعتقده من شأن الرسول (صلى الله عليه واله وسلم). أما رجال الرواية التي خرجها ثقة الإسلام الكليني في فروع كافيه، فهم..

– حماد بن عثمان، وهو مشترك بين اثنين: الفخاري والرواسي، وكلاهما ثقة كما عن المامقاني في تنقيح المقال، والاردبيلي في جامع الرواة، والخوئي في معجم رجاله:

وقد وثقهما شيخ الطائفة الطوسي.

والوشاء هو الحسن بن علي بن زياد، ممن يروي عن حماد، وهو عين من عيون الطائفة كما عن النجاشي، ووثقه المامقاني كذلك، وقال الخوئي: وكيف كان فلا ينبغي الريب في جلالة الرجل ووثاقته.

ونظير ذلك ما ينقل من أن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان جالسا مع أصحابه يحدثهم فمرت امرأة جميلة على القوم فرمحها القوم بأبصارهم وانشغلوا عن الاستماع لحديث الإمام (عليه السلام) فقال: إن أبصار هذه الفحول طوامح، وان ذلك سبب هبابها فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه فليلامس أهله فإنما هي امرأة كامرأته [٨٢].

ونجد في احاديثهم (عليهم السلام) تعابير (بنيت بها البارحة) وما شابهها

وهم يتحدثون عن هذه (العلاقة الخاصة) وفي التفاصيل حين يرسل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الخاطبة تخطب له، لا يتمنع تمنع أشباه المتقدسين أو يصد صدود الزهاد، بل يقول لها شمي لبتها فإن طابت لبتها طاب عرفها، وانظري إلى كعبها فإن درم كعبها عظم كعثبها [٨٣].

* إحدى طرق التعليم للأحكام الدينية، فمن الواضح أن المعصومين (عليهم السلام) تقع عليهم مسؤولية تبليغ الأحكام والمعارف الدينية في مختلف قضايا الحياة الشخصية منها والعامة، ولما كانت القضايا الزوجية والجنسية منها على الخصوص تقع ضمن دائرة (المهمل) فلأن ميدانها

- والمعلى بن محمد ممن روى عن الوشاء، عده المامقاني من الرجال الحسان، وذكره الطوسي في (فهرسته) قال: له كتب منها كتاب الإيمان ودرجاته واستظهر الخوئي وثاقته والاعتماد على رواياته.

- وأما الحسين بن **محمد** فهو مشترك بين جماعة والتمييز إنما يتم بالراوي والمروي عنه، وبالنظر إلى ذلك، يمكن القول انه (ابن عامر الاشعري) الذي روى عن المعلى بن محمد (٦٤٢) رواية كما عن الخوئي في رجاله، وهو ثقة- كما عن المامقاني- على التقدير.

وبالتالي فلا أحد من رجال الرواية المذكورة ضعيف، إنما نشأ التردد في قبول الرواية

من دلالتها، وظاهر معناها، ولعله لهذا السبب حذف الصدوق (ره) صدر الرواية في كتابه، فبعد أن ذكر سندها، نقلها هكذا قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):

إنما النظر من الشيطان.. الخ وحذف ما قبل ذلك كذا نقل عن الوسائل..

ولكننا إذا حملنا الرواية على المعنى الذي اخترناه- وذكر في المتن- فإننا لا نختار بعد ثبوت وثاقة رجال السند.

82 / نهج البلاغة حكم ٤٢٠.

83 / الوسائل ج ٧ ص ٣٦.

هو المترل والحياة الخاصة، يتكتم عليها أطرافها عادة، وباعتبار قضايا الحياء والخجل يترددون في السؤال عنها.

لذلك يقوم المعصومون عليهم السلام ببعض الأعمال، كما في الحديث الأول، قــد لا تكون مقصودة لذاتها، إذ ما دمنا نعتقد بعصمة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وبكماله فلا يمكن أن نتصور مع ذلك حدوث الإثارة الجنسية له بمجرد النظر إلى امرأة حسناء، الأمر الذي لا يحصل لغير الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من المؤمنين العاديين، فكيف بــه صــلوات الله عليه، إنما يفسر هذا الحديث بما بعده من أن قصد الرسول كان توجيه أصحابه تماما كما فعــل أمير المؤمنين (عليه السلام)، ولذا نجد مؤدى الحديثين واحدا.

* إبراز الجانب البشري لدى المعصومين (عليهم السلام) دفعا للغلو والعقائد الخاطئة التي يمكن أن تتكون عند بعض الاتباع من غير الواعين فهم بإبراز هذا الجانب المغرق في البشرية، وما يرتبط به من شهوة ولذة وزواج.. الخ، يقفون أمام ذلك التوجه الخــاطئ والمغــالي في فهــم حقيقتهم.

* إدانة الازدواجية والنفاق الذي يمارسه أدعياء الزهد، ومتظاهرو القدسية. فكما تظاهر بالزهد في الملابس والأطعمة رجال كذبة، كذلك وجد أشخاص ادعوا التعفف، وترك النساء، والبعد عن الجنس، زعما منهم بان ذلك يقربهم من الله وانهم يلتمسون الفضل بذلك، ووجد بين هؤلاء صادقون مخطئون، كما وجد كاذبون متعمدون في الخارج يتعففون ويصدون عن ممارسة الحلال، بينما في واقع أمرهم يمارسون الحرام، ولعل في قصة عابد بني إسرائيل مثالا واضحا لهذا النموذج. وفي قصص أدعياء التصوف وشذوذهم الجنسي ما يؤكد هذه الحقيقة.

* تبيان تكاملية الدين، وتجانسه فمن الممكن أن يكون المرء في أعلى درجات القرب من الله تعالى والطاعة له، ومع ذلك يتمتع بطيبات الحياة الدنيا مما احل له، وهــذه ميــزة الــدين الإسلامي، ولعل ما نلحظه من غضب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من أولئك الذين أرادوا الترهب إنما كان لأجل الخطأ في فهم تكاملية الدين، والاستعانة بنموذج خاطئ للإنسان المتدين (نموذج الرهبان المنعزلين) لذلك قال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مبينا حاله وهو افضل خلق الله واقربهم منه في أكله الطعام وإتيانه النساء، ثم مهددا بأن من يخالف هذا المنــهج سيكون خارجاً عن سنته وطريقته- قال لعثمان بن مظعون-:

(يا عثمان لم يرسلني الله تعالى بالرهبانية ولكن بعثني بالحنفية السهلة السمحة أصوم وأصلي وألمس أهلي فمن احب فطرتي فليستن بسنتي ومن سنتي النكاح) [٨٤].

* الخيارات المتاحة

عندما يوجه الإسلام الفرد إلى الواقعية في علاقته مع الجنس الآخر يضع أمامه حلولا ممكنة– عادة– ثم يطالبه بالالتزام بالقوانين، وعدم التجاوز، وهذا الأمر أحد مميزات هذه الشريعة السمحاء. فبينما تعمل بعض المذاهب على طريقة:

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

يعمل الإسلام لتوفير اكثر من خيار أمام الفرد ويعينه على بعضها. فهو يعرض في البداية طريق (الاستعصام) والتغلب على الغريزة عبر تقوية الجوانب الروحية، واضعاف (الجسد) ونوازعه بالصوم..

فقد جاء رجل إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: يا رسول الله

ليس عندي طول (إمكانية مالية) فانكح النساء، فإليك أشكو العزوبية فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): وفر شعر جسدك وادم الصيام، ففعل فذهب ما به من الشبق [٨٥].

– وعنه (صلى الله عليه وآله وسلم):(يا معشر الشباب من استطاع منكم الباه فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فليدمن الصوم فإن له وجاءً)[٨٦].

ولأن هذا الحل ليس إلا مؤقتا ولا يمكن– كما قدمنا– التغافل عن هذا الجانب إلى الأبد لذلك يتحول إلى السنة الطبيعية في حال هذه القضية وهي الزواج، فيرغب فيه، ويشوق إليه، ويشجع عليه.

– فعن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (من احب أن يلقى الله طاهرا مطهرا فليلقه بزوجة).

---

84 / سفينة البحار ج ٢ ص ٦١١.

85 / الوسائل ج ٧ ص ١٧٨.

86 / مكارم الاخلاق ص ١٩٧

- وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): (تزوجوا فإن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: من احب أن يتبع سنتي فإن من سنتي التزويج).

- وعنه (صلى الله عليه وآله وسلم): من تزوج أحرز نصف دينه فليتق الله في النصف الأخر).

وبمقدار ما حبذ الزواج وحببه فقد كره العزوبية، فـ (ركعتان يصليها المتزوج افضل من سبعين ركعة يصليها أعزب)، ونظراً لكون الأعزب- كنوع- اقرب إلى المعصية خصوصا فيما يرتبط بالمسائل الجنسية لذلك كان (اكثر أهل النار العزاب).

بل إن أهم كيان يعتمده الإسلام كأساس لبناء المجتمع هو الكيان الأسري، ولهذا الغرض فهو يدعو إلى تخفيف القيود وتسهيل الأمور فيه فيرى أن (من بركة المرأة قلة مهرها) وافضل النساء (اقلهن مهراً) ويرى إن تعقيد المسائل يؤدي إلى تأخير الزواج وفيه (فتنة وفساد كبير..).

ولما كان هذا الأمر بدوره غير متيسر لجميع الناس، إذ إن من الواقعية اخذ ظروف الشباب بعين الاعتبار، فهذا الطالب الذي لا يكاد يحصل على نفقات دراسته إلا بعد اللتياواللتي كيف يستطيع تأمين المال اللازم لنفقات الزواج والمترل وغيرها ؟! ومهما بلغنا في التبسيط تبقى هناك عقد أخرى، فهذا الذي لا تسمح له ظروف دراسته بالزواج، وذاك الذي يضطر إلى السفر بعيدا وراء عمله، و، و.

وما نقوله ليس افتراضات خيالية بل لعل القارئ العزيز، واحد ممن نتحدث عنهم، أو يعرف من أصدقائه الكثير ممن يشترك في هذه الظروف، ولأن الصوم ليس إلا حلا مؤقتا ولا يتيسر للجميع، كما أن أثره يبقي في دائرة الملتزمين جدا. لذلك فإن مسألة المتعة (الزواج المؤقت) تعطي أثرها المطلوب في حل المشكلة الجنسية لدى العدد العديد من الشباب.

- فعن جابر بن عبد الله عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الهم غزوا معه فأحل لهم المتعة و لم يحرمها وكان علي (عليه السلام) يقول: لولا ما سبقني به ابن الخطاب (عمر) مازنا إلا شقي.

- وعن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال:(في المتعة نزلت هذه الآية (فما استمتعتم به منهم فاتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة): لا بأس بأن تزيدها وتزيدك إذا انقطع الأجل فيما بينكما تقول: استحللتك بأجل آخر برضى منها ولا تحل

لغيرك حتى تنقضي عدتها)[٨٧].

وعن المفضل بن عمر في حديث طويل، انه سأل الإمام الصادق عليه السلام جملة مسائل حتى سأله: فالمتعة يا مولاي ؟!

قال (عليه السلام): (حلال طلق والشاهد بها قول الله عز وجل (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا إلا أن تقولوا قولاً معروفاً) أي مشهودا والقول المعروف هو المشتهر بالولي والشهود، و إنما احتيج إلى الولي والشهود في النكاح ليثبت النسل ويستحق الميراث وقوله (آتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئاً) [٨٨].

وعن الفتح بن يزيد قال سألت أبا الحسن (عليه السلام) عن المتعة فقال: (هي حلال مباح مطلق إن لم يغنه الله بالتزويج فليستعفف بالمتعة، فإذا استغنى عنها بالتزويج فهي مباح له إذا غاب عنها) [٨٩].

وفي كلمة أمير المؤمنين (عليه السلام) المشيرة إلى انه لولا تحريم المتعة من قبل الخليفة عمر بن الخطاب لما زنى إلا شقي.. معرفة تامة بحاجات الأفراد وبطبيعة الخيارات التي يسلكها البشر عندما تغلق أمامهم سبل الحلال، ولعل ما نجده اليوم في مجتمعاتنا الإسلامية- وفي غيرها أسوأ بكثير- من تفشي الفساد والعلاقات المحرمة، بحيث تصبح هي القاعدة عند الكثير من الشباب، ما يؤيد كلمة أمير المؤمنين (عليه السلام).

وللزواج المؤقت شروطه وأركانه، ويجعله في نفس مرتبة الزواج الدائم باستثناء بعض الآثار.

وفي هذه الخيارات التي قدمناها كان أهل البيت (عليهم السلام) يبينون حكمها الشرعي من جهة، ويساعدون- قدر الاستطاعة- على تحقيقها، فيكون جزءاً من مصارف الخمس والحقوق الشرعية تزويج من لا يستطيع.

---

87 / بحار الأنوارج ١٠٠ ص ٣١٤.

88 / بحار الأنوار ج ١٠٠ ص ٣٠١

89 / الوسائل ج ١٤ ص ٤٥٠

- فعن ابن قداح عن أبى عبد الله (عليه السلام) قال: جاء رجل إلى أبي (الباقر) فقال له: هل لك من زوجة ؟! قال: لا، فقال أبى: ما احب أن لي الدنيا وما فيها أني أبيت ليلة وليست لي زوجة، ثم قال: الركعتان يصليها متزوج افضل من رجل أعزب يقوم ليله ويصوم نهاره ثم أعطاه أبى سبعة دنانير وقال: تزوج بهذه [٩٠].

وكذلك نجد أن أحد أصحاب الإمام الكاظم (عليه السلام) كان قد عزم على المتعة بامرأة، ولكونه لا يملك المال فقد بقي جالسا في بيت الإمام (ع): فلما علم الإمام منه ذلك أعطاه صرة مال وأذن له أن يتمتع بها [٩١].

تقديس البناء وتهوين التفاصيل:

في أحاديث أهل البيت (عليهم السلام) نجد نظرية الزواج تتكامل بتقديس الكيان الزوجي، وبناء الأسرة، كأصل، وتهوين المقدسات والكيفيات، بينما يقوم الكثير من الناس بعكس هذه النظرية تماماً، فهم يبالغون في المهر ويزينون الخارج، وينفقون عن الظواهر والسطحيات ليحققوا - بزعمهم- السعادة، بينما يبقى الأساس والأصل واهناً.

والفرق بين الحالتين هو الفرق بين مهندس يبني عمارة فيحكم أسسها، ويدقق كثيرا في اختيار المواد، ويحفر الأرض بعمق جيد لتثبيت القواعد ويهتم بهذه الأمور اكثر مما يهتم في لون البناء، وفي زخرفة السقوف، وآخر يضع القواعد- كيفما اتفق- ولا يبالي بالنسب المطلوبة من مواد البناء، إنما يصرف المال بعد إنهاء البناء في اختيار احسن الأبواب، وينتخب من الأصباغ أفضلها، ومن الأثاث أفخمه.

إن الثاني مهدد بوقوع البناء رأسا، بينما الأول ربما يحرم من بعض الكماليات، لكنه يستطيع أن يعيش في ذلك البناء سنوات كثيرة.

ولهذا السبب فنحن نجد أن الزواج يتحول إلى (مشكلة) من اكبر المشاكل، لدى البعض وإذا تم، فهو يعتبر بداية لمشاكل أخرى، فالمجاهد الرسالي يشعر بضغوط الحياة الزوجية، فيضطر إلى تخفيف عمله و أحيانا إلى الاستقالة!! والعامل يشعر بوطأة التكاليف المادية لزواجه ابتداء

---

90 / (١) كتاب النكاح من الفقه لآية الله الشيرازي- الجزء الأول ص ٧.

91 / بحار الأنوار ج ٤٨ ص ٦٢

واستدامة، بينما هو يسمع أن الزواج يجلب الرزق!! وهكذا فنحن لا نستطيع أمام هذه الحالات (الواقعية) في الخارج أن نصدق أن الرسول مثلا كان قد تزوج بخمس عشر وتوفي عن تسع!! والإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) قد تزوج عشر نساء والإمام الحسن يختلف في عدد زوجاته والحد المتيقن مما قيل (١٠) زوجات، والإمام الحسين (عليه السلام) وهو الثوري المقاتل في عرف الناس يتزوج (بخمس نساء) وهكذا مما سيأتي بحثه بعد حين..

فكيف يمكن ذلك ؟!

وكيف كان المعصومون (عليهم السلام) يوفقون بين أعمالهم الدينية والاجتماعية والسياسية من جهة وبين مسؤولية هذا العدد الكبير من الزوجات ؟! إن الواحد من أبناء المجتمع، ومن العاملين على وجه الخصوص تعتبر المرأة الواحدة كثيرة عليه، فعمله يقل، وحركته تقيد، وصفاته المعنوية كالشجاعة والتضحية تنخفض عما كانت عليه قبل الزواج، هذا كله وهو لم (يتورط) بغير واحدة، فكيف الحال بالنسبة للمعصومين (عليهم السلام) ؟!

إنني اعتقد أن المسألة تعود إلى ما تقدم ذكره من أننا في المجتمع ابتلينا في المسألة الزوجية بعدة أمور:

* تحويل المسألة الجنسية إلى (عقدة.) وبالرغم من أن الجميع سيردها إلا انه يأتي إليها بخلفية العقدة، والعيب، ولذلك يتظاهر الواحد أمام الناس بغير ما هو عليه في هذا الجانب، ولعله لو ترك وشأنه لكانت طريقته غير هذه الطريقة.

* تعظيم المقدمات والشروط، فقد ربط الزواج بتوفير عدد كبير من المقدمات المادية التي لا تتوفر إلا بعد لأي شديد، مما يسهم في تعقيد القضية، ويعود بنا إلى الأمر السابق.

كذلك فإن الشروط التي يضعها الشريك أو أهله أو المحيط الاجتماعي – و أكثرها غير صحيح شرعا– يدخل الزوج– والزوجة أيضا– إلى عالم من القيود، يشل حركته، ويؤثر على معنوياته، وترى عذره بعد ذلك انه (قد تزوج)!! بينما نجد العكس تماما لدى المعصومين، فهو يتحدث عن موضوع الزواج وكأنه عمل عادي أنهاه يوم أمس.

فالإمام السجاد (عليه السلام) يسمع عن امرأة تعجبه في بعض نواحي مكة فيرسل إليها فيخطبها إلى نفسها، فتكون عنده. وتكون لديه جارية فيعتقها ثم يبيت بها زوجاً في خطوات غاية في السهولة، ولما كان كذا العمل الخالي من العقد غير مألوف لدى البعض لذلك يرسل إليه عبد

الملك بن مروان رسالة يلومه فيها على ذلك، حيث أن هذا العمل في رأي مروان يحط من مترلة الإمام الاجتماعية فيرد عليه برسالة مقنعة مفحمة، سوف نتعرض لها في الـــصفحات القادمـــة، ويتحدث عن جارية أهديت له (فهيؤوها وبت بها عروسا فعلقت بهذا الغلام- زيد-) [٩٢] وينقل عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) أن علي بن الحسين (عليه السلام) كان يتـــزوج وهـــو يتعرق عرقا، يأكل فما يزيد على أن يقول الحمد لله وصلى الله على محمد وآله ويستغفر الله عز وجل وقد زوجناك على شرط الله [٩٣].

وعندما يدخل أحدهم على الإمام الباقر (عليه السلام) يراه لابسا ثيابا مصبوغة، وقـــد جلس على الوسائد، مما لم يكن عليه يوم أمس فيتعجب من ذلك، فيوضح له الإمام الأمر قائلا: البيت بيت المرأة وأنا قريب عهد بالعرس، ثم أضاف أن عليه أن يتزين لها كما تزينت له، وعندما يلبس الثياب المصبغة بالأحمر في يوم تلك المرأة ويسأله بعض أصحابه عن ذلك يجيب: الثقفيـــة أكرهتني عليه وأنا احبها، ونحن لا نصلي فيه.. وهكذا بقي معها إلا انه عندما علم أنها تبرأ من أمير المؤمنين حاول إقناعها و لم تستجب فطلقها لأنه لا يحب أن يضم إلى نحره جمرة من جهنم، بالرغم من انه لا يخفي انه يحبها[٩٤] !!

ويسأل أحدهم الإمام الرضا (عليه السلام) قائلا: جعلت فداك اختضبت ؟! قال: نعم إن التهيئة تزيد في عفة النساء، ولقد ترك النساء العفة بترك أزواجهن التهيئة، ثم قال أيسرك أن تراها على ما تراك عليه إذا كنت على غير تهيئة ؟! فقال: لا، قال (عليه السلام): فهو ذاك.. ثم قال: من أخلاق الأنبياء التنظيف والتطيب وحلق الشعر وكثرة الطروقة.

بينما في المقابل نجدهم يركزون على اصل الكيان الزوجي وضرورة حمايته من أخطار الطلاق:

---

[92] / بحار الأنوار ج ٤٦ ص ١٨٤.

[93] / **عوالم** العلوم/ الإمام علي بن الحسين ١٥١ والعرق- بالفتح- العظم إذا أخذت من معظم اللحم وعرقت اللحم واعرقته، أخذته بأسنانك ؟ والمراد انه كان يوقع العقد وخطبة النكاح موجزا على الخوان من دون تطويل.

[94] / بحار ا لأنوار ج٤٦ ص ٢٩٣.

– فعن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): ما بني في الإسلام بناء احب إلى الله واعز من التزويج [٩٥].

وقد ورد هذا الحديث عن لسان عدد من الأئمة بألفاظ مشابهة.

– وعنه (صلى الله عليه وآله وسلم): أشيدوا النكاح و أعلنوه [٩٦].

وبقدر ما أكدت الأحاديث على تعظيم اصل الزواج، و إقامة هذا الكيان، فقد هونت جانب المقدمات، و أكدت على أنها يجب أن لا تكون عائقا أمام إقامة هذا البناء المهم.

* فقد أغفلت الاعتبارات الاجتماعية وهي لدى الناس الحاجز الذي لا يتخطاه أبطال القفز العالي!! فاعتبرت (المؤمن كفؤ المؤمنة)، وبينما يقوم الناس عادة بالنظر إلى الموقع الاجتماعي– والوظيفي– الذي يحتله راغب الزواج، فيرفض أو يجاب تبعا لهذا الموقع– من أسرة، أو وظيفة، أو غير ذلك– فإن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي عملية رافضة لهذه المقاييس قام بتزويج ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب وهي ابنة عمه ومن اشرف بيوتات قريش (بني هاشم) من المقداد بن الأسود وهو غير قرشي بل يروى انه كان عبدا، فتبناه الأسود الكندي فنسب إليه وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (المؤمنون بعضهم أكفاء بعض) و أضاف– بعد أن زوج في موقعه ضباعة من المقداد:– (أيها الناس إنما زوجت ابنة عمي المقداد ليتضع النكاح) [٩٧]، وروي أن زين العابدين (عليه السلام) رأى امرأة في بعض مشاهد مكة فخطبها إلى نفسها وتزوجها فكانت عنده وكان له صديق من الأنصار فاغتم لتزويجه بتلك المرأة فسأل عنها فاخبر أنها من آل ذي الجدين من بني شيبان، في بيت علي (شريف) من قومها فاقبل على علي بن الحسين، فقال: جعلني الله فداك ما زال تزويجك هذه المرأة في نفسي وقلت: تزوج علي بن الحسين امرأة مجهولة من الناس، ويقول الناس أيضا، فلم أزل اسأل عنها حتى عرفتها ووجدتها في بيت قومها شيبانية ؟

95/ وسائل الشيعة ج ١٤ ص ١٨٣.

96 / ميزان الحكمة ج ٤ ص ٢٧١.

97 / نفس المصدر

فقال له الإمام (عليه السلام): قد كنت أحسبك احسن رأيا ممـــا أرى!! إن الله أتـــى بالإسلام فرفع به الخسيسة وأتم به الناقصة، وكرم به من اللؤم، فلا لؤم على المسلم إنما اللؤم لؤم الجاهلية.

* وإذا كانت المبالغة في الاعتبارات الاجتماعية أحد القيود التي تمنع إقامة البناء الزوجـــي فـــان المبالغة في التكاليف المادية من مهر، وهدايا، ونفقات الزواج لا تؤدي فقط إلى منع الكثير مـــن الزواج، بل تؤدي أحيانا إلى هدم هذا البناء بعد أن يتم، أو تنكيده لذلك فقد وجه الإسلام إلى تقليل هذه الشروط. فرأى أن (خير الصداق أيسره) وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) (تياسروا في الصداق فان الرجل ليعطي المرأة " المهر الكثير " حتى يبقى ذلك في نفسه عليها حـــسيكة ((عداوة)).

ولعلنا نجد في القصة التالية الكثير من المعاني فإليها:

عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: جاءت امرأة إلى النبي (صلى الله عليه وآله وســـلم) فقالت: زوجني!! فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)- من لهذه ؟! فقام رجل، فقال: أنا يا رسول الله زوجنيها، فقال: ما تعطيها ؟! قال: مالي شيء! قال (صـــلى الله عليـــه وآلـــه وسلم): لا. فأعادت، فاعاد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الكلام فلم يقم أحد غـــير الرجل، ثم أعادت فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في المرة الثالثة: أتحسن من القرآن شيئا ؟! قال: نعم، قال: قد زوجتكها على ما تحسن من القرآن فعلمها إياه.

* أول ما نستنتجه من الرواية المتقدمة أن كثيرا من المسلمين لم يكونوا معقدين في مسألة الزواج.. وان المرأة إنما كانت تعبر عن حاجة حقيقية تجدها دون أن تختفـــي تحـــت قنـــاع ((الازدواجية)) وتمارس الحرام، وان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لم ينكر عليها ذلك، بل استجاب لكلامها وقام بتزويجها، ولو فرضنا أن هذا الحادث قـــد وقـــع في أيامنـــا في أحـــد التجمعات، لاستنكر الجميع قول المرأة: عيب!! استغفر الله، ما قلة الحياء هذه ؟. إلى أخره، مع أن الجميع بينه وبين نفسه يقرها عليه، وربما كان يقوم كما قام الرجل طالبا الـــزواج، ولكـــن ظروف المجتمع وصلت إلى درجة من الازدواجية والنفاق الاجتماعي بحيث الجميع يخفي عـــن بعضه البعض ما يشعر به كل واحد منهم!!

إن هذه المرأة تعبر- ضمن الإطار الفطري والطبيعي- عن حاجتها للزواج من دون التفات للعقد

المصطنعة.

ثم إن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يردها و لم يردعها كما يفعل البعض من المتدينين عندنا الذين يردعون أولادهم وبناهم عن الحديث في أمر الزواج ويعتبرون حديث الولد في هذه الأمور نوع من (قلة الحياء) إما حديث البنت في أنها تريد الزواج فيعتبر (الطامة الكبرى)!! ويضطر الجميع لإخفاء الرغبة أمام الوالدين ولكن.. هل تنتهي ؟!

كذلك فإن نهاية الأمر كانت الزواج على ما يحسن قراءته من القرآن يعلمها إياه.. وهكذا بنى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بناء زوجية لمسلمين غير عابئ بالعقد المصطنعة ولا بقلة المهر.

وبعد أن أمر الإسلام بتسهيل المقدمات وتقليل الشروط ونفي العقد، حاول أن يغلق طريق العودة عن الزواج، وإنهائه وذلك انه بغض الطلاق بحيث اصبح (ما من شيء ابغض إلى الله من بيت يخرب في الإسلام بالفرقة) وكما (أن الله يحب البيت الذي فيه العرس) فانه (يبغض البيت الذي فيه الطلاق وما من شيء ابغض إلى الله من الطلاق [٩٨].

تعدد الزوجات:

مما تقدم رأينا كيف أن مسألة الزواج أساساً وبالتالي تعدد الزوجات كان لدى المعصومين (عليهم السلام) أمراً عادياً ، وما نجده اليوم في مجتمعنا من تحول الزواج إلى هذا البناء المعقد، والقفص المعيق، إنما هو صنيعة أيدينا وتقاليدنا.

ولنلق نظرة على هذا الجانب من حياتهم الشخصية.

فمن الواضح أن التعدد كان أمرا ملحوظا في حياتهم الزوجية، سواء كان على شكل زيجات بعقد النكاح الدائم، أو بملك اليمين، أو بالعقد المنقطع في أحيان قليلة.

فالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ تزوج بخمسة عشر امرأة، دخل باثنتي عشر منهن وقبض عن تسع، كما عليه المشهور.

- فأما اللاتي لم يدخل بهن: فعمرة والسنا والبيضاء.

- و أما الحرائر اللاتي دخل بهن فأولاهن وأفضلهن خديجة بنت خويلد أم المؤمنين

---

98 / الوسائل ج ١٥ ص ٢٦٦.

وسودة بنت زمعة وأم سلمة (هند بنت أبى أمية) وعائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر وزينب بنت خزيمة بن الحارث (أم المساكين) وزينب بنت جحش وأم حبيبة (رملة بنت أبى سفيان) وميمونة بنت الحارث وأم شريك (التي وهبت نفسها للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)) وجويرية بنت الحارث المصطلقية وصفية بنت حيي بن اخطب.

والأخيرتان كانتا جاريتين فاعتقهما الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وتزوجهما [٩٩].

ومارية القبطية كانت عنده بملك اليمين إضافة إلى جاريتين أخريين.

وأمير المؤمنين (عليه السلام) تزوج بسبع نساء حرائر، إضافة إلى أمهات أولاد شتى بملك اليمين وينقل الحر العاملي رضوان الله عليه في وسائله زواج الإمام (عليه السلام) بالعقد المنقطع بامرأة من بني نهشل[١٠٠] أما زوجاته فأولهن فاطمة الزهراء بنت رسول الله وسيدة نساء العالمين، وأم البنين فاطمة بنت حزام بن دارم الكلابية وخولة بنت جعفر بن قيس الحنفية (أم محمد المنسوب إليها)[١٠١] وأم حبيب بنت ربيعة وليلى بنت مسعود الدارمية، وأسماء بنت عميس الخثعمية، وأم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفية، والباقي كن أمهات أولاد.

والإمام الحسن (عليه السلام) وبالرغم مما قيل عنه كثرة زوجاته حتى أوصلها بعضهم لعدم تثبته إلى ثلاثمائة!! أعد الرقم جيدا.. أوصلها بعضهم إلى ثلاثمائة، والرجل وهو أبو طالب المكي من عرف بعدم الوثاقة وعدم الضبط، إلا أن الرأي الأقرب يشير إلى عدد (١٠) زوجات عرف من الحرائر منهن أم بشير بنت أبي مسعود الخزرجية، وخولة بنت منظور الفزارية وأم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله التميمية، وجعدة بنت الأشعث بن قيس الكندية (وهي التي سمته فيما بعد) وحفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر وحيث لم يكن يستطيع أن يجمع اكثر من أربع في وقت واحد فقد كان يطلق بعضهن تبعاً لمراعاة هذا الحكم، أما بملك اليمين فهو لا يحسب ضمن قانون الأربع.

---

99 / بحار الأنوار ج ٢٢ ص ٢٠٢

100 / الوسائل ج١٤

101 / عددناها من الحرائر مع كونها من سبي بني حنيفة لأنه (عليه السلام) اعتقها وتزوجها بعد قدوم أخيها نكاحا.

والإمام الحسين (عليه السلام) تزوج بخمس نساء حرائر هن: شهربانو بنت يزدجرد[١٠٢] وليلى بنت أبي مرة بن عروة بن مسعود الثقفية والرباب بنت امرئ القيس الكلبية وأم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله التيمية وأم جعفر[١٠٣] وهي قضاعية.

أما الإمام السجاد (عليه السلام) فقد تزوج بسبع نساء، أولاهن أم الحسن بنت الإمام الحسن (عليه السلام) وهي أم الإمام الباقر (عليه السلام) والست الباقيات أمهات أولاد .

والإمام الباقر (عليه السلام) تزوج بأربع نساء على الأشهر: أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، وهي أم الإمام الصادق (عليه السلام)، والثانية أم حكيم (أو أم علي) الثقفية التي فارقها بعد مدة قصيرة كما سيأتي، والأخريان من أمهات الأولاد.

أما الإمام الصادق (عليه السلام) فقد كان لديه فاطمة بنت الحسين بن الحسن السبط (عليه السلام)، والباقي أمهات أولاد، أولاهن حميدة المصفاة والدة الإمام الكاظم عليه السلام.

و لم يؤثر عن الإمام الكاظم (عليه السلام) الذي كان له من الولد (٣٧) ولدا، انه تزوج من غير أمهات الأولاد، إلا أن أفضلهن كانت (سكن) أو (تكتم) والدة الإمام الرضا (عليه السلام).

بينما كان لدى الإمام الرضا (عليه السلام) من أمهات الأولاد خيزران المريسية من بيت مارية القبطية زوجة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهي أم الإمام الجواد (عليه السلام).

الإمام الجواد (عليه السلام) كان لديه من الحرائر أم الفضل بنت المأمون العباسي ومن أمهات الأولاد سمانة المغربية والدة الإمام الهادي (عليه السلام).

وأما الإمام الهادي فلم يكن له إلا زوجة واحدة وهي أم ولد اسمها (حديثة) أو سليل، أنجبت له الإمام العسكري (عليه السلام) وأولاده الأربعة الآخرين، وكذلك كان الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) حيث لم يكن له إلا أم ولد وهي (نرجس) أم الإمام المنتظر (عج).

**"

---

[102]/ إنما قلنا أنها أولى الحرائر لأن أمير المؤمنين كان قد اعتق نصيبه ونصيب بني هاشم في سبي الفرس، فاعتق على الأثر المسلمون نصيبهم، فأعتقت شهربانو ثم تزوجها الإمام الحسين (عليه السلام). عن البحار ج ٥ ٤ ص.٣٣

[103] / تقدم أن (أم الولد): يطلق على الجارية التي تكون تحت رجل بملك اليمين وتنجب له فتنعتق بموته.

ما الذي يدعو المعصومين عليهم السلام إلى إرساء التعدد في الزوجات بحيث لا يستثنى من هذا الأمر إلا الإمام الهادي (عليه السلام) وبحيث يخرج عن المتعارف في زماننا في التعدد الذي لا يتجاوز الثلاث في العادة، مع ملاحظة عدم إمكانية الزواج بملك اليمين ؟!

إننا نعتقد أن المسألة لها ثلاثة جوانب:

١- الجانب السياسي.

٢- الجانب الاجتماعي.

٣- الجانب الشخصي.

* في الجانب السياسي:

من المتعارف عليه أن أحد طرق التحالف السياسي كان يتم عبر التزواج،وهذا الأمر لم يكن مقصورا على أهل البيت (عليهم السلام)، بل إن الكثير من الناس في تلك العصور كانت تعقد فيما بينها الصلات عبر التزاوج والتناسب بالتالي.

وقد كانت قرابة النسب وعلاقة السبب الزوجية آنئذ من أهم العلاقات،فان يتزوج إنسان من قبيلة ما فانه يعتبر أحد أفراد تلك القبيلة، ويصبح محميا بقوتها، وتشعر القبيلة بشكل طبيعي أن عليها نصرته والتعاون معه.

ولذلك وجدنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يستفيد من هذه المعادلة، واستطاع عبر زواجه من كثير من النساء من قبائل مختلفة أن يضمن ولاء تلك القبائل أو على الأقل أن يكف شرها عنه وعن دعوته. كما انه تألف قلوب آخرين بزواجه منهم فان زواجه بصفية بنت حيي بن اخطب جعل جمعاً من قومها من اليهود يقبلون على الإسلام، وقد جاء زواجه (صلى الله عليه وآله وسلم) من عائشة ولم تكن حين تزوجها قد بلغت مبلغ النساء، إذ كانت بنت سبع سنين، ولم يدخل بها إلا بعد سنتين وعشرة اشهر في المدينة، جاء هذا الزواج ليجمع أباها (أبا بكر) إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

وأحياناً يكون الأمر بالعكس تماما إذ تكون المصلحة السياسية قاضية بقبول الزواج من امرأة ليست في مستوى المعصوم، فيقبل على هذا الزواج بملاحظة تلك المصلحة تماما كما نجد في حادث زواج الإمام الجواد من ابنة المأمون أم الفضل إذ كان عدم القبول بهذه المصاهرة التي فرضها المأمون، يعد موقفا سلبياً، وفيه من خلاف المصلحة ما لا يخفى.

وقد كان أهل البيت (عليهم السلام) يترلون هذا الزواج (السياسى) بمقـــداره ومترلتـــه ضمن إطاره السياسي، ونحن لا نعلم سبب عدم الإنجاب في زيجات سياسية كهذه، وهل أنـــه كان بسبب غيبي محض، أم بإرادة المعصوم بالرغم من كون تلك النساء مـــؤهلات– حـــسب المقاييس الظاهرية للإنجاب– إلا أننا نعلم أن دور هذا الزواج السياسي يقف عند حد معين، وان الزوجة فيه ما لم تثبت جدارهّا بزوجية المعصوم فإنها تبقى على هامش حياته الحقيقية حتى وان استأثرت باهتمامه الزوجي، وقد أشرنا في صفحات سابقة إلى هذا الموضوع فلا نعيده.

* الجانب الاجتماعي:

في هذا الجانب يلحظ أن أهل البيت (عليهم السلام) كانوا يهدفون إلى تكثير نـــسلهم الطاهر نظراً لما سيقوم به هذا النسل من مسؤوليات كبيرة في إصلاح أوضاع الأمة، وبـــالرغم من أن الإمامة كانت محصورة في أشخاص محددين من نسل الإمام الحسين (عليه السلام)، إلا أن وجود هذا العدد من الأولاد كان مساعدا في نشر علوم أهل البيت، وفي تحمل هؤلاء لمسؤوليات التغيير والثورة واحداً بعد الآخر.

ولو ألقينا نظرة على أعداد أبناء الأئمة (عليهم السلام) ثم تتبعنا أدوارهم التاريخية لاتضح لنا الأمر المذكور. فقد ولد للإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) سبعة وعشرون من بينهم اثنا عشر ذكرا، وللإمام الحسن (عليه السلام) خمسة عشر منهم ثلاثة عشر ذكرا ومعروف أن أبناء الإمام الحسن وأحفاده كانوا حملة راية الثورة المسلحة في تاريخهم وولد للإمام الحسين (عليه الـــسلام) ستة أولاد منهم أربعة ذكور، وللسجاد (عليه السلام) خمسة عشرة منهم أحد عـــشر ذكـــرا، وللباقر (عليه السلام) سبعة أولاد منهم خمسة ذكور، وللصادق (عليه السلام) عشرة أولاد منهم سبعة ذكور، وعلى الرغم من طول فترات سجن الإمام الكاظم (عليه السلام) إلا انه ولد لـــه سبعة وثلاثون ولدا منهم ثمانية عشر ذكرا، ونحن نجد حتى اليوم الغالبية من السادة العلويين هم موسويون ينتهي نسبهم إلى الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام). وولد للإمام الرضا (عليـــه السلام) ستة أولاد منهم خمسة ذكور، بعد أن كان مخالفوه يشككون في إمامته حيث انه لم يولد له ولد إلا متأخرا كما سيأتي، وولد للإمام الجواد (عليه السلام) خمسة أولاد بينـــهم ذكـــران، وللهادي (عليه السلام) خمسة أولاد منهم أربعة ذكور و لم يولد للحسن العسكري (عليه السلام) سوى الحجة المنتظر (عج) .

إن من الطبيعي أن يسعى أهل البيت (عليهم السلام) لتكثير نسلهم وأولادهم، وذلـــك لمواجهة شيء من حملات التصفية التي ستطالهم في المستقبل، ولتعويض ما يذهب مع المسؤوليات الجسام من قتال وثورة وما تتبعه من سجن وتشديد، حتى لقد ألف الكتاب كتبـــاً في مقاتـــل الطالبيين والهاشميين، وحتى اشتهر عنهم انه ما منهم إلا مسموم أو مقتول.

ولطالما دعوا المؤمنين لتكثير النسل المؤمن، إذا كان كذلك فهم أولى بتطبيق هذه الدعوة على أنفسهم.

فعن أمير المؤمنين (عليه السلام): ما سألت ربي أولاداً نضر الوجه، ولا سألته ولداً حسن القامة ولكن سألت ربي أولاداً مطيعين لله وجلين منه حتى إذا نظرت إليهم قرت عيني [١٠٤].

وعنه (عليه السلام): الولد أحد العددين.

ولذلك نجد انه عندما توفيت فاطمة الزهراء عليها السلام، قال لأخيه عقيل وكان نسابة يعرف انساب العرب، اخطب لي امرأة ولدها الفحول لتلد لي غلاما يكـــون ناصـــراً لابـــني الحسين.. فاشار عليه بأم البنين فاطمة بنت حزام الكلابية وكان آباؤها وأجدادها من أبطـــال العرب المعروفين بالشجاعة.

وعن الإمام زين العابدين (عليه السلام):(من سعادة الرجل أن يكون له ولد يـــستعين بهم) .

وعن الإمام الرضا (عليه السلام): (إن الله إذا أراد بعبد خيراً لم يمته حتى يريه الخلف)[١٠٥]

وروى عيسى بن شيخ، قال دخل الحسن العسكري (عليه السلام) علينا الحبس وكنت به عارفاً فقال لي: لك خمس وستون سنة فكان كما قال، ثم قال هل رزقت ولدا ؟! فقلت: لا، فقـــال: اللهم ارزقه ولدا يكون له عضدا فنعم العضد الولد.. ثم تمثل قائلاً:

من كان ذا عضد يدرك ظلامته إن الذليل الذي ليست له عضد

فقلت له: ألك ولد ؟!

قال: إي والله سيكون لي ولد يملأ الأرض قسطا وعدلا فأما الآن فلا..

ثم قال:

---

104 / بحار الأنوار ج ١٠١ ص ٩٨

105 / الوسائل ج ١٥ ص ٩٦.

لعلك يوما أن تراني كأنما بني حوالي الأسود اللوابد
فان تميماً قبل أن يلد الحصى أقام زمانا وهو في الناس واحد

وبالطبع فان تعدد الزوجات يتيح فرصة اكبر لتكثير الإنجاب وحسن رعايتهم، ذلك أن الإنجاب إذا كان متعدداً ومتتالياً من امرأة واحدة ينهكها ولا يسمح لها بحسن الرعاية والتربية.

* الجانب الشخصي:

قد تقدم الحديث فيه أن المعصومين (ع) باعتبار جانبهم البشري، وان هذه من اللذة التي أباحها الله بل خلقها لأوليائه المؤمنين على سبيل الأولوية بالنسبة لسائر الناس. وهي من ابرز مصاديق (أو لذة في غير محرم).

وأهل البيت (عليهم السلام) وهم يعيشون بين الناس كبشر لهم من الرغبات والشهوات ما للناس العاديين بخلاف من يرى فيهم انهم (عليهم السلام) أنصاف آلهة، أو أشباه ملائكة كانوا يمارسون هذه الرغبات والشهوات في إطرها المحللة، ولا يضير ذلك عظمتهم أو أهمية دورهم بل هو أحد معالم الشخصية المتميزة لهم، في حياتهم.

الزوجات الإماء:

ثمة ظاهرة تستوقف المراقب في حياة أهل البيت (عليهم السلام) الزوجية، تلك هي الزوجات الإماء الجواري أو حسب المصطلح (أمهات الأولاد) ذلك أننا نجد أن زوجات الأئمة (عليهم السلام) بدءا من الإمام الصادق (عليه السلام) ممن قدر لهن أن يصبحن أمهات الأئمة كن جواري مملوكات!!

فأم الإمام الكاظم (عليه السلام) حميدة المصفاة وهي جارية اشتراها الإمام الصادق (عليه السلام) وكانت عنده بملك اليمين، وأنجبت له عددا من أولاده أفضلهم الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) ، وزوجة الإمام الكاظم (عليه السلام) كانت جارية تسمى تكتم، أنجبت له الإمام علي بن موسى الرضا(عليه السلام) ، وهكذا الحال فالإمام الرضا (عليه السلام) تزوج من جارية تسمى خيزران المريسية أنجبت له الإمام محمد بن علي الجواد(عليه السلام) ، ثم الجواد (عليه السلام) تزوج من سمانة المغربية أنجبت له الإمام الهادي (عليه السلام) الذي لزوج بدوره من سليل أو (حديث) والتي أنجبت له الإمام الحسن العسكري، و أخيراً فان أم الإمام المهدي (عج) وزوجة الإمام العسكري(عليه السلام) أيضا جارية تسمى (نرجس). أي أننا نجد أن ستة

من أهل البيت كانوا قد تزوجوا بجواري تملكوهن عبر الشراء، وقد يكون الأمر هينا لو اقتصر على مجرد الزواج للاستمتاع، فهذا أمر يفعله الكثير، ولكن أن يكون هذا الزواج بقصد الإنجاب، وان يخرج ستة من الأئمة (عليهم السلام) من أرحام هؤلاء النسوة فهو أمر مثير للتساؤل، والملاحظة، خصوصا إذا رجعنا إلى بداية هذا الفصل وأعدنا إلى الذهن تأثير الوراثة، والرأي الذي اخترناه في طهارة آباء المعصومين (عليهم السلام) وأمهاتهم أيضا، إضافة إلى ما نعرفه من توجيهات الأئمة أنفسهم بضرورة الاختيار المناسب للزوجة، فإن الخال أحد الضجيعين، إضافة إلى مجموعة الاعتبارات الاجتماعية التي تراعى عادة في مثل هده.

لا يبدو أن الأمر كان خاضعاً للصدفة، وعدم الملاحظة، إذ قد يحدث ذلك في حالة أو حالتين، أما بهذه الصورة التي نراها فالأمر يبدو مقصودا أو على الأقل منتبها إليه فما هي الأسباب التي تقف وراء هذه الظاهرة ؟!

عندما نتأمل في الروايات التي تتعرض لهذا الموضوع، نجد الأمور التالية تترافق معه:

ا- إلغاء الاعتبارات الاجتماعية الخاطئة:

إن كلمة (ليتضع النكاح) تواجهنا في اكثر من مورد، وهي تبين فلسفة هذا العمل الذي يقوم به المعصومون (عليهم السلام). ذلك أن الإسلام عندما جاء إلى المجتمع العربي كان هذا المجتمع قد ثبت مجموعة من العادات والأعراف كقوانين يجري عليها المجتمع جيلاً بعد جيل. فالأعراف المتعلقة بالعبيد والإماء، بما فيها من حيف وظلم وإلغاء لإنسانية هؤلاء البشر، كانت قد تحولت إلى قانون لا يخرقه إلا من يوصف عندهم بالشذوذ، والفوارق التي ثبتت بين القبائل من كون هذه القبيلة أعلى وتلك أدنى، عبر مفاخرات الشعراء، كانت قد تحولت إلى آيات مقدسة لا يرتاب فيها أحد. وليس غريبا أن تجد الشخص عديم الكفاءة في نفسه، ودني الخلق في سلوكه، ولكنه يبقى الأفضل لأنه من هذا البطن من قريش!!

عندما جاء الإسلام بتعاليمه السامية وضع حداً- من الناحية النظرية- لهذه الاعتبارات والتقاليد وألغاها سواء بالتوجيه إلى تساوي البشر في مصدر الخلق، والعبودية لله سبحانه أو بجعل مقاييس جديدة في الأفضلية لا تعتمد على الجنس واللون والقبيلة بل تعتمد على الكفاءة والجهد البشري الخاص بالفرد.

إلا أن السياسات الخاطئة بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وصعود بني أمية على

دفة السلطة السياسية في الأمة، أعاد المسألة جذعة، وأرجع الحاضر الى التاريخ الجاهلي، فإذا بنار العصبيات تشتعل وأي اشتعال!! وإذا بشعر المنافرات والمفاخرات ينبعث ماردا من قمقمه، وإذا بتلك التقاليد والاعراف الجاهلية تعود من جديد!!

فالمسلم الموحد صاحب الكفاءة، والمخلص لاعلاء كلمة الدين، يبعد من الساحة، لا لشيء إلا لأنه (مولى) أو(أعجمي)، وحتى قال قائلهم لأمير المؤمنين (عليه السلام): غلبتنا هذه الحمـــراء عليك يا أمير المؤمنين، فلو طردهم !! وحتى منع غير العرب من الدخول الى المدينة !! وحـــتى اصبح في المسلمين طبقة جديدة تسمى (الموالي) والحمراء وغير ذلك !!

" لقد كان مفروضا ان يكون هؤلاء الموالي في منزلة اجتماعية تتساوى – من الناحية الانـــسانية على الأقل– مع منزلة العرب وذلك وفقاً للمبادىء الديمقراطية التي جاء بها الاســـلام واعلنـــها الرسول في خطبة الوداع المشهورة وهي تلك المبادىء التي تجعل تمايز الناس لا على اساس مـــن الاصل أو الحسب وإنما على اساس من التقوى، ولكن المثالية شيء، والواقع شيء آخر فلم يكد ينقضي عهد الخلفاء الراشدين ويودع المجتمع الاسلامي علي بن ابي طالب الذي يروى انه كان (لا فضل لشريف على مشروف ولا عربياً على اعجمي) حتى اخذ العرب في العصر الامـــوي ينظرون للموالي نظرة السيد للعبد، ومضوا يعاملونهم لا تلك المعاملة الاسلامية الرقيقة التي امرهم بها الله ورسوله وإنما معاملة اقل ما توصف به انها بعيدة عن روح الاسلام السمح ومجانبة لمبادئه الإنسانية السامية فقد كانوا يرونهم جنساً منحطاً لا يمتاز عن العبيد إلا قليلاً أو كما يقول شبث بن ربعي احد افراد الارستقراطية الكوفية البارزين: فيئا افاءه الله عليهم، وقد وصل الأمر ببعض العرب الى درجة انهم كانوا يرون الصلاة خلفهم تواضعا لله بلى لقد وصل الأمر بالشعبي قاضي الكوفة في خلافة عمر بن عبد العزيز الى التصريح بأن الموالي قد بغضوا اليه المسجد حتى تركوه ابغض اليه من كناسة داره. ولهذا لا نجد غرابة عندما نسمع في حوالي منتصف القرن الثاني عن مسجد في الكوفة يسمى (مسجد الموالي) الذي يميل " خدا بخش" الى الظن بانهم اضـــطروا الى تأدية صلواتهم فيه بعد ان رأوا تعصب العرب ضدهم لم يكن يسمح لهم حتى بالعبادة في مسجد واحد "[١٠٦] .

وطعن الإسلام من الخلف، حيث أصبح من يتزيا بلباس الدين، بل من يلبس رداء الخلافة ويخالفه

[106] / حياة الشعر في الكوفة ١٦٩/ د. يوسف خليفة

في ابسط قواعده في المساواة، والاعتبار الواحد. وكان الرد على هذه التحولات يحتاج إلى عمل، إضافة إلى التوجيه وكما قام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بفعل ذلك في مسألة زواج زيد بن حارثة مولاه بزينب بنت جحش ابنة عمته، وزيد كان غلام رسول الله ومولاه، بينما كانت زينب بنت جحش قد حازت المجد العائلي من طرفيه فهي اسدية الاب وهاشمية الام. ومع ذلك زوجها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) (ليتضع النكاح)، أي لكيلا تصبح هذه الاعتبارات الاجتماعية عقدة عند الناس يمتنعون من زواج بعضهم البعض تبعا لها.

ونحن نجد في النص الذي يروى عن الإمام السجاد (عليه السلام) تصريحا بهذا المعنى، ذلك ان الإمام السجاد (عليه السلام) كان قد اعتق احدى جواريه وتزوجها، ونظرا لكون الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان لا يزال يعيش في جو الاعتبارات التي تحدثنا عنها، فقد وجدها فرصته في الطعن على الإمام (عليه السلام).

فعن يزيد بن حاتم قال: كان لعبد الملك بن مروان عين بالمدينة يكتب اليه باخبار ما يحدث فيها، وان علي بن الحسين (عليه السلام) اعتق جارية له ثم تزوجها، فكتب العين بذلك الى عبد الملك، فكتب عبد الملك إلى علي بن الحسين (عليه السلام):

أما بعد فقد بلغني تزويجك مولاتك، وقد علمت أنه كان في اكفائك من قريش من تمجد به في الصهر و تستنجبه في الولد فلا لنفسك نظرت ولا على ولدك ابقيت.. والسلام.

فكتب إليه علي بن الحسين (عليه السلام): أما بعد فقد بلغني كتابك تعنفني بتزويجي مولاتي وتزعم انه قد كان في نساء قريش من أمجد به في الصهر واستنجبه في الولد.. وانه ليس فوق رسول الله مرتقى في مجد ولا مستزاد في كرم وإنما كانت ملك يميني خرجت مني- أراد الله عز وجل- بأمر التمست به ثوابه ثم ارتجعتها على سنته ومن كان زكيا في دين الله فليس يخل به شيء من امره وقد رفع الله بالإسلام الخسيسة وتمم به النقيصة واذهب اللؤم، فلا لؤم على امرىء مسلم إنما اللؤم لؤم الجاهلية.. والسلام.

فلما قرأ الكتاب رمى به الى ابنه سليمان فقرأه فقال: يا امير المؤمنين لشد ما فخر عليك علي بن الحسين!! فقال له يا بني لا تقل ذلك فانها ألسن بني هاشم التي تفلق الصخر وتغرف من بحر.. ان علي بن الحسين يا بني يرتفع من حيث يتضع الناس [١٠٧].

---

107 / بحار الأنوار ج ٤٦ ص ١٦٤.

فانظر إلى الفرق بين منطق التمييز الجاهلي ومنطق المساواة الرسالي.

٢- كنّ مؤهلات لاحتضان الأئمة:

الذي ثبت في التاريخ ان هؤلاء الجواري كن نجيبات ومنجبات، فقد سبق وان بينا في فصل تعدد الزوجات، انه كان للمعصومين (عليهم السلام) زوجات عديدة بين جواري وحرائر إلا أننا نلحظ أنه بدءا عن أيام الصادق (عليه السلام)، كانت الزوجات الاثيرات والنجيبات والمنجبات للأئمة كانت الجواري مع وجود الحرائر وبعضهن ممن يتمتعن بمجد عائلي متميز- حسب المقاييس السائدة آنئذ- إلا أن هؤلاء الجواري هن اللاتي اختصصن باحتضان الائمة المعصومين (عليهم السلام).

يضاف إلى ذلك أن علينا ان نتوجه جيداً الى معنى (الجواري) فان المتبادر منها عن الناس ، يمثل المعنى الحقيقي لهذه الكلمة. ذلك ان المتبادر الى الذهن عن الجواري هو تلك الاماء الزنجيات الممتهنات بالعمل، والخادمات اللاتي لا أخلاق عالية لهن، أو تلك النساء اللاتي ينتقلن من حضن إلى اخر للمتعة والجنس، وهذا التبادر وان كان واردا إلا أنه من باب الشائع في كتب الأدب ، لا أن كل الجواري كن على هذه الشاكلة، فإننا نجد ان الكثير من هؤلاء النساء كن من بيوت شريفة في مجتمعاتهن ولكن تبعاً لظروف الحرب وما تجر من سبي للنساء، فلم يكن هذا السبي يميز بين ذوي البيوتات الرفيعة أو غيرها، بل ربما كانت نساء البيوت الرفيعة اجتماعياً اقرب الى السبي والغنيمة من غيرها، نظرا لكون رجال هذه البيوت يشكلون القادة السياسيين أو العسكريين في المجتمعات التي فتحت على يد المسلمين، فكان هؤلاء الرجال يقتلون أو ينهزمون في هذه الحروب بينما. تؤسر نساؤهم وبناتهم ويؤخذن على شكل غنائم وجواري. ولعلنا نجد في قصة ابنتي يزدجرد مصداقاً واضحا لهذا المعنى، ذلك إن جيوش المسلمين عندما دحرت جيوش الفرس واستولت على ايران ساقت من الغنائم الشيء الكثير، وكان من بين ذلك النساء اللاتي سبين وحسب العرف المتبع فانهن يسترققن ويدخلن في ملك المسلمين إلا ان امير المؤمنين (عليه السلام) كما تقدم بين ان هاتين البنتين من بنات الملوك. وتبعاً لتوجيه الإسلام باكرام اهل الكرم الذين خانهم الزمن [١٠٨]، فاعتق نصيبه ونصيب بني هاشم فيها فاعتق المسلمون تبعا لذلك

[108] / جاء في الحديث: اكرموا ثلاثة وحق لهم ان يكرموا : غني افتقر بعد غناه، وعزيز قوم ذل، وعالم ضاع بين جهال.

نصيبهم، وخيرهما الإمام فاختارت احداهما الإمام الحسين (عليه السلام) واصبحت فيما بعد ام الإمام السجاد (عليه السلام) وماتت في نفاسها به، والاخرى اختارت محمد بن ابي بكر فانجبت القاسم بن محمد بن ابي بكر، ويقول المؤرخون ان الناس كانوا يرغبون عن استملاد الجــواري خشية من ان يكون النسل غير نجيب، حتى ولد زين العابدين (عليه السلام) والقاسم بن محمــد بن ابي بكر فرأى ، الناس في الأول أفضل الناس بعد ابيه علماً ومعرفة وتقوى، ورأوا في الثــاني فقيها من كبار الفقهاء، فرغبوا في استيلادهن.

بل ربما يقال ان عوامل الوراثة ستكون في خدمة هذا المولود الناتج بين عنصرين إذ أثبت العلماء ان العادة، أن يحمل المولود خلاصة ايجابيات ونقاط قوة كل من العنصرين (الفارســي والعربي في المثال).

ولعل الأحاديث التي توجه الى التزاوج خارج العائلة الواحدة والاختيار مــن العوائــل الاخرى باعتبار ان ذلك (انجب للولد)، واقوى لصحة جسمه، ولمدركاته العقلية، لعــل هــذه الأحاديث تشمل التزاوج مع الاجناس الاخرى بوحدة المناط فتؤيد ما ذكر آنفا.

ونلمس هذا الأمر بوضوح حينما نجد ان المعصومين من اهل البيت (عليهم السلام) ممن كانت امهاقم جواري كانوا في أعلى درجات العلم " والمعرفة (الجانب العقلي) والتقوى والاتزان (في السلوك)، بل كانوا في ازمنتهم (أئمة) بكل معنى الكلمة ولا نستطيع ان نجد لأحدهم زلــة في قول او خطلة في فعل، وهذا إضافة إلى العصمة التي نفترضها فيهم (عليهم السلام) يهدينا انه لم تكن آثار سلبية في حياقم نتيجة الوراثة من امهاقم، ومما يدل على ان امهاقم كن في مــستوى عال من التدين والاخلاق، وقد مر بحث هذا الجانب في مقدمة الفصل.

ولنأخذ مثالا واحد هو (نرجس) ام الإمام المنتظر (عليه السلام) والمعروف ظاهرا الهــا جاريــة اشتريت للإمام الحسن العسكري (عليه السلام) إلا ان الواقع يشير إلى الها كانت من نسل يوشع بن نون، ومن اسرة عريقة وكريمة في الروم إلا الها اسرت على يد المسلمين وبيعت علــى الهــا جارية [١٠٩].

---

[109] / بحار الأنوار ج ١ ٥ ص ٦.

٣- مكافأة الزوجة للزوج ليست شرطاً :

لو نظرنا إلى الأحاديث التي تبين صفات الزوجة المطلوبة شرعاً ، لوجدنا انها لا تشترط مكافئة الزوجة للزوج وكونها من طبقة واحدة معه، وهذا فرع عن ما سبق وان قلناه في الغاء الاعتبارات الاجتماعية.

وهذا يعني ان ما قيل من كون زوجات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وبالتالي (امهات المؤمنين) افضل النساء وانه (لم يكن على وجه الأرض خير منهن) كما عن الفخر الرازي وعليه البعض غير ثابت لا تأسيساً ولا يثبته التاريخ من خلال سيرتهن. وإذا كانت خديجة بنت خويلد من سيدات نساء الجنة الاربع كما تقدم في حديث سابق ، لذلك إنما اثبت لورود النص بشأنها ولا يتعدى الى غيرها إلا بدليل ولا دليل هنا.

هذا إضافة الى ما سيأتي ذكره من اتهام القرآن الكريم لهن بأن بعضهن قد مالت قلوبهن عن الحق وتظاهرن على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وانه هددهن بالطلاق، واعتزلهن بالفعل مدة من الزمن، وسيأتي تحت عنوان (الزوجات المخالفات).

والحديث المشهور (المؤمن كفوء المؤمنة) ليس فقط لا يدل على ضرورة المكافئة بل يدل على عدمها فهو يلغي الاعتبارات الاخرى ويرى ان الايمان هو بذاته كفاءة كافية للزواج من المؤمنة، كما انه يثبت كفاءة المؤمن قبل ان نتحدث عن مكافئة المؤمنة له.

وهذا وإن كان غير واضح في ما بين افراد الناس العاديين، إلا انه اجلى من الشمس فيما يرتبط بالانبياء (عليهم السلام) والاوصياء. فالنبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) تزوج بخمس عشرة امرأة بينهم خديجة بنت خويلد، إلا انه لا توجد واحدة منهم يدعى لها مكافأة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كيف وهو افضل الخلق ؟! قصارى ما يمكن ان يقال في هذا المجال هو قربهن من مصدر الاخلاق الكبرى، والسعيدة منهن من اقتبست من انواره نوراً. إلا انه لا يمكن القول بمكافأة احداهن له (صلى الله عليه وآله وسلم). وهكذا الحال بالنسبة إلى الأئمة (عليهم السلام) [١١٠] وهذا لعله يفسر كلام الإمام الهادي (عليه السلام) المروي عنه: (لو لم

[110] / هذا باستثناء فاطمة الزهراء (عليها السلام) التي ورد في شأنها حديث خاص حيث روي انه لولا علي لم يكن لفاطمة كفوء .

يزوجنا إلا كفوء لنا لم يزوجنا احد)[111] .

وبناء على ذلك فلا الجواري يكافئن المعصومين (عليهم السلام) ولا الحرائر، لاننا نعتقد بافضلية هؤلاء قطعاً على أولئك. ولذا فلا فرق في كون الزوجة جارية أو حرة بالنسبة للمعصوم لأن كلتيهما لا يكافئانه. إلا من استثنى كما تقدم. هذا إضافة إلى ما تقدم من المعنى الذي اخترناه في تعريف الجواري.

الزوجات المخالفات والمتخالفات:

وهناك ظاهرة أخرى يلحظها المؤرخ لحياة اهل البيت عليهم السلام وهي وجود الزوجات المخالفات لهم في العقيدة والثقافة، فنحن نلاحظ جعدة بنت الاشعث زوجة الإمام الحسن (عليه السلام) وهي لم تكن غير موافقة له فحسب بل انها اقدمت على سمه وقتله استجابة لمؤامرة معاوية بن ابي سفيان، ويكفي لمعرفة مقدار الخلاف الذي كانت عليه هذه المرأة مع الإمام أنها دست اليه السم.

كما أننا نجد في حياة الإمام السجاد والباقر (عليهما السلام)[112] أنه كان لهما زوجتان شيبانية وثقفية [113]، وكان الإمام الباقر يحب زوجته الثقفية- كما تقدم في صفحات سابقة إلا انهما كانتا على رأي الخوارج، وكانتا تبرءان من امير المؤمنين (عليه السلام) فطلقاهما والأمر نفسه نجده في حياة الإمام الجواد (عليه السلام) حيث كانت أم الفضل بنت المأمون زوجة الإمام الجواد (عليه السلام) وكانت شديدة الغيرة من أم الرضا (عليه السلام) وهي جارية، وكانت لا تكتم مخالفتها لزوجها عن ابيها المأمون.

والذي يظهر أن هذا الأمر لم يكن خاصاً بالأئمة المعصومين (عليهم السلام) فحسب بل كان بلاء الأنبياء عليهم السلام إذ أننا نقرأ في القرآن آيات تشير الى هذه المسألة، ففي سورة

---

111 / بحار الأنوار ج ٥٠ ص ١٧٨.

112 / وسائل الشيعة ج ١٤ ص ٤٣٥.

113 / كذلك **يروى انه كان للإمام الحسن (عليه السلام) زوجة ثقفية ايضا كانت تبرأ من** امير المؤمنين (عليه السلام) فطلقها.

التحريم: (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين مـــن عبادنـــا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين)[١١٤].

ولا يعني بقوله (خانتاهما) الخيانة الزوجية كما قد يتبادر الى بعض الاذهان فذلك أمر نزه الله انبياءه من ان يبتلوا به في زوجاتهم إنما يعني خالفتاهما في العقيـــدة والـــدين. فقـــد ورد ان خيانتهما كانت نفاقهما واخفاؤهما الكفر وتظاهرهما على الرسولين، فامرأة نوح قالت لقومه انه لمجنون وامرأة لوط كانت تدل على نزول ضيف ابراهيم ولا يجوز ان تكون خيانتهما بالفجور، وعن ابن عباس انه ما بغت امرأة نبي قط، وقيل خيانتهما في الدين[١١٥] .

وكذلك ما تشير اليه الآيات المباركة في سورة التحريم:

(وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ {٣/٦٦} إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ {٤/٦٦} عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَـــاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا {٥/٦٦} .

فإنها تشير الى تواطؤ زوجتي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عائشة وحفصة علـــى مارية القبطية أم ابراهيم في قضية العسل، او في كون الرسول عندها في يوم احداهما.. وعلـــى اختلاف الروايات فان القدر المحصل هو كونهما في حالة تظاهر وافشاء سر من اسراره، وترتيب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) اثر الغضب على تلك الحالة وهجرانه لنسائه وتهديده اياهن بالطلاق. بل والتعريض بهما بتمثيل موقفهما بموقف امرأتي نوح ولوط [١١٦]. وفي هذا الموضوع ايضا نعيد الى الذهن ما تم بحثه في مسألة التعدد من كون السبب السياسي واحداً من الاسباب

---

114 / سورة التحريم، الآية ١٠.

115 / التفسير الكبير للرازي ج ٣٠ ص ٥٠.

116 / سورة التحريم آية ٣- ٥.

التي ادت الى هذا الأمر، فالزواج لهذا الغرض يبقى معرضا لعدم التوافق، إذ ان الزوج ينظـــر الى تلك المصلحة قبل ان ينظر الى الزوجة، فالمقصود من قبله هو اصل الارتباط بهذه الجهـــة عـــبر الزواج قبل النظر الى من تكون الزوجة، وقد مر بحث هذا الجانب سابقا، اضافة الى ان الزوجة- في مثل هذا النوع من الزواج- لا تعرف للزوج قيمته الحقيقية، فقد وجدنا ان احترام بعـــض الزوجات للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) اقل من احترام الكثير من الرجال والنساء مـــن المسلمين، وهكذا الحال بالنسبة الى المعصومين (عليهم السلام)، وإلا فكيف يمكن تفسير شكوى بعض زوجاته (صلى الله عليه وآله وسلم) عليه لدى آبائهن ؟! وهو (صلى الله عليـــه وآلـــه وسلم) افضل الخلق، وانزه الخلق، واكرم الخلق ؟

إن ذلك ما كان ليتم من قبل امرأة تعرف قدر الرسول أو الإمام، ولذلك وجـــدنا انـــه عندما حصلت تلك المرأة.. كيف وقرت الرسول حتى اصبحت (سيدة نساء قومها).

وكذلك فإن التقاء هؤلاء الزوجات بالرسول والمعصومين عليهم السلام وارتباطهن بهم برابط الزواج لا يعني اعطاء (كارت) صلاح نهائي لهن، وإنما قصارى ما يعني هو توفر الامكانية لهن ليصبحن عظيمات، وكبيرات القدر، ذلك ان الإنسان بمقدار ما يقترب من مصدر النـــور، يستضيء به في طريقه إذا كان ذا قابلية وقلب واع وإلا فإن مجرد كون الرجل أو المرأة قـــريبين من الرسول لا يحتم أن يكونا صالحين، فضلا عن (افضل الخلق)، فإننا كما وجدنا في صـــحابته (صلى الله عليه وآله وسلم) كعلي (عليه السلام)، وسلمان، والمقداد، وجدنا أيضاً منافقين اشار اليهم القرآن الكريم بقوله (ومن حولك منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق) هذا وهم يسمعون حديث الرسول ويختلطون معه وينظرون اعماله وسنته!!

ونحن إنما نفترض عصمة المعصومين (عليهم السلام) لا عصمة من يـــرتبط بهـــم مـــن الزوجات.

ولو تأملنا في سيرة تلك الزوجات نجد بينهم حالات من التغاير، والتخالف كما ينقلها التاريخ.

فبين أم المؤمنين عائشة وبين أم حبيبة نزاع الى درجة التشفي بالمصيبة فقد ارســـلت أم حبيبة بنت ابي سفيان زوجة الرسول كبشاً مشوياً لعائشة بعد مقتل محمد بن ابي بكر في مـــصر وحرقه في جلد حمار، وذلك لاعتقاد أم حبيبة باشتراك محمد في قتل عثمان. فقالت عائشة: قاتل

الله ابنة العاهرة والله لا أكلت شواء ابداً .

وقد نقل التاريخ أن بعض زوجاته (صلى الله عليه وآله وسلم) اخذقمن الغيرة من مارية عندما ولدت ابراهيم لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، بل وكان بينهن معارك!! ففـي الاجابة: ان عائشة: اخذت برأس سودة بنت زمعة بعد ان سمعتها تنشد شـعراً فهمـت منـه التعريض بها وبحفصة، فساعدتها حفصة فجاءت أم سلمة وأعانت سودة..

وفي زوجات الإمام الصادق (عليه السلام) نجد أن أم اسحاق قد حلقت شعر جاريـة الإمام (عليه السلام) غيرة منها، وذلك في الحج، لميل الإمام اليها، ونجد أن أم الفـضل زوجـة الإمام الجواد (عليه السلام) كانت دائمة الغيرة والشكوى من أم الإمام الهادي (عليه الـسلام) وهي جارية وحسب تصورها فهي اقل منها مرتبة اجتماعية، فكيف تكون المفضلة عند الإمـام عليها ؟!

وهذا جانب من الصورة، وإلا فهناك الجانب المشرق من نسائهم (عليهم السلام) يشير اليه ما مر من الأحاديث في فضل خديجة (عليها السلام) وزوجة الإمام السجاد والتي (كانـت صديقة لم تدرك في آل الحسن امرأة مثلها)، كما يقول الصادق (عليه السلام) عنها، أو أم فروة [١١٧](٢) العالمة التي كانت تطوف بالكعبة، فاراد أحدهم أن يصحح لها، فقالت إنا لأغنياء عـن علمك.

ولو تتبعنا هذا المقام لطال بنا التتبع لأنه الاصل، وإنما اوردنا البحـث الـسابق، لأنـه الاستثناء من جهة، ومن جهة أخرى لنبين ان المعصومين (عليهم السلام) كانوا وهم يتعاملون مع ارض الواقع، يواجهون هذا النوع من الأمور و لم تكن كل امورهم ضمن اطار الغيب.

---

[117] / أم فروة بنت القاسم بن محمد بن ابي بكر والدة الإمام الصادق ولمكانها روي عن الصادق (عليه السلام) ولدني ابو بكر مـرتين، إذ ان نسبها من والدها ينتهي إلى أبي بكر وكذلك نسبها من أمها حيث أن أمها أسماء بنت عبد الرحمن بن ابي بكر.

الفصل الثالث

كيف وماذا يلبسون ؟

ما هو الاصل المتبع فيما يرتبط بسيرة اهل البيت في مسألة الملابس، كوجه من وجوه الاختلاط الاجتماعي ؟!.

هل الاصل هو التجمل والتزين، إلا لاستثناءات تفرضها ظروف معينة تقتضي التقشف واظهار الزهد ؟! أم أن الأصل عندهم هو الزهد واظهاره و احاديث التجمل تحمل على الاستثناء ؟!

لا شك أن هناك مجموعتين من الروايات التي تصف سيرتهم، وقد نجد روايات تصف المنهجين في حياة بعضهم، فتارة يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) انه يلبس الثياب المتواضعة واخرى تأتي الرواية انه كان يحب التجمل، سواء في اللباس أو في الهيئة الشخصية، وكذا الحال بالنسبة لأمير المؤمنين (عليه السلام).. فما هو الاصل في المسألة، وأي الروايات على الاخرى حاكمة ؟!

إننا نعيد الى الذهن ما ذكر في المقدمة من ان عدم وضوح المنهج الاساسي في حياة اهل البيت (عليهم السلام)، والاصول العامة في سيرتهم، لدى بعض من المسلمين، هذا الأمر جعل القضية في مرونة بالغة بحيث يستطيع الواحد أن يتخذ الطريق الذي يعجبه في حياته ولا يعدم وسيلة في الاستدلال عليه من الروايات والتاريخ، فإذا كان من اهل التأنق والتجمل فانه يستند على تلك المجموعة من الروايات المؤكدة على هذا الجانب، ويستعين البعض الاخر من أهل التزهد والتقشف بالمجموعة الاخرى، لذلك ينبغي ان نعرف الاصل في هذه الروايات والاستثناء. وقبل ذلك ينبغي ان نعرض الى المجموعتين من الروايات:

المجموعة الأولى:

عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم):

– اني ألبس الغليظ واجلس على الارض، وألعق أصابعي واركب الحمار بغيرسرج واردف خلفي فمن رغب عن سنتي فليس مني.

وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) لابي ذر:- يا ابا ذر البس الخشن من اللباس والصفيق من الثياب لئلا يجد الفخر فيك مسلكا.

ويتحدث عنه امير المؤمنين (عليه السلام): ولقد كان (صلى الله عليه رآله وسلم) ياكل على الأرض ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله ويرقع ثوبه بيده [١١٨].

وأما أمير المؤمنين فقد رئي (عليه السلام) وعليه أزارخلق مرقوع فقيل له في ذلك: فقال يخشع له القلب وتذل به النفس ويقتدي به المؤمنون [١١٩].

وأما زين العابدين (عليه السلام) فقد خرج في ثياب حسان فرجع مسرعا فقال: يا جارية ردي ثيابي فقد مشيت في ثيابي فكأني لست علي بن الحسين-

وعن الصادق (عليه السلام) رآه محمد بن الحسين بن كثير وعليه جبة صوف بين قميصين غليظين فقال له في ذلك- فقال (عليه السلام) اني رأيت ابي يلبسها وإنا إذا أردنا ان نصلي لبسنا اخشن ثيابنا [١٢٠].

وعن ابي عباد أن الرضا (عليه السلام) كان جلوسه في الصيف على حرير وفي الشتاء على مسح، ولبسه الغليظ من الثياب، حتى إذا برز للناس تزين لهم [١٢١].

فنحن أمام احاديث هذه المجموعة نجد ان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يلبس الغليظ ويرى ذلك سنته ومن رغب عن سنته فليس منه ولا من امته، ويوصي ابا ذر بلبس الغليظ لكي يتقي من الفخر والكبر، ويؤكد امير المؤمنين (عليه السلام) على هذا المعنى في حياة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حينما يبين انه كان يرقع ثوبه بيده، ويرى انه إن لم يلبس الخشن يوشك ان لا يلحق برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مضيفا في الحديث الذي تلاه انه

---

118 / الأحاديث من ميزان الحكمة ج ٨ ص ٤٧٤.

119 / بحار الأنوارج ٧٦ ص ٤ ٣١.

120 /) بحار الأنوارج ٧٦ ص ٣١٤

121 / المصدرج ٧٦ ص ١ ٣٢.

يلبس الثوب المرقوع ضمن نظرية، ومع الالتفات الى اثاره على مستوى الشخص (يخـــشع لـــه القلب وتذل به النفس) وعلى مستوى المجتمع (ويقتدي به المؤمنون).

ويريد الإمام زين العابدين (عليه السلام) الالفات الى الاثار السلبية التي تترافق مع الثياب الحسان الناعمة والجميلة من الها تفقد الإنسان شخصيته العادية وتحدث له شخصية مـــصطنعة حتى حسب نفسه انه ليس (علي بن الحسين) إ!

ويؤكد الإمام الصادق على اقتدائه بابيه الباقر (عليه السلام) لبسه الخشن والغلـــيظ في وقت الصلاة واخيرا فإن الإمام الرضا (عليه السلام) يتخذ الغليظ والخشن كلباس دائم معه مـــا دام وحده، فإذا خرج للمجتمع تزين لهم، وهذه المجموعة من الأحاديث التي سقناها ما هي إلا عدد محدود من أحاديث كثيرة تنتهي الى ضرورة الزهد، والتقشف، ويمكن تلخيص مؤدياقمـــا كالتالي:

٨ إن الدنيا لهوالها على الله سبحانه وتعالى فقد جعلت في الغالب لغير اولياء الله الذين يتحدث عنهم القرآن الكريم: (ويوم يعرض الذين بمفروا على النار اذهبتم طيباتكم في حيـــاتكم الـــدنيا واستمتعتم بها) أما اولياؤه فهم الذين اعدّ لهم الدار الآخرة خالصة بنعيمها وثوابها وما خلق فيها حيث ا لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) فلو كانت الدنيا تسوى جنـــاح بعوضة لما سقى الكافر فيها شربة ماء، وهذا مفاد حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما دخل عليه عمر بن الخطاب وقد اعتزل نساءه في مشربة [١٢٢] وفي البيت أهب عطنة وهو (صلى الله عليه وآله وسلم) نائم على حصير قد أثر في جنبه فوجد عمر ريح الأهب، ولما جلس الرسولى (صلى الله عليه وآله وسلم) رأى عمر أثر الحصير في جنب الرسول فقال: اما انا فاشهد انك رسول الله ولأنت اكرم على الله من قيصر وكسرى وهما فيما هما فيه من الدنيا وانت على الحصير قد أثر في جنبك!!

فقال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): أما ترضى ان يكون لهم الدنيا ولنا الاخرة [١٢٣] ؟!

" ولذا فإن احد مصاديق الاعراض عن الدنيا وهو المطلوب من المؤمنين، الكـــف عـــن

---

122 / المشربة غرفة عالية، والأهب: جمع اهاب وهو الجلد قبل الدبغ.

123 / بحار الأنوارج ١٦ ص ٢٥٧ عن مكارم الاخلاق.

التجمل والتزين ذلك ان المؤمنين (ارادتهم الدنيا فلم يريدوها واسرتهم فافتدوا انفسهم منها).

كما ان الاهداف التي تنتظر المؤمنين لتحقيقها لا تعطيهم مجالا للتفكير الكثير في هذه المسائل الكمالية من تحسين الطعام وتزيين اللباس وغيرها وانهم إذ يصبرون في هذه الدنيا على هذه الحالات من التقشف والزهد فانما هم يتخففون لكي يلحقوا، وكما يقول اميرهم (عليه السلام): والله لقد قال لي قائل: ألا تنبذها ؟ فقلت: اعزب عني فعند الصباح يحمد القوم السرى.. بهذا المقدار نكتفي في الحديث عن المجموعة الاولى من احاديث الزهد والتقشف.

المجموعة الثانية:

عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم):

- إذا آتاك الله مالا فلير أثر نعمة الله وكرامته عليك .

- حسنوا لباسكم واصلحوا رحالكم حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس .

- ان الله طيب يحب الطيب ونظيف يحب النظافة [١٢٤].

وفي سيرته (صلى الله عليه وآله وسلم) نجد من الأحاديث:

- انه كان يحب الدهن ويكره الشعث [١٢٥] وكان ينظر في المراة ويرجل جمته ويمشط، وربما نظر في الماء وسوى جمته فيه ولقد كان يتجمل لاصحابه فضلا عن تجمله لأهله ويقول: إن الله تعالى يحب من عبده إذا خرج إلى اخوانه ان يتهيأ لهم ويتجمل () وكان يلبس الشملة يأتزر بها ويلبس النمرة يأتزر بها فيحسن عليه النمرة لسوادها على بياض ما يبدو من ساقيه وقدميه، وقيل لقد قبضه الله عز وجل وان له لنمرة تنسج في بني الاشهل ليلبسها، وقالت عائشة عنه (صلى الله عليه واله وسلم) لقد لبس جبة صوف وعمامة صوف ثم خرج فخطب الناس على المنبرفما رأيت شيئا مما خلق الله احسن منه فيها.

وعن امير المؤمنين (عليه السلام) انه قال: ليتزين احدكم لأخيه المسلم كما يتزين للغريب الذي يحب ان يراه في أحسن الهيئة [١٢٦].

---

[124] / الأحاديث من نهج الفصاحة / كلمات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

[125] / بحار الأنوار ج ١٦ ص ٢٤٧

[126] / الاداب والسنن لآية الله الشيرازي ص ٢٣٣.

ونقل ان الإمام الحسن (عليه السلام) اغتسل وخرج من داره في حلة فاخرة وبزة طاهرة ومحاسن سافرة ووجهه يشرق حسنا، وشكله قد كمل صورة ومعنى، والاقبال يلوح من اعماقه ونضرة النعيم تعرف في اطرافه وقاضي القدر قد حكم ان السعادة من اوصافه ثم ركب بغلة فارهة غير قطوف وسار مكتنفا من حاشيته وغاشيته بصفوف..

فعرض له قوم من محاويج اليهود، هم في هدم (ثوب مرقع) قد انهكته العلة وارتكبته الذلة واهلكته القلة وجلده يستر عظامه وضعفه يقيه اقدامه.. فاستوقف الحسن (عليه السلام) وقال: يا ابن رسول الله انصفني!!

فقال: من اي شيء ؟! قال: جدك يقول: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وانت مؤمن وأنا كافر فما ارى الدنيا إلا جنة لك تتنعم بها وتستلذ فيها وما أراها إلا سجنا لي قد اهلكني ضرها واتلفني فقرها.

فاجابه الإمام (عليه السلام): لو نظرت الى ما اعد الله لي وللمؤمنين في الاخرة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت لعلمت اني قبل انتقالي اليه في هذه الدنيا في سجن ضنك ولو نظرت الى ما اعد الله لك ولكل كافر في الدار الاخرة من سعير نار الجحيم ونكال العذاب المقيم، لرأيت انك قبل مصيرك اليه الآن في جنة واسعة ونعمة جامعة[١٢٧] .

إلا ان الأحاديث ترد أكثر عن الإمام الصادق (عليه السلام) وحفيده الرضا (عليه السلام) بحيث تحول الى قضية اجتماعية، يسأل عنها الكثير، فهذا عباد يحتج على الإمام الصادق (عليه السلام) في لبسه الأنيق الناعم مع ان جده امير المؤمنين (عليه السلام) كان يلبس الخشن، وذاك سفيان الثوري كذلك، ويردعليه جمع من الصوفية فيحتجون عليه، وهكذا الحال بالنسبة لسفيان بن عيينة، وكذلك الإمام الرضا (عليه السلام) حيث يشير في حديث مروي عنه إلى ان رغبة بعض شيعته ان شرك التانق ليلبس الخشن حتى تظهر عنده الإمامة اكثر!!

فعن الصادق (عليه السلام) إن الله يحب الجمال والتجمل ويكره البؤس والتباؤس فإن الله عز وجل إذا أنعم على احد نعمة احب ان يرى عليه اثرها، قيل: وكيف ؟ قال (عليه السلام): ينظف ثوبه ويطيب ريحه، ويحسن (او يجصص) داره ويكنس أفنيته حتى ان السراج قبل مغيب

---

127 / عوالم العلوم/ الإمام الحسن ١٠٦

الشمس ينفي الفقر ويزيد في الرزق [١٢٨].

وقال (عليه السلام) في جواب سفيان الثوري بعد ان قال للإمام: انت تروي أن علي بن ابي طالب كان يلبس الخشن وانت تلبس القوهي والمروي ؟! قال الصادق (عليه السلام) ويحك إن علي بن ابي طالب (عليه السلام) كان في زمان ضيق فإذا اتسع الزمان فابرار الزمان اولى به [١٢٩]. ويبين قاعدية الزمان في تحديد اللباس المناسب ما لم يؤد الى محرم بقوله (عليه السلام) (خير لباس كل زمان لباس أهله). وسوف ياتي الحديث عن هذا الجانب في الصفحات القادمة.

والذي يظهر انه كانت هناك ازمة فهم لدى بعض المسلمين سواء من شيعة الأئمة أو من غيرهم، تنتهي الى انه من اراد التدين والصلاح فعليه ان يتظاهر بلبس الصوف والثياب الخشنة وأن من يلبس الحسن من الثياب لا يصلح لمقام القيادة الدينية، وأظن أن هذه الازمة جلبها رواج سوق الصوفية في تلك الفترة، لذلك فبينما الإمام الصادق يطوف وإذا بعباد بن كثير البصرى يجذب ثوبه ويقول: يا جعفر بن محمد تلبس مثل هذه الثياب (الجميلة) وانت في هذا الموضع مع المكان الذي انت فيه من علي (عليه السلام) فقال له: ويحك هذا ثوب قوهي اشتريته بدينار وكسر وكان علي (عليه السلام) في زمان يستقيم له ما لبس ولولبست مثل ذلك اللباس في زماننا هذا لقال الناس: هذا مراء مثل عباد [١٣٠].

ونجد هؤلاء الناس ولحل أزمة الفهم عندهم يلجؤون الى محاولة اقناع الإمام بأن يتزيا بزي الصوفية ويتظاهر بالزهد فعن الرضا (عليه السلام) أنه قال: إن أهل الضعف من موالي يحبون ان أجلس على اللبود وألبس الخشن، وليس يحتمل الزمان ذلك[١٣١] .

ويأتي قوم من اهل خراسان فيدخلون على الإمام الرضا (عليه السلام) قائلين: إن الناس قد انكروا عليك هذا اللباس الذي تلبسه، فقال لهم الإمام (عليه السلام): إن يوسف بن يعقوب كان نبيا ابن نبي وكان يلبس الديباج ويتزيا بالذهب ويجلس مجالس آل فرعون فلم يضعه ذلك وإنما يذم لو احتيج منه الى قسطه، وإنما على الإمام أنه إذا حكم عدل وإذا وعد وفى وإذا حدث

---

128 / بحار الأنوارج ٧٦ ص ٣٠٠

129 / بحار الأنوارخ ٧٦ ص ٣٠ ٧

130 / بحار الأنوارج ٧٦ ص ٣١٦

131 /) المصدرص ٣٠٩

صدق. وإنما حرم الله الحرام بعينه ما قل منه وما كثر وأحل الله الحلال بعينه ما قل منه وماكثر . بل تغرق الأحاديث نزعا عندما تتحدث عن أن كثرة الملابس مطلوبة ولا تعد اسرافا.

فعن اسحاق بن عمار قال: قلت لابى عبد الله (عليه السلام): يكون للمـؤمن عـشرة اقمصة ؟! قال: نعم، قلت: وعشرين ؟! قال: نعم وليس ذلك من السرف إنما السرف ان تجعل ثوب صونك ثوب بذلتك [١٣٢].

وعنه أيضا قال: قلت لابي ابراهيم (الكاظم عليه السلام) الرجل يكون له عشرة اقمصة أيكون ذلك من السرف ؟ فقال: لا: ولكن ذلك ابقى لثيابه ولكن السرف ان تلـبس ثـوب صونك في المكان القذر.

الرأي المختار:

سوف نكون مع عدة مقدمات حتى ننتهي الى اختيار الرأي الاقرب:

الأولى: ما هو الزهد ؟! للزهد جانبان.. جوهره وظاهره، فاما الظاهر فهو المعروف من لبس الثياب المتواضعة والجلوس على الحضيض، وعدم الاهتمام بالمظهر الخارجي.. وهذا يستطيع فعله الجميع سواء الزهاد الحقيقيون او ادعياء الزهد.

وللزهد جوهر عبرت عنه الأحاديث الشريفة، وهذا لا يتوفر إلا لدى الزهاد حقيقـة، ويمتنع على غيرهم. فقد جاء ان الزهد ليس باضاعة المال ولا بتحريم الحلال بل الزهد في الدنيا ان لا تكون بما في يدك اوثق بما في يد الله) وبهذا المعنى فإن حد الزهد جاء في القـرآن الكـريم ضمن آية من عدة كلمات ا لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم)، ولأن الثقة بمـا عند الله وعدمها بما في يد الإنسان عملية قلبية، ولأن عدم الفرح على العطية، والتأسف علـى الفائت كذلك، لذا كان (افضل الزهد اخفاء الزهد)، سواء ما يرتبط بالقلب كما قدمنا او مـا يرتبط بالمظهر، الأمر الذي يشير اليه عدد من الأحاديث في احوالهم (عليهم السلام) حيث كانوا يظهرون للناس الثياب الناعمة (هذا لكم)، ويبطنون الثياب الخشنة (وهذا لله)، علـى عكـس الكثير من ادعياء الزهد الذين يعكسون المعادلة، فيلبسون أمام الناس الخشن وياكلون الجـشب

---

132 / المصدرص ٣٠٨ ولعل التشبيه بيوسف في لبس الديباج والذهب بناء على كونه غير محرم آنئذ، او بعنوان الـضرورة، أو لأمـر أهم.

فإذا خلوا الى انفسهم عكسوا الآية. ففي تتمة الحديث المروي عن محاولة سفيان الثوري تـــوبيخ الإمام الصادق بعد ان رآه قد لبس ثيابا كثيرة القيمة حسانا وبعد ان اجابه الإمام اضاف.. غير اني يا ثوري على ما ترى عليئ من ثوب إنما لبست للناس، ثم اجتذب يد سفيان فجرها اليه ثم رفع الثوب الاعلى واخرج ثوبا تحت ذلك على جلده غليظا، فقال: هذا لبسته لنفسي غليظا وما رأيته (اي الناعم) للناس، ثم جذب ثوبا على سفيان اعلاه غليظ خشن وداخل ذلك ثوب لـــين فقال: لبست هذا الاعلى (اي الخشن) للناس ولبست هذا (اي اللين) لنفسك تسرها ؟ [١٣٣].

وبهذا المعنى الحقيقي للزيد لايثمك رلا ريب ان المعصومين (عليهم السلام) كانوا اعظم الزهاد بل معلميهم فلم يكن همهم في الدنيا (رغبة فى سلطان ولا التماسا لشيء مـــن فـــضول الحطام)، رلم يكونوا يفرحون إذا اوتوا ولا يتحسرون إذا منعوا، وهذا لعله المعنى الذي يشير اليه الإمام الصادق (عليه السلام) بقوله لاحد اصحابه (يا حفص ما انزلت الدنيا من نفسي إلا بمنزلة الميتة إذا اضطررت اليها اكلت منها) [١٣٤].

الثانية: يبدو أن هناك فرقا في حياة المعصومين (عليهم السلام) بين الحالـــة الشخـــصية والرغبة الذاتية وبين مقتضيات الحضور الاجتماعي بما يفرضه من مكان القدوة عنـــد النـــاس، وتحول العمل الذي يقومون به إلى سنة..

ولعلنا نستطيع القول ان المعصومين (عليهم السلام) لو كانوا يعملون ضـــمن معادلـــة الحيـــاة الشخصية فقط لكان التناغم قائما بين ما يملكونه من حقيقة الزهد- كما تقدم- وبين ما يخفونه من مظاهر الزهد، وهذا مفاد كثير من الأحاديث فالرضا (عليه السلام) كان يجلس في الصيف على حصير وفى الشتاء على مسح ولبسه الغليظ.. هذا في حياته الشخصية فإذا برز للنـــاس (في حياته الاجتماعية) تزين لهم.. وربما يكون السبب في ذلك هو قطع الطريق على الافكار الخاطئة لجماعات الصوفية التي ارادت ان تحول الاسلام بتعاليمه الحياتية وقيمه الحضارية في العلم والتقدم والرفاه، الى ثوب قصير مرقوع والى شعر اشعث وتنسى الاسس الاصلية، فهم يركزون علـــى

133 / فروع الكافي ج ٢ ص ٢٠٣.

134 / سفينة البحارج اص ٥٧٢.

الثوب الخلق ولا ينظرون الى تمزق احكام الدين بيد الظلمة والفسقة.. وهم يقيمـــون المظـــاهر وشمقطون الحقائق وفي هذا المجال فان المعصومين كانوا يوجهون الى ان المطلوب مـــن الإمـــام والحاكم ليس ثوبه بل المطلوب عدله، وليس المطلوب مظهره المتزهد بل تطابق عمله مع نظريته وشعوره مع شعاره.

الثالثة: إن بعض الممارسات التي كان يقوم بها المعصومون (عليهم السلام) إنما كانت في اطار التعليم والتربية لمن يشهد الحدث معهم او لمن يسمع عنه بعدهم، وإلا فكيف يمكن تصور ان الإمام زين العابدين (عليه السلام) يحدث له الغرور والتكبر حتى يخرج مـــن شخـــصيته الى شخصية أخرى لو لم يكن الأمر للتعليم خصوصا انه كان يلبس الجبة الخز بخمـــسمائة درهـــم والمطرف الخز بخمسين دينارا فيشتو فيه فإذا خرج الشتاء باعه وتصدق بثمنه وتلا (قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق) [١٣٥] فكيف يمكن الجمع بين هذا وذاك لو لم يكن للتعليم.

ويعتقد ان كثيرا من ممارسات امير المؤمنين (عليه السلام) كانت لاجل تعديل الميل الذي حصل ايام من سبقه من طغيان المال، وزيادة الترف، وكانت ادانة ضمنية لكل السياسات المالية الخاطئة التي كانت حاكمة، ولو لم يقم الإمام (عليه السلام) بذلك لتحولت الى قاعدة ثابتة في الدين ولعل هذا احد معاني توجيه الأئمة (عليهم السلام) الى خصوصية الزمان في حيـــاة امـــير المؤمنين (عليه السلام) ومدخليته في كون لباسه وثيابه بتلك الصورة المعروفة.

وهنا نشير الى ملاحظة هامة هي ان هناك مجموعة كبيرة واحيانا متباينة من القيم ودور الإمام هو تشخيص القيمة المناسبة للزمان.

بناءا على ذلك فإننا نعتقد ان الاصل لديهم (عليهم السلام) في حياتهم الخاصة والعبادية هو تناغم حقيقة الزهد (في قلوبهم) مع مظاهرة (في الخارج)، واما في الحياة الاجتماعية فالاصل فيها التجمل والتأنق- في اعتدال- فالله يحب الجمال والتجمل ويبغض البؤس والتباؤس وقد خلق الله الزينة لعباده والابرار اولى بها من غيرهم.

---

135 / بحار الأنوارج ٧٦ ص ٢٩٨.

نظرات في القيم الكاملة

مقدمة:

بدايات استخدام البشر للألبسة تتحدث عنها الآيات المباركات في سورة الاعراف، فليكن الحديث عنها مقدمة للحديث عن عدد من المفاهيم المرتبطة بهذا الجانب في حياة المعصومين (عليهم السلام).

(يا بني أدم قد انزلنا اليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ير يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما اخرج ابويكم من الجنة يترع عنهما لباسهما ليريهما سوءاهما انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم انا جعلنا الشياطين اولياء للذين لا يؤمنون * وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها أباءنا والله امرنا بها قل ان الله لا يأمر بالفحشاء اتقولون على الله ما لا تعلمون * قل امر ربي بالقسط واقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بداكم تعودون * فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة الهم اتخذوا الشياطين اولياء من دون الله ويحسبون الهم مهتدون* يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلو واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين* قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون* قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم يترل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون)[١٣٦].

من الواضح ان الآيات تتحدث عن قصة نبي الله ادم وزوجته حواء بعد ان (فتنهما) الشيطان واخرجهما من الجنة، وقد عريا عن لباسها، فانتزع القرآن الكريم من هذه القصة درسا في اتجاهين: التوجيه الى منة الله على عباده بأنه انزل على عباده اللباس والرياش، وكان من الممكن ان يبقوا لآماد بعيدة– او للأبد– عراة، بادئي السوءات، كما نجد اليوم في القبائل

[136] / سورة الأعراف، الآية ٢٦– ٣٣

الوحشية البعيدة عن المدنية، والدرس الاخر، ان يتوجهوا الى التقوى والتورع باعتبارها لبـــاس الباطن بعد ان من عليهم بلباس الظاهر، فلباس التقوى المانع من المعاصي والفواحش خير من كل لباس.

واللباس: كل ما يصلح للبس وستر البدن، رالريش: ما فيه الجمال ماخوذ من ريش الطائر لما فيه من انواع الجمال والزينة، وربما يطلق على اثاث البيت ومتاعه.

ووصف اللباس في الآية المباركة بقوله (يواري سوءاتكم) لبيان الهدف الاساسي له، ذلك الهدف هو اتباع حاجة الإنسان التي اضطرته الى اتخاذ اللباس وهي مواراة سرءاته التي يـــسوءه انكشافها أمام الناس، واما الريش فانما يتخذه لجمال زائد على اصل الحاجة، وفي الآية امتنـــان بهداية الإنسان إلى اللباس والريش، وفيها كما قيل- دلالة على اباحة لباس الزينة"[137].

ثم يتحدث القرآن الكريم ناعيا على العرب قبل اسلامهم طوافهم بالبيص عراة فيـــسمي ذلك فاحشة إذ أن العرب كانوا في الجاهلية يقولون: نطوف كما ولدتنا امهاتنا ولا نطـــوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب!! سواء منهم الرجل أو المرأة.. إلى ان فتحت مكة وبعث رسول الله (صلى الله عله وآله وسلم) عليا (عليه السلام) بآيات البراءة الى مكة، فمنع ان يطوف بالبيت عريان.

والذي يهمنا هو الأيات التي تتحدث عن اللباس والزينة التي تأتي فيما بعد لتأمر بأخذ الزينة عند الحضور في المساجد، سواء كانت تلك الزينة، التمشط كما عن الإمام الرضا (عليه السلام) أو لبسى اجود الثياب كما عن الإمام الحسن (عليه السلام) فقد كان إذا قام الى الصلاة لبس اجود ثيابه، فقيل له: لم تلبس اجود ثيابك ؟! فقال: ان الله جميل يحب الجمال فاتجمل لربي وهو يقول (خذوا زينتكم عند كل مسجد، فاحب ان البس اجود ثيابي [138].

وننقل هنا ما ذكره العلامة الطباطبائي في تفسيره، حول الأيات لجامعيته:

قوله تعالى: (قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) هـــذا مـــن

---

137 / الميزان في تفسير القرآن ج ٨ ص ٦٧.

138 / الميزان ج ٨ ص ٩٢.

استخراج حكم خاص– بهذه الامة– من الحكم العام السابق عليه بنوع من الالتفات نظير مـــا تقدم في قوله: (ذلك من أيات الله لعلهم يذكرون) وقوله: (فإذا فعلوا فاحشة .. الآية.

والاستفهام إنكاري، والزين يقابل الشين وهو ما يعاب به الإنسان فالزينة ما يرتفع بـــه العيب ويذهب بنفرة النفوس، والإخراج كناية عن الإظهار واستعارة تخييلية كأن الله ســـبحانه بإلهامه وهدايته الإنسان من طريق الفطرة إلى إيجاد أنواع الزينة التي يستحسنها مجتمعه ويستدعي انجذاب نفوسهم إليه وارتفاع نفرتهم واشمئزازهم عنه يخرج لهم الزينة وقد كانت مخبيـــة خفيـــة فأظهرها لحواشهم.

ولوكان الإنسان يعيش في الدنيا وحده في غير مجتمع من أمثاله لم يحتج إلى زينة يتزين بها قط ولا تنبه للزوم إيجادها لأن ملاك التنبه هو الحاجة. لكنه لما لم يسعه إلا الحياة في مجتمع من الافـــراد وهم يعيشون بالإرادة والكراهية والحب والبغض والرضى والسخط فلا محيص لهم من العثـــور على ما يستحسنونه وما يستقبحونه من الهيئات والأزياء فيلهمهم المعلم الغيبي من وراء فطرتهم .بما يصلح ما فسد منهم ويزين ما يشين منهم، وهو الزينة بأقسامها. ولعل هذا هـــو النكتـــة في خصوص التعبير بقوله: "لعباده ".

وهذه المسماة بالزينة من أهم ما يعتمد عليه الإجتماع الإنساني، وهي من الآداب العريقة الـــتي تلازم المجتمعات وتترجى وتتترل على حسب تقدم المدنية والحضارة ولو فرض ارتفاعهـــا مـــن أصلها في مجتمع من المجتمعات الهدم الاجتماع وتلاشت أجزاؤه من حينه لأن معـــنى بطلانهـــا ارتفاع الحسن والقبح والحب والبغض والإرادة وا امراهية وأمثالها من بينـــهم، ولا مـــصدالتى للإجتماع الإنساني عندئذ فافهم ذلك.

ثم الطيبات من الرزق– والطيب هو الملائم للطبع– هي الأنواع المختلفة مما يرتزق بـــه الإنسان بالتغذي منه، أو مطلق ما يستمد به في حياته وبقائه كأنواع المطعم والمشرب والمنكح والمسكن ونحوها، وقد جهز الله سبحانه الإنسان .بما يحس بحاجته إلى أقسام الرزق ويـــستدعي تناولها بأنواع من الشهوات الهائجة في باطنه إلى ما يلائمها مما يرفع حاجته وهذا هو الطيـــب والملائمة الطبيعية.

وابتناء حياة الإنسان السعيدة على طيبات الرزق غني عن البيان فلا يسعد الإنـــسان في حياته من الرزق إلا .بما يلائم طباع قواه وأدواته التي جهز بها ويساعده على بقاء تركيبه الـــذي

ركب به، وما جهز بشيء ولا ركب من جزء إلا لحاجة له إليه فلوتعدى في شيء ممـــا يلائـــم فطرته إلى ما لا يلائمها طبعاً اضطر إلى تتميم النقص الوارد عليه في القوة المربوطة به إلى صرف شيء من سائر القوى فيه كالمنهوم الشره الذي يفرط في الأكل فيصيبه آفات الهضم. فيضطر إلى استعمال الأدوية المصلحة لجهاز الهضم والمشهية للمعدة ولا يزال يستعمل ويفرط حتى يعتاد بها فلا تؤثر فيه فيصيرإنسانا عليلا تشغله العفة عن عامة واجبات الحياة، وأهمها الفكر السالم الحـــر وعلى هذا القياس.

والتعدي عن طيب الرزق يبذل الإنسان إلى شيء آخر لا هو مخلوق لهذا العالم ولا هذا العـــالم مخلوق له وأي خير يرجى في إنسان يتوخى أن يعيش في ظرف غير ظرفه الذي أعده له الكون، ويسلك طريقا لم تهيئه له الفطرة، وينال غاية غير غايته وهو أن يتوسع بالتمتع بكل ما تزينه له الشهوة والشره، ويصور لك الخيال بآخر ما يقدر وأقصى ما يمكن.

والله سبحانه يذكر في هذه الآية أن هناك زينة أخرجها لعباده وأظهرها وبينها لهم مـــن طريق الإلهام الفطري، ولا تلهم الفطرة إلا بشيء قامت حاجة الإنسان إليه بحسبها.

ولا دليل على إباحة عمل من الأعمال وسلوك طريق من الطرق أقوى من الحاجة إليـــه بحسب الوجود والطبيعة الذي يدذ على أن الله سبحانه هو الرابط بين الإنسان المحتاج وبين مـــا يحتاج إليه بما أوح في نفسه من القوى والأدوات الباعثة له إليه بحسب الخلقة والتكوين.

ثم يذكر بعطف الطيبات من الرزق على الزينة في حيز الاستفهام الإنكاري أن هنـــاك أقساما من الرزق طيبة ملائمة لطباع الإنسان يشعر بطيبها من طريق قواه المودعة في وجـــوده، ولا يشعر بها ولا يتنبه لها إلا لقيام حاجته في الحياة إليها وإلى التصرف فيها تصرفا يستمد بـــه لبقائه، ولا دليل على إباحة شيء من الأعمال أقوى من الحاجة الطبيعية والفقر التكويني إليه كما سمعت.

ثم يذكر بالاستفهام الإنكاري أن إباحة زينة الله والطيبات من الرزق مما لا ينبغي أن يرتاب فيها فهو من إمضاء الشرع لحكم العقل والقضاء الفطري. وإباحة الزينة وطيبات الرزق لا تعدو مع ذلك حد الاعتدال فيها والوسط العدل بين الإفراط والتفريط فإن ذلك هو الذي يقـــضي بـــه الفطرة، وقد قال الله سبحانه في الآيه السابقة: (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) وقال فيمـــا قبل ذلك: (قل أمر ربي بالقسط) .

ففي التعدي إلى أحد جانبي الإفراط والتفريط من تهديد المجتمع الإنساني بالانحطاط، وفساد طريق السعادة ما في انثلام ركن من أركان البناء من تهديده بالإنهدام فقلما ظهر فساد في البر والبحر وتنازع يفضي إلى الحروب المبيدة للنسل المخربة للمعمورة إلا عن إتراف الناس وإسرافهم في أمر الزينة أو الرزق، وهو الإنسان إذا جاوز حد الإعتدال، وتعدى ما خط له من وسط الجادة ذهب لوجهه لا يقف على حد ولا يلوي على شيء فمن الحري أن لا يرفع عنه سوط التربية ويذكر حتى بأوضح ما يقضي به عقله، ومن هذا القبيل الأمر الإلهي بضروريات الحياة كالأكل والشرب واللبس والسكنى وأخذ الزينة.

قال صاحب المنار في بعض كلامه- وما أجود ما قال:- وإنما يعرفها- يعني قيمة الأمر بأخذ الزينة مع بساطته ووضوحه- من قرأ تواريخ الامم والملل، وعلم أن أكثر المتوحشين الذين يعيشون في الحرجات والغابات أفرادا وجماعات يأوون إلى الكهوف والمغارات، والقبائل الكثيرة الوثنية في بعض جزائر البحار وجبال إفريقية كلهم يعيشون عراة الأجسام نساء ورجالا، وأن الإسلام ما وصل إلى قوم منهم إلأ وعلمهم لبس الثياب بإيجابه للستر والزينة إيجابا شرعيا.

ولما أسرف بعض دعاة النصرانية الاوربيين في الطعن في الإسلام لتنفير أهله منه وتحويلهم إلى ملتهم ولتحريض أوروبا عليهم رد عليهم بعض المنصفين منهم فذكر في رده أن في انتشار الإسلام فى إفريقية منة على أوروبا بنشره للمدنية في أهلها بحملهم على ترك العري وإيجابه لبس الثياب الذى كان سببا لرواج تجارة النسج الأوربية فيهم.

بل أقول: إن بعض الأمم الوثنية ذات الحضارة والعلوم والفنون كان يغلب فيها معيشة العري حتى إذا ما اهتدى بعضهم بالإسلام صاروا يلبسون ويتجملون ثم صاروا يصنعون الثياب وقلدهم جيرانهم من الوثنيين بعض التقليد [١٣٩].

وبذلك يكون الاصل فى الملابس انها جعلت للحفظ وستر الملابس ما يسوؤه كشفه أمام الناس. كما انها للحفظ والوقاية من العوامل الخارجية المؤثرة سلبا على صحة الإنسان، من ظروف مناخية متقلبة، في حرها وبردها، ثم بمرور الزمان اصبحت تحمل معها اعتبارات اجتماعية خاصة.

---

139 / الميزان في تفسير القرآن ج ٨ ص ٨٢.

وسوف نتحدث هنا عن بعض القيم والتعاليم العامة التي نلحظها في حياة المعـــصومين عليهم السلام فيما يرتبط بهذا الجانب:

١/ الفصل بين اللباس والشخصية:

من ميزات الثقافة المتخلفة انها تصييم بدائل كاذبة للإنسان.. فاللباس يـــصبح في نظـــر اصحاب هذه الثقافة دليلا على الشخصية، فمن يلبس هذا النوع المعـــين، يمتلـــك الشخـــصية الكذائية، ونرعية العطر- حسب هذه الثقافة- دليل على السعادة!! بل حتى نوعية السيجارة التي يدخنها الواحد تصبح دليلا على كونه ناجحا.

ولو فتحنا اعيننا على مفردات الاعلانات المسموعة أو المرئية لوجدنا انها تعبر عن هـــذه الامور بطرق مختلفة، ولا شك أن لها تأثيرا غير قليل على الناس، بل اصبح الكثير يمارسون هذه العادات تحت وهم تلك البدائل الكاذبة.. فالرجل يدخن سيجارة (مارلبورو) مثلا لانها سيجارة الناجحين!، ولو كان هو في سابع درك في الفشل والهزيمة، إلا انه يحشر نفسه مع اسم الناجحين بهذه الطريقة وعبر السيجارة ؟!

وبينما كان ينبغي ان يعتمد الإنسان في ان يكون ذا شخصية أولا على عقله وقدرته إذ (قيمـــة كل امرء ما يحسن) إذا به يفكر في طريقة لبسه او عطره لكي يصبح شخصية مهمة!! وهكـــذا ضاعت الحقائق لتحل محلها البدائل ا لكاذبة.

واصبحت- مع الاسف- هذه الاكذوبة هي القاعدة، وسواها الشذوذ، فالمواطن المراجع للدائرة لا ينظر الى عمله، او الى اوراقه الثبوتية وكمالها وإنما ينظر الى شكله ليتم تحديد الموعـــد الذي يتعين عليه الانتظار فكلما كانت الملابس والمظهر الخارجي أبهى، قل التاريخ، والعكـــس عندما يكون مظهره غير جذاب في نظر المسؤول في الدائرة، وهكذا يعطى للأنيـــق فى المجتمـــع احتراما بغض النظر عن ما تحت ملابسه من شخصية او من فكر وعقل، بينما يحـــرم العـــالم، الواعي ذلك الاحترام إذا لم يكن انيق المظهر. وإذا تحول المجتمع الى متسابق في الاناقة والملابس فإن قدرته تنتقل من الابداع الى الاستهلاك الفارغ، ولعل القصة المنقولة عن الشيخ ميثم البحراني خير مثال على هذا الاتجاه.

ذلك أنه في أوائل الحال كان معتكفا في زاوية العزلة والخمول مشتغلا بتحقيق حقـــائق الفروع والاصول فكتب اليه فضلاء الحلة والعراق صحيفة تحتوي على عذله وملامته على هذه

الاخلاق وقالوا: العجب منك انك مع شدة مهارتك في جميع العلوم والمعارف وحـــذاقتك في تحقيق الحقائق وابداع اللطائف قاطن في طلول الاعتزال، ومخيم في زاوية الخمول الموجب لخمود نار الكمال، فكتب في جوابهم هذه الابيات:

طلبت فنون العلم أبغي بها العلى   فقصر بي عما سموت به القل

تبين لي أن المحاسن كلها فروع   وأن المال فيها هو الأصـــل

فلما وصلت هذه الابيات اليهم كتبوا إليه انك أخطأت في ذلك خطأ ظاهرا وحكمك بأصـــالة المال عجب بل اقلب تصب ؟ فكتب في جوابهم هذه الابيات وهي لبعض الشعراء المتقدمين:

قد قال قوم بغيـــــر علم   ما المرء إلا بأصغـــريه

فقلت قول امرىء حكيم   ما المرء إلا بدرهميـــه

من لم يكن درهم لـــديه   لم تلتفت عرسه اليـــه

ثم انه لما علم ان مجرد المراسلات والمكاتبات لا تنقع الغليل ولا تشفي العليل توجه الى العـــراق لزيارة الأئمة المعصومين عليهم السلام وإقامة الحجة على الطاعنين ثم انه بعد الوصول الى تلك المشاهد العلية لبس ثيابا خشنة عتيقة وتزى بهيئة رثة بالاطراح والاحتقار خليقة ودخل بعـــض مدارس العراق المشحون بالعلماء والحذاق فسلم عليهم فرد بعضهم عليه الـــسلام بالاســـتثقال والانتقاع التام فجلس- عطر الله مرقده- في صف النعال ، ولم يلتفت اليه أحـــد منـــهم ولم يقضوا واجب حقه وفي اثناء المباحثة وقعت بينهم مسألة مشكلة دقيقة كلت منـــها أفهـــامهم وزلت فيها أقدامهم فأجاب- بتسعة أجوبة في غاية الجودة والدقة فقال لـــه بعـــضهم بطريـــق السخرية والتهكم: إخالك طالب علم ؟!

ثم بعد ذلك أحضر الطعام فلم يؤاكلوه- قدس سره- بل أفردوه بشيء قليل على حدة واجتمعوا هم على المائدة فلما انقضى ذلك المجلس قام- قدس سره- ثم انه عاد في اليوم الثاني اليهم وقـــد لبس ملابس فاخرة بهية بأكمام واسعة وعمامة كبيرة وهيئة رائعة فلما قرب وسلم عليهم قاموا له تعظيما واستقبلوه تكريما وبالغوا في ملاطفته ومطايبته واجتهدوا في تكريمه وتوقيره وأجلسوه في صدر ذلك المجلس المشحون بالافاضل والمحققين والاكابر المدققين ولما شـــرعوا في المباحثـــة والمذاكرة تكلم معهم بكلمات عليلة لا وجه لها عقلا ولا شرعا فقابلوا كلماته العليلة بالتحسين والتسليم والاذعان على وجه التعظيم .

فلما حضرت مائدة الطعام بادروا معه بأنواع الادب فألقى الشيخ- قدس سره- كمه في ذلك الطعام مستعتبا على أولئك الاعلام وقال: كل يا كمي ؟

فلما شاهدوا تلك الحالة العجيبة أخذوا في التعجب والاستغراب واستفسروه- قدس سره- عن معنى ذلك الخطاب فأجاب- عطر الله مرقده- بأنكم إنما أتيتم بهذه الأطعمة النفيسة لأجل أكمامي الواسعة لا لنفسي المقدسة اللامعة والا فأنا صاحبكم بالامس وما رأيت تكريما مع اني جئتكم بالأمس بهيئة الفقراء وسجية العلماء واليوم جئتكم بلباس الجبارين وتكلمت بكلام الجاهلين فقد رجحتم الجهالة على العلم والغنى على الفقر وأنا صاحب الأبيات في أصالة المال وفرعية الكمال التي أرسلتها اليكم وعرضتها عليكم وقابلتموها بالتخطئة وزعمتم انعكاس القضية فاعترف الجماعة بالخطأ في تخطئتهم واعتذروا عما صدر منهم من التقصير في شأنه [١٤٠].

ويعبر الشاعر حافظ إبراهيم عن هذه الحالة في ثلاثة أبيات من الشعر قائلا:

ياردائي جعلتني بين قومي فوق ما اشتهي وفوق الرجاء
إن قومي تروقهم جدة الثوب ولا يعشقون غير الرواء
قيمة المرء عندهم بين ثوب باهر لونه وبين الحذاء

ونستطيع ان نتبين الاثر السياسي في هذا الجانب الشخصي ايضأ، إذ ان من مصلحة الحكومات الفاسدة صنع بدائل كاذبة للشخصية في المجتمع، لأنها تستطيع السباق والفوز فيه إذا كانت تلك البدائل هي المقياس.. فمثلا عندما يكون (اقتناء الاشياء) هو المقياس ، بحيث من يملك اكثر ومن ينفق اكثر، ومن تتعدد عقاراته، هو المقدم والمحترم، فإن الفائز في هذا السباق لا شك هم الحاكمون، وهكذا عندما يكون التوجه لتركيز (المظهر) عنوانا للشخصية المحترمة فإن امكانية هذا الأمر لدى الحاكمين اكثر من سواهم، وبعدهم اصحاب الاموال.

هذا بخلاف ما إذا كان الابداع والعلم هو المقياس في احترام الشخصية أو الايمان والتقوى، كما يقول القرآن (يرفع الله الذين أمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات) و (إن اكرمكم عند الله اتقاكم) .

كما نستطيع ان نتبين الاثر السياسي هذا عندما ننظر الى التاريخ- وحتى الحاضر- فنجد

---

140 / شرح الشيخ ميثم على المائة كلمة للإمام علي (عليه السلام) عن روضات الجنات للخو نسا ري.

ان الجمهور عادة كان يتابع الحكام في لباسهم وحياتهم الشخصية ما استطاع الى ذلك سبيلا.. وقد يكون الأمر طبيعيا، باعتباره احد آثار السلطة على الناس، إلا ان تحول ذلك الى (ثقافة) و(فهم) اجتماعي و(عنوان) شخصية يصبح ذا خطورة على تشكيل الشخصية في المجتمع. لنقرأ هذا النص من مروج الذهب.

(وفي ايام هشام بن عبد الملك عمل الخز والقطف الخز فسلك الناس جميعاً في ايامه مذهبه ومنعوا ما في ايديهم فقل الافضال وانقطع الرفد ولم ير زمان اصعب من زمانه)[١٤١].

وكان سليمان بن عبد الملك يلبس الثياب الرقاق وثياب الوشي وفي ايامه عمل الوشي باليمن والكوفة والاسكندرية ولبس الناس جميعا! ثياب الوشي جبابا واردية وسراويل وعمائم وقلانس وكان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته إلا في الوشي وكذلك خدامه، وعماله واصحابه،... وامر ان يكفن في الوشي (المثقلة) [١٤٢].

وهكذا نجد الأمر في ايام العباسيين فخليفة يأتي ويطيل القلانس لتصبح كالمخروط فيقوم الظ س بتقليده، واخر يأتي فيقصرها فيفعلون كذلك، والمستعين يأتي فيحدث لبس الاكمام الواسعة (ثلاثة أشبار) فيفعل الناس ذلك ايضا... وهكذا.

والاشكال الاخطر كما قدمنا هو تحول هذه الملابس الى ميزان تفاضل بين الناس والى (اولوية) بحيث يتحول الناس الى لاهثين وراء هذا الموديل او ذاك فيقل الافضال والعطاء الاجتماعي لصالح هذا التنافس المظهري كما رأينا في النص الذي يتحدث عن ايام هشام بن عبد الملك.

هذا الفصل بين الشخصية والمظهر كان يريد تأكيده أهل البيت (عليهم السلام) فيما نرى من خلال تنويعهم للملابس (طريقة- نوعية- والوانا ايضا)، فبالرغم من تاكيدهم على التنظف والتجمل- كماسيأتي- إلا ان ذلك يأتي لا ليصنع للإنسان شخصية لا يملكها فمن يلبس ملابس العلماء لا يصبح عالما بمجرد اللبس ، ولا يصبح زاهدا إذا لبس المرقع من الثياب..

---

141 / مروج الذهب ج ٣ ص ٢١٧.

142 / المصدرج ٣ ص ١٨٥.

وهكذاف (ليس البر في حسن اللباس الزي ولكن البر السكينة والوقار) كما يقول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، انهم يريدون بذلك التاكيد على صناعة الشخصية الحقيقية، ذات القيمة الواقعية في ذاتها، بغض النظر عن الديكورات الخارجية، من اناقة او غيرها، فإن وجدت هذه مع تلك كانت نورا على نور وإن وجدت الاناقة والمظهر الحسن دون الشخصية الواعية أو المبدعة، فهي اشبه بذهب على جنازة!!

ومن هذا ايضا نتوصل الى فكرة أخرى تخالف ما هو متعارف في الوسط الاجتماعي من الربط الاساسي بين الملابس والشخصية، ذلك الرأي الخاطىء الذي يرى ان من يترع ملابسه الرسمية فقد نزع شخصيته، وانه لا يعترف بهذا أو ذاك إلا ضمن اللباس الرسمي، فمثلا ما نجده في حياة العلماء وطلبة العلوم الدينية، ونظرة الناس الخاطئة لهذا الارتباط بين الدور وبين المظهر، فالعالم في رأي البعض إنما يكون كذلك إذا كان يلتزم بهذا الزي الخاص حتى وإن كان لا يملك من مقومات العالم إلا القليل، ولا يعتبر عالما من لا يلتزم بهذا الزي حتى وإن يملك مقومات العلماء.. بل إننا نجد هذه النظرة تمتد لتطال العالم نفسه حين يكون مرتديا ملابسه الرسمية يحصل على التقدير اكثر مما يكون لو نزعها- مؤقتا-.

نعتقد أن اهل البيت عليهم السلام قاموا بهذا التنويع لكي يبينوا للناس ضرورة التركيز على حقيقة الزهد، وحقيقة العلم، وحقيقة إظهار نعمة الله.. وهكذا كل حقيقة حسب موقعها.

وسوف نعرض الى عدد من الأحاديث في هذا المجال:

الرسول (صلى الله عليه واله وسلم): روي أنه كان يلبس من الثياب ما وجد من ازار ورداء أو قميص أو جبة أو غير ذلك، وكان يعجبه الثياب الخضر وكان اكثر لباسه البياض، وكان له قباء سندس يلبسه فيحسن خضرته على بياض لونه، وكانت له ملحفة مصبوغة بالزعفران وربما لبس الكساء وحده ولقد كان له كساء اسود فوهبه فقالت له ام سلمة: بأبي انت وامي ما فعل ذلك الكساء الاسود ؟!

قال: كسوته . فقالت: ما رايت شيئا قط احسن من بياضك على سواده [١٤٣].

وكان احيانا يمشي راجلا حافيا بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة كما في الخبر عندما

---

143 / المحجة البيضاءج ٤ ص.١٤.

ذهب لزيارة سعد بن عبادة [١٤٤].

والسجاد (عليه إلسلام) رآه احد اصحابه وهو لابس جبة خز ومطرف خــز وعمامــة خــر ومتغلف بالغالية، قاصداً مسجد جده الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كما رآه اخر وكان عليه دراعة وطيلسان ازرق ورآه احد اصحابه على حالين، ففي يوم كان قد لــبس المعــصفر، وبعده كان قد لبس كرابيس قد حزت في جسمه. فسأله عن ذلك فقال انه كان قريب عهــد بعرس وكان اليوم السابق يوم المرأة فاحب ان يتزين لها.

وكما يلبس تلك الثياب الثمينة والانيقة، فإنه في موقع آخر وهو يريد التعليم والارشاد الى اثر التأنق الكثير، وضرره الاخلاقي (الاحتمالي)، وما يخلفه على شخصية الضعفاء من اثــر انعدام التوازن.. فيترك لبس الانيق، فقد لبس ذات يوم ثيابا انيقة وثمينة، وخطى بها خطوات ثم عاد مسرعا وهو يقول لجاريته، ردي علي ثيابي (الاولى) فقد مشيت في ثيابي هذه فكاني لست علي بن الحسين [١٤٥].

كذلك فإنهم تنوعوا في اللبس والوانه– ما لم يكن ذلك اللون او النوع شعارا لاعــداء الدين كما سيأتي– فكما لبس الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كساء اسود، كذلك خرج اميرالمؤمنين (عليه السلام) الى رحبة الجامع وعليه خميصة سوداء، وكذلك الاصفر فقــد روى زرارة قال: خرج ابو جعفريصلي على بعض اطفالهم وعليه جبة خز صفراء وعمامة خز صفراء ومطرف خز اصفر [١٤٦] وهكذا الاحمر والازرق.

فعن الحكم بن عيينة قال رأيت ابا جعفر الباقر (ضليه السلام) وعليه ازار احمر، فأحددت النظر اليه فقال يا ابا محمد إن هذا ليس به بأس ثم تلا (قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق وعن سليمان بن رشيد عن ابيه قال: رأيت على ابي الحسن (عليه السلام) طليسانا ازرق [١٤٧].

---

144 / ا لمصدرج ٤ ص ١٢٦.

145 / عوالم العلوم/ الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) ص ١٣٦

146 / مكارم الأخلاق

147 / المصدر السابق.

٢/ القاعدة لبس النظيف والجميل:

اللباس ستر وزينة.. وبالتالي فهو في البعدين مظهر اجتماعي، إذ لا يمكن تصور الستر إلا مع وجود الآخر (الناس)، وكذلك الحال بالنسبة للزينة.. ولأنه مظهر اجتماعي فهو ينسجم مع متطلبات المجتمع، بينما إذا اقتصرعلى الجانب الفردي قد يتغير الامر، كما سنعرض لـــذلك في بحث الطعام والغذاء، حيث انه شأن فردي- عادة- بينما المظهر شأن اجتماعي - عادة- ونقول عادة لأننا لو فصلنا بين اللباس وبين الوجود الاجتماعي لأمكن لنا القول بغير العنوان المتقـــدم، ولقدمنا جانب الخشونة والزهد، كما هو مفاد عدد من الاحاديث التي تنقل انهم كانوا يلبسون في ظاهر الامر الملابس الناعمة بينما ما يشاعر اجسامهم كانت الملابس الخشنة، وكذلك الحال في الصلاة، واحيانا في البيت.

أما كون ما يلبس نظيفا فلضرورة انسجامه مع عدد كبيرمن الأحاديث الأمرة بالنظافـــة والتنظيف، ونحن نلاحظ انه حتى في الحالات التي ينقل فيها لبس المعصوم لباسا متواضعا فـــإن ذلك لا يعني انه وسخ، بل إننا نجد في الاحاديث صورا منفردة عن ادعياء الزهد الذين تـــشمئز النفس من صورهم المتسخة وملابسهم المدهنة وروائحهم القذرة كما اننا حين نلاحظ لـــسان الاحاديث نجد انها تربط بين التنظيف والتجمل من جهة وبين الأثار الناتجة عن ذلك، أو اخـــذ الصورة المعاكسة عندما تربط بمقابلها من التقذر واليك بعض هذه الاحاديث:

أ- الآثار العبادية:

نظرا لما تخلفه النظافة من طهارة سواء ا للشخص أو في اللباس) لذلك كان امر الرسول المكـــرر بالنظافة لأن الاسلام بني على النظافة، سواء نظافة الظاهر كما نحن فيه او نظافة الباطن، فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):

(تنظفوا بكل ما استطعتم فإن الله تعالى بنى الإسلام على النظافة ولن يدخل الجنة إلا كل نظيف) وذلك (إن الله طيب يحب الطيب ونظيف يحب النظافة) وكما ان الشخص إذا تطهـــر ونام استغفر له ملك من الملائكة، فإن الاثر نفسه يكون موجودا في الثوب النظيف فقد قـــال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (يا عائشة اغسلي هذين الثوبين أما علمت ان الثـــوب

يسبح فإذا اتسخ انقطع تسبيحه) [١٤٨]، وقد لا نستطيع ان نعرف كيفية تسبيح الثوب لكن الحديث يكشف لنا عن علاقة ما بين العبادة ونظافة الثوب. من هنا كان (من اخلاق الانبياء التنظف) [١٤٩].

ب- الآثار النفسية والاجتماعية:

يتفاعل الانسان (تأثيرا وتأثرا) مع الوسط المحيط به، فكما يشعر بالنشاط والحيوية عندما يكون في جو معتدل وطبيعة جميلة كذلك فإن (النظيف من الثياب يذهب الهم والحزن) كما يقول امير المؤمنين (عليه السلام)، وهذا الامر ملموس في الواقع الاجتماعي. إضافة إلى ذلك ف (إن الله يحب الجمال والتجمل ويكره البؤس والتباؤس، فإن الله عز وجل إذا انعم على عبده نعمة احب ان يرى عليه اثرها.. قيل: وكيف ذلك ؟! قال الصادق (عليه السلام): ينظف ثوبه ويطيب ريحه ويحسن (او يجصص) داره ويكنس افنيته، حتى ان السراج قبل مغيب الشمس ينفي الفقر ويزيد في الرزق).

كما ان التنظف والتجمل باعتباره مظهرأ اجتماعيا يؤثر تأثيرأ معينا في اظهار صورة الشخص والمجتمع أمام العدو، فكما ان التنظيف والتجمل يسر الصديق فـ (الثوب النقي يكبت العدو) كما عن الصادق (عليه السلام) ذلك ان (اللباس يظهر الغنى والدهن- الطيب- يذهب البؤس).

ولأن هذه المظاهر ذات اثر على شخصية المرء حيث انه لا ينال من الاحترام ما يستحقه لذلك ذم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هذا النوع من الناس قائلا (بئس العبد القاذورة) و(هلك المتقذرون) والملاحظ ان هذه القضية لا ترتبط بالفقر وانما ترتبط بالدرجة الاولى بقلة الذوق، او بسوء الرؤية - الثقافية- أو بالكسل، لذلك تابع الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) بالتوجيه لهذا النوع من الحالات، فعن جابر بن عبد الله قال: اتانا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فرأى رجلا شعثأ قد تفرق شعره، فقال (اما كان يجد هذا ما يسكن به شعره) ورأى رجلا آخر عليه ثياب وسخة فقال: (اما كان هذا يجد ماء يغسل به ثوبه) [١٥٠] ؟!.

---

[148] / ميزان الحكمة / ١٠

[149] / بحار الأنوارج ٧٨ ص ٣٣٥.

[150] / ميزان الحكمة ج. اص ٩٢.

ولا تناقض بين هذه المجموعة من الاحاديث وبين تلك التي توجه الى ان الجمال انما هو بالعقل وحسن المنطق، والسكينة والوقار، فكل مجموعة تناقش موضوعا خاصا ويجمعهما إن (حسن الصورة جمال ظاهر وحسن العقل جمال باطن).

وينبغي ان نشير الى ان النظافة والتجمل لا تتلازم مع الاسراف كما هو المتبادر الى البعض وهذا مفاد استغراب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أما كان يجد ماء ؟! أما كان يجد ما يسكن به شعره ؟! مما يفيد سهولة تناولها، إضافة الى ان التجمل، عبارة عن استخدام الذوق الرفيع في ترتيب اللباس او الشكل الظاهري، فقد ينفق شخص اموالا كثيرة على ملابسه ولكنه- لانعدام ذوقه- لا يستطيع ان يتجمل، وقد يلبس آخر ملابس بسيطة القيمة، ولكنها - بذوق سليم- تصبح جميلة ومتناسقة.

بعد هذا العرض نرجع الى بداية الموضوع حيث قلنا إن القاعدة عند اهل البيت إعليهم السلام) فيما نفهم في مسألة المظهر، لكونه حالة اجتماعية، انهم كانوا يلبسون النظيف والجميل، وقد يكون ذلك بسيط القيمة أو ثثيرها، تبعا للمقدمات التي مر ذكرها في بداية البحث، إلا انه يوجد في هذه القاعدة استثناءات تفرضها ظروف معينة تغير هذه القاعدة الى عنوان آخر.

أ- ظروف تتعلق بالموقع القيادي الذي يحتله المعصوم: ذلك ان هذا الموقع يفرض على الحاكم- بالتحديد- ان يقيد نفسه بتقاليد وقوانين خاصة محافظة منه على الرضع الاجتماعي، ولعلنا نلمس من حوار امير المؤمنين (عليه السلام) مع العلاء بن زياد الحارثي إذ شكا الاخير للإمام اخاه عاصما قائلا: يا امير المؤمنين اشكو اليك اخي عاصم بن زياد. قال: وما له ؟! قال: لبس العباءة وتخلى عن الدنيا، فقال: علي به!! فلما جاء قال له: يا عذي نفسه.. لقد استهام بك الخبيث أما رحمت اهلك وولدك ؟! أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره ان تأخذ منها ؟ انت اهون على الله من ذلك!! قال: يا امير المؤمنين، هذا انت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك ؟ قال: ويحك اني لست كأنت، ان الله فرض على أئمة العدل ان يقدروا انفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره [١٥١].

والحاكم الشرعي- الفعلي- هو الذي يأخذ نفسه بالاصعب، وبالرغم من وجود هذه التعاليم إلا أننا وجدنا ان كثيرا من حكام المسلمين كانوا يتجاهلونها، فكيف لو لم تكن ؟!

---

151 / نهج البلاغة حكم ٢٠٩.

ب- ظروف تتعلق بالحالة المادية العامة للناس، إذ قد تمر على المجتمع ظروف شدة وقحط وجدب ، وهنا ليس معقولا ولا مقبولاً من الحاكم ان يتزين و(يكشخ) في هيئته وملبسه بينما جموع الناس تعاني الامرين!!

ي- حالات ارشادية وتعليمية تربوية وقد مر ذكرها في طيات الاحاديث السابقة.

ج- الملابس المذمومة:

سوف لن نقوم باستقصاء كل المفردات الواقعة تحت هذا العنوان، ففي الفقه يبحث الفقهاء عادة، عددا من المفردات المرتبطة بهذا العنوان، كلبس الذهب والحرير بالنسبة للرجل أو لباس الرجل ملابس المرأة المختصة بها وبالعكس ، وسائر المفردات الاخرى سواء حين الصلاة أو مطلقا. لكننا هنا سنتحدث عن مفردات اخرى منها:

* لباس اعداء الدين:

قد يتحول اللباس الى شعار، والى انتماء لجهة، وآنئذ فيحكم بحكمها. وقد يكون عاما دونما (شعارية) إننا نجد في الاحاديث ان السواد مثلا من الملابس غير المرغوبة وغير المحبذة لا لأنه يدل على الحزن كما هو المتعارف حالياً، وانما لأنه كان- آنئذ- شعاراً لدولة بني العباس وحكومتهم والتزي بهذا اللون من اللباس كان يعني- فيما يعني- التأييد السياسي، والانسجام معها.. ولهذا السبب فإن المأمون بعد ان توفي الإمام الرضا (عليه السلام) ولتقريب العباسيين المناوئين له، من جديد عدل عن شعار الخضرة، واللباس الاخضر الذي كان متعارفا انه لباس العلويين [١٥٢] إلى الاسود الذي كان شعار العباسيين، ونحن نلاحظ حالة (الشعارية) في السواد، عندما نقرأ في تاريخ تلك الفترة أن العباسيين بعد ان ترك المأمون السواد واتخذ الخضرة اعظموا ذلك وكلموه ليغيره الى السواد ففعل ذلك، كما يقول المسعودي في مروجه.

كذلك فإننا نلاحظ ايضا أن من حكم كراهة التختم في اليسار، واستحبابه في اليمين أن حكام الجور اتخذوه شعارا في اليسار بينما كان شعار المعصومين في اليمين، فقد كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يتختم في اليمين فجعله معاوية في اليسار واخذ الناس كذلك الى أيام السفاح العباسي فغير ذلك الى اليمين، وبقي هكذا إلى أيام الرشيد حيث اصبح التختم في

152 / بالرغم من وجود مناقشة في كون الخضرة شعار العلويين.

اليسار واخذ الناس بذلك [153] .

ونجد في التاريخ الحديث ايضأ مثالا مشابهأ لذلك حيث قام اتاتورك في تركيا ضمن حملته لتغريب المسلمين هناك بخطوات منها استبدال الحروف العربية باللاتينية ومنها ايضا منع الحجاب على النساء وإلزام الرجال بالزي الغربي (البدلة والطربوش) وتحريم العمامة.

إن اللباس إذا اصبح ترويجا لثقافة اعداء الدين، وشعارا لنفوذهم، وانتماءا الى ثقافتهم وطريقتهم، يغدو خطرا كبيرأ يهدد شخصيته الإنسان المسلم في ثقافته ويهدد المجتمع الاسلامي بفقدان استقلاله وانتماء ابنائه اليه.

وربما يكون السبب الذي حدا ببعض علماء المسلمين في اوقات سابقة الى تحريم اللباس (الافرنجي اصطلاحا)، او تحريم رباط العنق لكون هذا اللباس في تلك الفترات يعتبر تشبها بالكفار، والتزاما بثقافتهم وشعارهم، وهذا الامر يدور مدار (شعارية) الزي و(تشبه) المسلم بالاجنبي.

* لباس الإثارة:

الخارج عن مذاق الشرع أو رأي العرف المتدين، فقد سبق ان بينا ان الدور الأساسي للملابس إنما هو الستر (.. يواري سوءاتكم) ثم الزينة (قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده) ومن الستر الوقاية من عوامل المناخ المؤذية لصحة الانسان، غير انه يحدث ان تتضخم الاعتبارات الاجتماعية الخاطئة او حاجة الإنسان- ذكرا كان أو انثى- لاثارة اهتمام الجنس الاخر، فيصبح همه آنئذ ان يلبس حسب رغبة الآخر وقد لا يعجب اللابس شخصيا هذا النوع او اللون ولكنه لاثارته الطرف الاخر لذلك يعود نفسه عليه، ولك ان تتصور التسابق الذي يحصل لهذه الغاية.. إن الجميع عندما يختزل جهده في الإثارة، يتحول بنسبة او باخرى الى (مانيكان) أو (عارضة ازياء) دون قبض اجر. هذا إضافة الى الأضرار والمفاسد الاجتماعية والتجاوزات التي ستنتج عن محاولات سير المجتمع أو بعض فئاته في معادلة الإثارة هذه.

* لباس الشهرة:

ينظر الإسلام إلى المسلم وهو يعيش في المجتمع وهو بهذا الاعتبار يريده فعالا ومؤثرا فيه، مما يتطلب منه ان يكون على علاقة انسجام معه، إذ أن علاقة العداء مع المجتمع أو الانعزال عنه تمنعه من القيام بدوره ومسؤوليته. والإسلام يعطي للمسلم مساحة واسعة على صعيد التكتيك لتسهيل

153/ بحار الأنوارج ٤٢ص ٦٢

التحرك بينما يطلب منه التصلب فيما يرتبط بالمبادىء. ففي مسألة اللباس – نظرا لكونه احـــد عوامل الانسجام– يقول له (خير لباس كل زمان لباس اهله) اي المتعارف مـــن لباســـهم. لأن استخدام هذا اللباس المتعارف يجعل مهمته سهلة ويسيرة.

بينما الخطأ الذي يقع فيه البعض من العاملين الهم يضيعون المبادىء بعدم انسجامهم مع المجتمع عندما يصرون ويتصلبون على امور تكتيكية لا أهمية لها إلا من جهة كونها وسيلة واسلوبا.

فما نجده اليرم من التقصير الفاحش للثياب والذي يتبعه بعض المسلمين بحيـــث يحـــول الثوب الى (تنورة رجالية قصيرة) ، ويتحول هذا العامل الى اضحوكة بين الناس ومادة للتنذر والسخرية انما هو خطأ في الاستراتيجية وصواب في التكتيك، فيضيعون بذلك امكانية هدايـــة الناس (وهي هدف اساسي) لصالح تقصير الثوب وهو (مستحب في احسن الفروض). بينمـــا الحديث المتقدم المروي حاكم على بقية الاحاديث .

وقد يكون لهذا السبب وردت احاديث ذم ثياب الشهرة، بل كل ما من شأنه ان يخلق سمعة سيئة– فعن الصادق (عليه السلام): (إن الله يبغض شهرة اللباس)، وفي حديث آخر يعلل سبب ذلك بأنه ينتج المذلة والخزي: (كفى بالمرء خزيا ان يلبس ثوبا يشهره أودابة تشهره).

وفي ذلك تدخل ايضاً ثياب الصوف (الخاصة) التي يتخذها ادعياء الزهد مصيدة للسذج والبسطاء من الناس، يدفعهم الى ذلك الرياء، وقد مرت قبلئذ– روايات نـــاقش فيهـــا الإمـــام الصادق اولئك الرجال وفضح نياتهم (.. ولو فعلنا لقالوا مجنون ولقالوا مراء..).

د– المسألة العملية والواقعية:

هناك بعض التوجيهات الدينية في الاحاديث يصح ان نطلق عليها اســـم التوجيهـــات الحياتية وبالرغم من ان التوجيهات الدينية في مجملها حياتية (يا أيها الذين آمنوا اســـتجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) إلا ان هناك فرقا في متعلقات هذه التوجيهات. فالأمر بصلاة الليل مثلا يختلف عن الأمر بعدم النوم على سطح غير مسور.. إذ ان الأمر الأول إلهي خالص لا تتدخل فيه التجربة البشرية من قريب أو بعيد بينما الأمر الثاني يمكن الوصول إليه من خـــلال العقل، وتجارب البشر أيضا.

وبالرغم من أن المهمة الاساسية للرسالات هي بيان الجانب الخفي الذي لا يصل اليه الإنـــسان بعقله المجرد، إلا ان الجانب الاخر ليس بعيدا عن الدائرة، فهناك عدد من الاحاديث تندرج تحت

عنوان (الأداب والسنن) ونحن نلاحظ ايضا هذا النوع من الاحاديث في موضوعنا ففي جواب الإمام الكاظم (عليه السلام) لمن سأله هل من السرف ان يكون للرجل عشرة اقمصة ؟! قال: لا ولكن ابقى لثيابه.. السرف ان تجعل ثوب صونك في المكان القذر، وفي رواية اخرى عن الصادق (عليه السلام): السرف ان تجعل ثوب صونك ثوب بذلتك.

فإننا نجد هنا أن المسألة تتناول القضية الواقعية في الخارج، وتشير اليها فمن الواضح اننا عند الموازنة بين شخصين احدهما يستخدم ثلاثة ثياب ويلبسها باستمرار خلال سنة، وبين آخر يستخدم ستة ثياب .. إننا مع الاول سوف نحتاج الى اكثر من ستة ثياب نظرا لاستهلاك كل واحد في فترة قصيرة لكثرة استخدامه بينما في الثاني لن نحتاج الى ذلك، وهذا مجرب عند الناس.

لذا ففي نفس الوقت الذي تكون فيه القواعد حاكمة في هذا الجانب: أن لا يكون من ملابس اعداء الله وشعارهم وأن لا يكون ثوب شهرة، وان يكون ساترا وان يكون من لباس اهل الزمان لأن (خير لباس كل زمان لباس اهله) ، إضافة إلى ذلك أن يكون عملياً سواء في استخدامه وهذه من المسائل الحياتية العامة التي توجه اليها الاحاديث.

إلى هنا ينتهي بنا المطاف .. بعد هذا العرض – لأحوال المعصومين (عليهم السلام) في حياتهم الاجتماعية ، واحد مظاهرها كان الملابس .

الطعام والشراب

الناظر الى حياة المعصومين (عليهم السلام) يرى أنهم قد اتخذوا موقفا واحدا فيما يرتبط بالطعام والشراب، وذلك الموقف هو مضادة التوجه الى الشبع والاكثار منهما.

ذلك أن ابرز صورة لتوجه الزهد وترك الدنيا هو الموقف من متطلبات البطن وضغوطه.

والفرق بين البحث السابق وما وصلنا اليه من ان الاصل هناك كان التجمل واظهار نعمة الله، وبين بحثنا هذا والذي نفترض فيه العكس، الفرق هو ان اللباس وما يتصل به من تطيب وتأنق هومظهر اجتماعي قبل أن يكون امرا ذاتيا، باعتبار حضور المعصومين (عليهم السلام) في الساحة الاجتماعية، ولعله لو كان امرا شخصياً لكان الموقف يختلف كما ذكرنا في الصفحات السابقة.

بينما قضايا الطعام والشراب عادة شخصية، وأدعياء الزهد والتقشف كانوا يعكسون المسائل فيجعلون مظهرهم الخارجي دالا على زهدهم بينما في واقعهم الذاتي يطلقون في الدنيا همهم.

ونستطيع ان زفهم موقف المرء من الدنيا من خلال نجاحه في هذا الامتحان القريب اليومي فقد يستطيع البعض التظاهر بالزهد والعبادة- مثلا- أمام الناس من خلال الملابس، وكثرة الاذكار، وينجح في إعطاء هذه الصورة عنه ولكنه لا يستطيع ان يستمر على ترك الطعام الطيب والشراب، وهو شأن شخصي، يخفى عادة على الناس.

لذلك نستطيع أن نقول ان الاصل العام الذي كان يتبعه أهل البيت (عليهم السلام) ما يقدمه امير المؤمنين (عليه السلام) كنموذج في وصفه لصديق له: (كان خارجا من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد).

ولا يعني ذلك انهم كانوا يحرمون اطايب الطعام أو يجتنبونها استقذارا.. فمن المأثور انهم كانوا يأكلون ويشربون الطيب- كما سيأتي- ولكن الاصل العام انهم كانوا يتعاملون مع انفسهم بروح القناعة ويعتبرون رسالتهم ليست في ملأ البطن، وانما لا يعيشون لكي يأكلوا بل يأكلون ما يحفظ حياتهم لأداء دورهم.. ويبدو أن هذا الخط هو امتداد لخط انبياء الله العظام الذين لخصوا وجودهم في رسالتهم، بينما لخص الفراعنة والجبابرة والمترفون وجودهم في بطنهم وماتحته!

لنقرأ كيف يصف امير المؤمنين (عليه السلام) تعامل اصحاب هذا الخط مع الدنيا ومطاعمها ومشاربها، وفي طليعتهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):

ولقد كان في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كاف لك في الاسوة، ودليل لك على ذم الدنيا وعيبها، وكثرة مخازيها ومساويها، إذ قبضت عنه أطرافها، ووطئت لغيره أكنافها، وفطم عن رضاعها، وزوي عن زخارفها. وإن شئت ثنيت بموسى كليم الله حيث يقول: " رب إني لما انزلت إلي من خير فقير ". والله ما سأله إلا خبزا يأكله، لأنه كان يأكل بقلة الأرض، ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه، لهزاله وتشذب لحمه.

وإن شئت ثلثت بداوود صاحب المزامير، وقارىء أهل الجنة، فلقد كان يعمل سفائف الخوص بيده ويقول لجلسائه: أيكم يكفيني بيعها! ويأكل قرص الشعير من ثمنها.

وإن شئت قلت في عيسى بن مريم (عليه السلام)، فلقد كان يتوسد الحجــر، ويلــبس الخشن، ويأكل الجشب، وكان إدامه الجوع، وسراجه بالليل القمر، وظلاله في الشتاء مــشارق الارض ومغاربها. وفاكهته وريحانه ما تنبت الارض للبهائم، و لم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولــد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يذله دابته رجلاه، وخادمه يداه!

فتأس بنبيك الاطيب الاطهر (صلى الله عليه وآله وسلم) فإن فيه اسوة لمن تأسى وعــزاء لمــن تعزى. وأحب العباد إلى الله المتأسي بنبيه والمقتص لأثره. قضم الدنيا قضما، و لم يعرها طرفــا أهضم أهل الدنيا كشحا، واخمصهم من الدنيا بطنا. عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها، وعلم أن الله سبحانه أبغض شيئا فابغضه، وحقر شيئا فحقره، وصغر شيئا فصغره. ولو لم يكن فينــا إلا حبنا ما أبغض الله ورسوله، وتعظيمنا ما صغر الله ورسوله، لكفى به شقاقا لله، ومحادة عن أمر الله. ولقد كان (صلى الله عليه وآله وسلم) يأكل على الارض ويجلس جلسة العبد، ويخــصف بيده نعله، ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري، ويردف خلفه، ويكون الستر على باب بيته فتكون فيه التصاوير فيقول: " يا فلانة- لإحدى أزواجه- غيبيه عني، فإني إذا نظرت اليه ذكرت الدنيا وزخارفها ". فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها من نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها رياشا، ولا يعتقدها قرارا، ولا يرجو فيها مقاما، فأخرجها من النفس وأشخصها عن القلب، وغيبها عن البصر، وكذلك من أبغض شيئا أبغض أن ينظر إليــه، وأن يذكر عنده.

ولقد كان في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما يدلك على مــساوىء الــدنيا وعيوبها: إذ جاع فيها مع خاصته، وزويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته فلينظر ناظر بعقلــه: أكرم الله محمدا بذلك أم أهانه! فإن قال: أهانه، فقد كذب والله العظيم- بالإفك العظيم، وإن قال: اكرمه، فليعلم أن الله قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له، وزواها عن أقرب الناس منــه. فتأسى متأس بنبيه، واقتص اثره، وولج مولجه، وإلا فلا يأمن الهلكة فإن الله جعل محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) علما للساعة ومبشرا بالجنة، ومنذرا بالعقوبة. خرج من الدنيا خميــصا وورد الآخرة سليما. لم يضع حجرا على حجر، حتى مضى لسبيله، وأجاب داعي ربه. فما أعظم منة الله عندنا حين أنعم علينا به سلفا نتبعه، وقائدأ نطأ عقبه والله لقد رقعت مدرعتي هــذه حــتى استحييت من راقعها ولقد قال لي قائل: ألا تنبذها عنك فقلت: اغرب عني، فعند الصباح يحمد

القوم السرى [154].

إننا نعتقد ان الانسان لا يبقى في حياته في فراغ، فلا بد أن يكون ذا رسالة اذا لم تكن تلك الرسالة محورها الدين أو المجتمع فإن محورها يصبح الذات والشهوات وبذلك نستطيع التمييز بين صنفين من الناس: صنف يجهد ويكد ويكدح ويقاتل- احيانا- لكي يحصل بالتالي على طعام لذيذ وفراش وثير وزوجة حسناء، وصنف آخر يفكر في الهدف الذي خلق لأجله، وسواء حصل على تلك الامور في الطريق أم لم يحصل عليها فالأمر عنده سيان (فما خلقت ليشغلني اكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها او المرسلة شغلها تقممها تكترش من اعلافها وتلهو عما يراد بها) كما يقول امير المؤمنين (عليه السلام)، ونظرته لما يملأ بطنه كان يؤكد عليها في أكثر من موضع، فقد أكل من تمر دقل (رديء) ثم شرب عليه الماء وضرب يده على بطنه وقال: من ادخل (أو أدخله) بطنه النار فأبعده الله ثم تمثل قائلا:

وإنك مهماتعط بطنك سؤله   وفرجك نالامنتهى الذم اجمعا [155](١)

ويجب ان يكون واضحا أن المعصومين (عليهم السلام) كانوا في نفس الوقت يغدقون من عطائهم على الناس، ولكنهم فيما يرتبط بأنفسهم يكتفون بالقليل، فالإمام الحسن (عليه السلام) وهو كريم أهل البيت- وكلهم كرماء- يتمثل بالشعر المعروف:

لكسرة من خسيس الخبز تشبعني   وشربة من قراح الماءتكفيني

وطمرة من رقيق الثوب تسترني   حيا وإن مت تكفيني لتكفيني[156] (٢

وسيأتي في الصفحات القادمة ما يرويه مسروق عن زهد الإمام الحسين (عليه السلام) الذي كان صائما في يوم عرفة، وكان افطاره قدح سويق !

وأما علي بن الحسين (عليه السلام) فإذا كان اليوم الذي يصوم فيه يأمر بشاة فتذبح وتقطع اعضاؤها وتطبخ، فإذا كان المساء اكب على القدور حتى يجد ريح المرق وهو صائم ثم يقول: هاتوا القصاع.. اغرفوا لآل فلان، واغرفوا لآل فلان حتى يأتي على اخر القدور ثم يؤتى بخبز

---

154 / نهج البلاغة خطبة ١٦٥

155 / سفينة البحارج اص ٢٧

156 / بحار الأنوارج ٤٣ ص ١ ٣٤.

وتمر فيكون ذلك عشاءه [157] (٣)..

وكذلك ما يروى عن الإمام الرضا (عليه السلام) من انه كان قليل النوم بالليل كثير الصوم وبالرغم من كونه في موقع ولاية العهد حيث لذائذ الاطعمة والاشربة متوفرة، إلا انه (كان خفيف الاكل قليل الطعام). هذا هو النموذج الذي نراه في حياة اهل البيت (عليهم السلام) كأصل عام، وكامتداد لخط الرواد من انبياء الله واوصيائهم..

وهذا هو المتبع فيما يرتبط بالمسألة الذاتية، إلا الهم (عليهم السلام) ونظرا لكونهم موضعا للاقتداء، لذلك فإن اعمالهم تكتسب طابع السنة، لذلك وجدناهم انطلاقا من هذه الخلفية- وكما تقدم ايضا من البحث السابق- يقومون ببعض الاعمال التي لا تقصد بذاتها وانما:

* للتشريع: ولتوضيح الحكم الشرعي المرتبط بالقضايا الخارجية، ذلك الهم لو لم يقوموا مثلا بأكل هذا الطعام أو ذاك لحدثت شبهة في جواز اكله وعدم الجواز.

فقد جاء بعض اصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) اليه يوما بفالوذج فاكل منه، وقال: مم هذا يا ابا عبد الله ؟! فقال: بأبي انت وامي نجعل السمن والعسل في البرمة (قدر حجري) ونضعها على النار ثم نقليه ثم نأخذ مخ الحنطة إذا طحنت فنلقيه على السمن والعسل ثم نسوطه حتى ينضج فيأتي كما ترى. فقال (صلى الله عليه واله وسلم) إن هذا الطعام طيب [158]. وكذلك أتي امير المؤمنين (عليه السلام) بخوان فالوذج فوضع بين يديه فنظر الى حسنه وصفائه فوجأ باصبعه (حتى بلغ أسفله ثم سلها و لم يأخذ منه شيئا وتلمظ اصبعه ولعقه) وقال (عليه السلام): إن الحلال طيب وما هو بحرام لكني اكره ان اعود نفسي ما لم اعودها ارفعوه عني ، فرفع [159].

وحين يقوم بعض المتقدسين بتحريم طيبات ما انزل الله، واستقذار نعمه يرد عليهم المعصومون (عليهم السلام).. فالاشكال ليس في اكل الطيب ، حتى يدعى خبثه وانما في استعباد بطن الآكل له، بحيث يكون كل همه وسعيه من اجل اكل هذا النوع، فقد رأى الإمام الحسين (عليه السلام) رجلا يعيب الفالوذج فقال (عليه السلام): لعاب البر بلعاب النحل بخالص السمن

---

157 / بحار الأنوار ج ٤٦ ص ٧٢

158 / سفينة البحار ج اص.٧٥

159 / مكارم الأخلاق ١٦٩

ما عاب هذا مسلم [160].

وهذا يفتح نافذة على موضوع (الذوق) فالبعض يفكر ان المعصومين (ع) ومن ورائهم المؤمنين لا يستطيعون الوصول الى الاطعمة اللذيذة والاشربة الهانئة وكذلك لا ذوق لهم، لذلك يحرمون على انفسهم هذا الطعام وذاك، ويجتنبون عن اللذائذ، لأنهم لا يستطيعون من جهة ولأن ذوقهم غير سليم. ولكن هذه الفكرة خاطئة إذ (لو شئت لاهتديت الطريق الى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذا القز.. ولكن هيهات ان يغلبني هواي او يقودني جشعي الى تخير الاطعمة..) إضافه الى انهم كانوا يرونه طيبا، ولذيذا- كما تقدم- لكنهم يكرهون تعويد انفسهم عليه.

ومن باب التشريع ايضا، ولتقديم نموذج كامل عن تعاليم الإسلام وجدنا المعصومين (عليهم السلام) يتخذون كلتا الطريقتين أمام الناس، فاحدهم ياخذ نفسه بالعسير ويقبل على الصوم وحين يأكل، يأكل الجشب، بينما يأخذ الثاني نفسه بالتوسعة فيأكل من الاطعمة اللذيذة وذلك لجعل الناس في سعة، ولتعريفهم أن كلتا الطريقتين- بحدودهما الشرعيه- مقبولة دينيا، وربما لو كان المعصومون يؤكدون على طريقة واحدة فقط لكنا في شبهة من جواز الثانية ولعل ما يروى من افطار وجودة طعام الحسن (عليه السلام) وصوم وقلة طعام الحسين (عليه السلام) ما يرشدنا الى هذه الحقيقة.

فقد روي عن مسروق قال: دخلت يوم عرفة على الإمام الحسين (عليه السلام) فوجدت عنده اقداح سويق، وكان اصحابه يقرؤون القرآن، منتظرين وقت الافطار، فسألته عدة مسائل كانت عندي فلما اجاب عليها خرجت، وذهبت الى الإمام الحسن (عليه السلام) فرأيت الناس عنده وقد هيئت سفر الطعام الطيب، وهم يأكلون ويأخذون معهم، فلما رأيت ذلك تأثرت، ونظر الي الإمام الحسن قائلا: يا مسروق لم لا تأكل ؟! قلت: اني صائم وقد ذكرت شيئا.. فقال قل!! ما خطر ببالك.

فقلت: اعوذ بالله ان يكون بينك وبين اخيك اختلاف!! دخلت على الحسين فرأيته صائما منتظرا للإفطار ودخلت عليك فرأيتك على هذه الحال.

---

160 / المصدر السابق.

لما سمع الإمام ذلك ضمني الى صدره وقال: بابن الاشرس ألم تعلم ان الله جعلنا مقتديي الامة ؟! فجعلني مقتدى المفطرين وجعل اخي مقتدى الصائمين لتكونوا في سعة [١٦١].
فأنت ترى ان الإمام يمضي كلتي الطريقتين ليكون الناس فى سعة، وإن كانوا يفضلون لوكـــانوا وحدهم- كما قلنا- التخشن والاكتفاء بترر الطعام.
ميراث البطنة:

وجه اهل البيت (عليهم السلام)، ومن قبلهم خط الانبياء والرسل في التاريخ وجهـــوا اتباعهم الى قلة الاكل والاجتناب عن البطنة والشبع، لا من الحرام. فذاك محرم قليله وكثيره، بل من الحلال المباح. وكانوا هم السباقين، في التطبيق كما بينا آنفا، لا من باب التحريم الشرعي، بل لما تخلفه قلة الاكل من آثار على شخصية الإنسان من صحية ونفسية، وعبادية، مما اصطلح عليه في الاحاديث بميراث الجوع وميراث الشبع والبطنة.

١- قلة الفاعلية والكسل عن الطاعة:

يؤدي الاكثار من الطعام والشراب الى الثقل والتكاسل عن أداء المسؤوليات والطاعات. ونستطيع ان نجد هذا بوضوح في سيرة الناس فى المجتمع، فذلك الشخص الذي يتناول طعامـــه بتوسط، او يقلل من اكله يبقى على حالة عالية من النشاط والحركة، عكس ذلك الذي يأكل فوق شبعه، فيشعر بالنعاس عادة ويحل عليه الخمول.

ففي الحديث المروي عن المسيح (عليه السلام): (يا بني اسرائيل لا تكثروا الاكل فانه من اكثر الاكل اكثر النوم ومن اكثر النوم اقل الصلاة ومن اقل الصلاة كتب من الغافلين) .

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): إياكم وفضول المطعم فإنه يسم القلـــب بالفضلة ويبطيء بالجوارح عن الطاعة ويصم الهمم عن سماع الموعظة [١٦٢].

وعن الامام الصادق (عليه السلام): (في حديث جرى بين يحيى (عليه السلام) وابليس): فقال له يحيى ؟! ما هذه المعاليق فقال ابليس: هذه الشهوات التي اصيب بها ابن آدم، فقال: هل لي منها شيء ؟! فقال: ربما شبعت فشغلناك عن الصلاة والذكر.

---

[161] / منتهى الامال الشيخ عباس القمي ج اص ٥ ٣٤.

[162] / ميزان الحكمة ج اص ١١٧

قال: فإن لله علي ان لا املأ بطني من طعام ابدا. وقال ابليس: لله علـــي ان لا أنـــصح مسلما ابدا. ثم قال ابو عبد الله (عليه السلام): لله على جعفر وآل جعفر ان لا يملؤوا بطونهم من طعام ابدا ولله على جعفر وآل جعفر ان لا يعملوا للدنيا ابدا [١٦٣].

٢- سوء الصحة وسقم البدن:

ينصح الاطباء- دائما- للمحافظة على تعادل الجسم وبقاء الصحة ، بالاعتدال في تناول الاطعمة، والقيام عن الطعام مع وجود الرغبة اليه واشتهائه. ذلك ان أعضاء هذا الجسم قـــدرة محدودة في استيعاب الاطعمة الواردة اليه، فالمعدة لها قدرة محدودة، والدم له قدرة محدودة علـــى الاستفادة من فوائد الاغذية المهضومة. ويتصور البعض- خطأ- انه كلما زاد اكله، فإن بدنـــه يزداد قوة!! وربما يستدل على ذلك بان وزنه قد كسر المعدل الاعتيادي و(الميزان احيانا) بينما يجهل أنه يختزن في جسمه قنابل سمية وشحمية، تتفجر تدريجيا بعد الاربعين في صـــورة زيـــادة ضغط الدم، والكوليسترول، وسائر الامراض الاخرى التي تسمى (امراض المدنية).

وقد يكون الامر مثيرا للتعجب أننا نجد الفقراء ومتوسطي الحال- عادة لا يمرضـــون لا بمقدار امراض المترفين ولا بنوعية امراضهم، ذلك انه ا لا يجتمع الصحة والنهم). وقد اشـــارت الاحاديث الى هذا الجانب:

- فعن أبي الحسن (الكاظم) (عليه السلام)، لو ان الناس قصدوا في الطعام لاعتدلت ابدانهم.

وحذرت من ادمان الشبع والبطنة لانها لجلب الاسقام: فعن امير المؤمنين (عليه السلام): (إيـــاك وادمان الشبع فانه يهيج الاسقام ويثير العلل)، و(إياك والبطنة فمن لزمها كثرت اسقامه).

وعن الإمام الرضا (عليه السلام) موضحا ان زيادة الطعام لا تنفع لعدم استيعاب الجسم لها: من اخذ من الطعام زيادة لم يغذه ومن اخذه بقدر لا زيادة فيه ولا نقص في غذائه نفعه وكذلك الماء فسبيله ان تأخذ من الطعام كفايتك وارفع يديك منه ولك اليه بعض القرم (الشوق) وعندك اليه ميل فإنه اصلح لمعدتك وبدنك وازكى لعقلك واخف لجسمك [١٦٤].

ولنقرأ ما يقوله الطب في هذا المجال:

---

163 / نفس المصدر

164 / ميزان الحكمة ج اص ١٢٣

مضار الإسراف بنوع من الأطعمة:

ا- السمنة: وهو المرض الخطير الذي نجده غالبا في أبناء الطبقات الغنية وعند أصحاب الوظائف الكسولة، ويحصل نتيجة الإكثار من الطعام، وخاصة السكاكر والدهون وبشكل خاص عند الافراد الذين لديهم استعداد إرثي.

والسمنة في الواقع مرضق بشع يحد. من إمكانات الفرد ونشاطاته بشكل كبير، كما يؤهب أو يشارك بعض الأمراض الخطيرة، كاحتشاء العضلة القلبية، وخناق الصدر، والداء السكري، وفرط توتر الدم وتصلب الشرايين ٤ وكل هذه الامراض هي اليوم شديدة الشيوع في المجتمعات التي مالت الى رفاهية الطعام والشراب.

٢- نخر الأسنان: وهو أيضا من الأمراض الشائعة بسبب الإكثار من تناول السكاكر الاصطناعية خاصة التي تسمح بتخمرها للعصيات اللبنية بالنمو في جوف الفم.

٣- الحصيات الكلوية: وهي اكثر حدوثا- عند الذين يعتمدون بشكل رئيسي على تناول اللحوم والحليب والجبن.

٤- تصلب الشرايين وهو داء خطير يشاهد بشكل ملحوظ عند الذين يتناولون كميات كبيرة من الدسم، حيث يصابون بفرط تدسم الدم.

٥- النقرس " داء الملوك : وهوألم مفصلي يأتي بشكل هجمات عنيفة وخاصة في مفاصل القدم والإبهام. ويشاهد أكثر عند اللذين يتناولون كميات كبيرة من اللحوم [١٦٥].

ويرى د. صبري القباني:

أن ضعف الجسم ووهنه لا يأتيان- فقط- من قلة التغذية، بل قد يتسبب الافراط بالتغذية في النتيجة نفسها، وكثير من الامراض التي تدهم الإنسان على غير توقع وكثير من الليالي التي يقضيها مؤرقا أو تحت ضغط كابوس مخيف، وكثير من الظواهر المرضية الدالة على اختلال توازن المعادن فى الجسم، كثير من هذا كله يكون مرده الى الإفراط في التغذية [١٦٦].

٣- خمود الإبداع والحكمة:

بينما تتفجر ينابيع الحكمة والابداع لدى طالبي المعرفة، والباحثين عن الحقيقة تنطفىء

---

165 / مع الطب في القرآن الكريم ص ١٣١ د. عبد الحميد دياب ود. أحمد قرقور

166 / الغذاءلا الدواء ص ٦١٣.

مصابيحها- إن كانت موجودة- لدى الباحثين عن الشبع، والمقيمين على البطنة وكثرة الطعام. والأمر هنا ملحوظ فإذا (امتلأت المعدة نامت الفكرة) فكيف إذا كانت المعدة دائمـــا مكتظـــة بالطعام والشراب ؟! هل تبقى هناك فكرة حتى تنام أوتقعد ؟!

- فعن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): لا تشبعوا فيطفى نور المعرفة من قلوبكم.

- وعن امير المؤمنين (عليه السلام): من زاد شبعه كظته البطنة ومن كظته البطنة حجبته عن الفطنة.

- وعنه ايضا: لا تجتمع الفطنة والبطنة.

وليس المقصود بهذا كما قدمنا الاكل من الحرام أو المشتبه إنما (إذا ملىء البطن من المباح عمي القلب عن الصلاح)[١٦٧] وينقل التاريخ ان احدى مآسي المسلمين التي حدثت كان احد عواملها البطنة. فقد قال عمرو بن العاص لاصحابه يوم حكم الحكمان: اكثروا لابي موســـى (الاشعري) من الطعام الطيب فوالله ما بطن قوم قط إلا فقدوا عقولهم أو بعضها، وما مضى عزم رجل بات بطينا[١٦٨] .

٤ / استعباد البطن لصاحبه:

نموذجان يفتقي بهما الناظر للأحاديث، والمراقب للحياة.. النموذج المثالي المطلوب الخارج من سلطان البطن، الرسالي صاحب الدور في حياته، الذي يأكل ما يبلغه لكي يعيش.. وقد قدمنا في ذكرنا للنص المروي عن امير المؤمنين. (عليه السلام) ان الاقرب ان ذكره لتلك الصفات كانت على سبيل تقديم النموذج القياسي الصفات المؤمن المطلوب دون ان يعني بالضرورة انه يقصد شخصا بعينه، وإن كان ينطبق هذا الوصف على أشخاص.

ويبدو أن عدداً من تشريعات الإسلام يهدف الى تربية هذا النموذج وابرز مثال على ذلك الصوم الذي جعله الله له وهو يجزي (او يجزى) به على التفسيرين للرواية. فإن واحدا من أهم اهداف الصوم اخراج المسلم من عبودية الشهوات وتحريره من امر البطن وضغطه.

والنموذج الآخر الذي تقبحه الاحاديث، وتجعله بعيدا عن الله، بعيدا عن فهم الدين، غارقا في عبودية البطن والطعام، ينسف ما يجد ويطلب ما لا يجد، ويتشهى ويتمنى ما لا يستطيع

---

167 / ميزان الحكمة ج اص ١٢٣

168 / شرح النهج ج ١٩ ص ١٨٦

ان يجد. هذا النموذج الذي يلخص سعيه وجهده وهدفه في الحياة باشباع بطنه وبالتلذذ بالاكل، تمثله الاحاديث بهيمة في صورة انسان. وفي سيرة بعض الحاكمين المترفين مثال بارز فهذا معاوية الذي استجيبت في حقه دعوة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما ارسل خلفه في امر من اموره ثلاث مرات وبين كل مرة وقت وكان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يخبر في كل مرة بأنه (يأكل) فدعا عليه قائلا: لا أشبع الله له بطنا. يتحدث عنه امير المؤمنين (عليه السلام) قائلا: اما انه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم مندحق البطن يأكل ما يجد ويطلب ما لا يجد. ونعتقد أن امير المؤمنين (عليه السلام) وقد رأى بوادر ذلك التحول الذي قدر ان يحدث في حياة بعض المسلمين من رساليين مجاهدين الى مترفين اذلاء لبطونهم فإنه شن حملة عنيفة لتقبيح هذا النموذج، ملاحظا وجه الاشتراك بينه وبين البهائم الحيوانية التي همها بطونها وناعيا عليهـــا تلخيص هدف حياتها بين المطعم والمخدع، (كالبهيمة المربوطة همها علفها او المرســـلة شـــغلها تقممها تكترش من اعلافها وتلهو عما يراد بها).

والطريق للوصول الى هذا النموذج الداني هو الاستجابة الدائمة لمطالب البطن، وعدم الاكتفاء، فإذا تم ذلك تحول البطن الى سلطان لا يغلب وحينها يكون قرار الإنسان في حياته وارتباطه بدينه، يكون مركزه لا في العقل وانما في البطن. ولندع التاريخ يتحدث.

ذكر الفضل بن الربيع قال: دخل شريك القاضي على المهدي يوما (وكان شريك قبلها معتزلا عن السلطان). فقال له المهدي: لا بد ان تجيبني الى خصلة من ثلاث خصال. قال: وما هن يا امير المؤمنين ؟!

قال: إما ان تلي القضاء، أو تحدث ولدي وتعلمهم، أو تأكل عندي اكلة.

ففكر (شريك) ثم قال: الأكلة اخفهن على نفسي فاحتبسه وقدم الى الطباخ ان يصلح له ألوانا من المخ المعقود بالسكر (الطبرزد) والعسل.

فلما فرغ من غذائه قال له القيم على المطبخ: يا أميرالمؤمنين ليس يفلح الشيخ بعد هذه الاكلة ابدا. قال الفضل بن الربيع: فحدثهم والله شريك بعد ذلك وعلم اولادهم وولي القضاء لهم، ولقد كتب بارزاقه الى الجهبذ فضايقه في النقص، فقال له الجهبذ: إنك لم تبع بزا، قال له شريك: بلى والله لقد بعته اكبر من البز لقد بعت ديني [١٦٩].

---

169 / مروج الذهب ج ٣ ص ٣٢٠

فانت ترى مقدار استعباد بطن هذا القاضي (الزاهد) له، وقد توقع له ذلك المهدي العباسي عندما جعل تناوله الطعام على مائدته قسيما للقضاء ولتعليم اولاده، اما الطباخ فقد اكد ذلك بقوله: ليس يفلح الشيخ بعد هذه الاكلة ابدا و لم يكن شريك غافلا عما صنع إذ انه باع اكبر من البز، باع دينه كما قال!!

٥- قسوة القلب وهيجان الشهوة:

يبدو أن عوامل الضعف وعوامل القوة في قلب الإنسان ككفتي ميزان فإذا رجح الإنسان جانبا ضعف الجانب المقابل بشكل طبيعي. ويبدو ان الحكمة والشهوة متقابلتان.. كل في كفة فإذا سقى المرء قلبه من ينابيع الحكمة فإنه يضعف من دور الشهوات وسيطرقا، والعكس تماما عندما يرخي لعنانه الشهوات، تنطفيء في قلبه مصابيح الحكمة.

والبطنة لأنها من دواعي تقوية الغريزة وخط الشهوات في النفس لذلك تنتج عادة قسوة القلب، وكما النار عندما يلقى فيها الحطب لا تشبع ولا تكتفي فإن الشهوات- عادة- لا تنتهي عندما يستجيب لها الإنسان، فكلما اعطاها تطلب اكثر.

ونحن نجد في توصيات المعصومين (عليهم السلام) الاستعانة على ضبط الشهوات بالصوم، لأنه وجاء (من استطاع فيكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه وجاء)، وليس غريبا اننا نجد الارتباط في صفات المؤمنين بين كون قلوبهم لينة، وعيونهم باكية، ومن جهة اخرى بطونهم خميصة، لأن البطن البطين والممتليء ينسجم مع الشهوة الهائجة والقلب القاسي اكثر ما ينسجم مع لين القلب وخضوعه.

ونختم هذا البحث بكلمة حكمية جامعة في حمد القناعة وقلة الاكل:

قال بعضهم لابنه: يا بني عود نفسك الاثرة، ومجاهدة الهوى والشهوة، ولا تنهش نهش السباع، ولا تقضم قضم البراذين، ولا تدمن الأكل إدمان النعاج، ولا تلقم لقم الجمال، إن الله جعلك إنسانا، فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبعا، واحذر سرعة الكظة، وداء البطنة، فقد قال الحكيم: إذا كنت بطنا فعد نفسك من الزمنى.

وقال الأعشى: والبطنة يوما تسفه الأحلاما

واعلم أن الشبع داعية البشم، والبشم داعية السقم، والسقم داعية الموت، ومن مات هذه الميتة فقد مات موتة لئيمة، وهو مع هذا قاتل نفسه، وقاتل نفسه ألوم من قاتل غيره، يا بني، والله

ما أدى حق السجود والركوع ذو كظة، ولا خشع لله ذو بطنة، والصوم مصحة، ولربما طالت أعمار الهند، وصحت أبدان العرب، ولله در الحارث بن كلدة حيث زعم أن الدواء هو الأزم، وأن الداء إدخال الطعام في اثر الطعام، يا بني لم صفت أذهان الأ"عراب، وصحت أذهان الرهبان مع طول الإقامة في الصوامع، حتى لم تعرف وجع المفاصل، ولا الأورام، إلا لقلة الرزء، ووقاحة الأكل، وكيف لا ترغب في تدبير يجمع لك بين صحة البدن وذكاء الذهن وصلاح المعاد والقرب وعيش الملائكة، يا بني لم صار الضب أطول شيء ذماء ، إلا لأنه يتبلغ بالنسيم، و لم زعم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أن الصوم وجاء، إلا ليجعله حجابا دون الشهوات! فافهم تأديب الله ورسوله، فإنهما لا يقصدان إلا مثلك.

يا بني، إني قد بلغت تسعين عاما ما نقص لي سن، ولا انتشر لي عصب، ولا عرفت دنين أنف، ولا سيلان عين، ولا تقطير بول، ما لذلك علة إلا التخفيف من الزاد، فإن كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة، وإن كنت تريد الموت فلا يبعد الله إلا من ظلم [١٧٠].

من النماذج المعاكسة:

تعرف الاشياء باضدادها عادة، ولأننا قد ذكرنا آنفاً عن حياة المعصومين (عليهم السلام) وتنزههم عن استعباد البطن، وبنائهم للنموذج الرفيع الذي (كان خارجا من سلطان بطنه فلا يطلب ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد)، فإننا سوف نذكر هنا بعض النماذج المقابلة والمعاكسة لتلك الصفة، لكي تتضح جوانب الصورة كاملة، وهذا البحث وإن كان معقودا للحديث عن أهل البيت (عليهم السلام)، إلا انه لما كانت النماذج التي سنعرض لها قد اخذت مواقع المعصومين (عليهم السلام) عدوانا، كان من الضروري التعرف على بعض احوالها، لنعرف اين ثرى هؤلاء من ثريا أهل البيت.

سليمان بن عبد الملك:

اختص الحكام الظالمون بــ (ميزات!!) وعلامات فارقة، ففيما بينهم يختص هذا بميزة غير ذاك، وهي وإن كان جماعها الاثم، إلا ان فيه درجات وجهات. فكما اختص عبد الملك بن مروان بالبخل حتى سمي (رشح الحجر)، وفاقه في ذلك ابو جعفر المنصور حتى لقب (بالدوانيقي)

---

[170] / شرح النهج ج ١٩ ص ١٨٦

فإن سليمان بن عبد الملك قد (تفوق) في كثرة الاكل حتى انسى الناس ذكر معاوية (رحب البلعوم)!! ونحن نذكرشيئا من ذلك على ذمة التاريخ الذي نقله!!

فقد كان شبعه في كل يوم من الطعام مائة رطل من العراقي.. (مائة رطل!!) وكان ربما اتاه الطباخون بالسفافيد التي فيها الدجاج المشوي وعليه جبة الوشي المثقلة، فلنهمه وحرصه على الاكل يدخل يده في كمه حتى يقبض على الدجاجة وهي حارة فيفصلها.

وذكر أن سليمان خرج من الحمام ذات يوم وقد اشتد جوعه، فاستعجل الطعام، ولم يكن قد فرغ منه فأمر ان يقدم عليه ما لحق من الشواء، فقدم إليه عشرون خروفا فاكل اجوافها كلها مع اربعين رقاقة ثم قرب بعد ذلك الطعام فاكل مع ندمائه كانه لم يأكل شيئا.. (اعد العبارة مرة اخرى: فقدم اليه عشرون خروفا فاكل اجوافها كلها مع اربعين رقاقة..).

وحكي انه كان يتخذ سلال الحلوى ويجعل ذلك حول مرقده فكان إذا قام من نومه يمد يده فلا تقع إلا على سلة يأكل منها [١٧١].

ولعلنا لا نصدق كل ما يروى من اكل سليمان وامثاله إذ أن (المؤمن يأكل في معاء واحد والكافر يأكل من سبعة امعاء)، فكيف بمن يأكل في سبعين معاء ؟! ولكن ماذا نقول إذا اجمعت كتب التاريخ والادب على ذلك ؟!

فقد قال الشمردل وكيل عمرو بن العاص، قدم سليمان بن عبد الملك الطائف فدخل هو وعمر بن عبد العزيز الي، وقال يا شمردل ما عندك ما تطعمني!! قلت: عندي جدي كاعظم ما يكون سمنا، قال: عجل به فاتيته به كأنه عكة سمن فجعل يأكل منه ولا يدعو عمر، حتى إذا لم يبق إلا فخذ قال: هلم يا ابا جعفر!! فقال: اني صائم، فاكله سليمان.. ثم قال: يا شمردل ويلك اما عندك شيء ؟! قلت: ست دجاجات كأنهن افخاذ نعام فاتيته بهن فاتى عليهن ثم قال: يا شمردل: اما عندك شيء ؟! قلت: سويق كانه قراضة الذهب، فأتيته به فعبه حتى اتى عليه، ثم قال: يا غلام افرغت من غذائنا ؟!

قال نعم، قال: ما هو ؟! " قال: نيف وثلاثون قدرا، قال ائتني بقدر قدر. فاتاه بها، ومعه الرقاق فاكل من كل قدر ثلثه ثم مسح يده واستلقى على فراشه وأذن ؟ للناس فدخلوا وصف الخوان

---

171 / مروج الذهب ج ٣ ص ١٨٥.

فقصد واكل مع الناس [١٧٢]!!

هل تصدق ؟!

نقاط من وحي السيرة:

نستطيع ان نخرج بعد استعراض شيء من سيرة المعصومين (عليهم السلام) في هذا الجانب بعدد من النقاط تضيء لنا الطريق:

أ- الوعي الصحي في الأكل:

يميل البعض عند الاكل الى ملء البطن بما وجد على المائدة من الوان الطعام وأصناف الشراب ذاهلين عن حقائق ترتبط بالمسألة، ذلك أن مجرد ملء البطن ليس فقط قد لا يكون مفيدا بل هو في كثيرمن الحالات مضر، يضاف الى ذلك أن نوعية الطعام الذي يتناوله المرء، تارة يكون مع ملاحظة الجوانب الصحية فيه واخرى مع عدم ملاحظتها.

إننا نلاحظ وجود عدد من الاداب والسنن الصحية وجه اليها المعصومون (عليهم السلام).. فهناك توجيهات عامة، يمكن اعتبارها قواعد صحية غير مرتبطة بوقت او شخص مثل: قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).. لا تأكل ما قد عرفت مضرته ولا تؤثر هواك على راحة بدنك، والحمية هو الاقتصاد في كل شيء، واصل الطب الازم (وهو ضبط الشفتين والرفق باليدين) والداء الدوي ادخال الطعام على الطعام واجتنب الدواء ما لزمتك الصحة فإذا احسست بحركة الداء فاحرقه بما يردعه قبل استفحاله [١٧٣].

وقول امير المؤمنين (عليه السلام) من اكل الطعام على النقاء واجاد الطعام تمضغا وترك الطعام وهو يشتهيه و لم يحبس الغائط إذا اتى لم يمرض إلا مرض الموت [١٧٤].

وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا اكل الدسم اقل شرب الماء فقيل له: يا رسول الله إنك لتقل شرب الماء ؟! قال: (هو أمرأ لطعامي) [١٧٥] وذلك لما للماء من اثر في

---

172 / المستطرف في كل فن مستظرف/ ١٩٢.

173 / بحار الأنوار/ ٥٩

174 / مكارم الاخلاق ١٤٦

175 / سنن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ص ١٧٨

تخفيف تركيز العصارات الهاضمة في المعدة.

ومن هذا المنطلق الصحي اثر الحديث عن الرسول وعن اهل بيته: (نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا اكلنا لا نشبع) أي ننهض قبل ان نشبع. ومنه ايضاً كان التأكيد على أن القوة لا تأتي بملء البطن كما قلنا، ولا تأتي من الطعام اللذيذ- بالضرورة- بل قد يحتوي طعام خشن على مقومات القوة، والفوائد الغذائية اكثر مما يحتويه الاول، ولذا ليس غريباً ان وجدنا ان قوت جيش المسلمين في كثير من الغزوات كان التمر والماء، بينما يفترض المراقب أن يكون لدى الجيش- لكيلا يقعد به الضعف- الكثير من الاطعمة والمتنوع منها، ويمكن استنتاج هذه الفكرة من كلام امير المؤمنين (عليه السلام) (.. وكأني بقائلكم يقول: إذاكان هذا قوت ابن ابي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الاقران ومنازلة الشجعان، ألا وإن الشجرة البرية اصلب عودا والرواتع الخضرة ارق جلودا والنباتات العذية اقوى وقودا وابطأ خموداً ..) [١٧٦].

كذلك في التفاصيل فإن هناك تأكيدا على انواع معينة باعتبار إفادتها الهامة لبدن الإنسان، كالعسل الذي يصفه القرآن الكريم بأنه شفاء، وقد تبين للبشر ذلك بعدئذ، أو التأكيد على الملح والبدء به والختام وما لذلك من اثر في القضاء على مسببات المرض، ولسنا الآن في صدد استعراض كل تلك الاحاديث والبرهنة على فوائدها، فالبحث لم يعقد لذلك، ويمكن الرجوع للكتب المتخصصة في هذا المجال [١٧٧].

إلا أن ما نريد التنبيه اليه هنا هوأن المعصومين وهم يعلمون حاجة البشر للطعام وجهوا الى آدابه ف (حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن غلب الأدمي نفسه.. فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه...).

ولذا ينبغي لمن اراد ان يعيش سليما من الاذى معافى ان يلتزم تلك التعاليم.

ب / الزهد ومقتضيات الزمن:

كما تقدم في الفصل السابق، وذكرنا حينه ان المعصومين (عليهم السلام) باعتبار انهم

---

[176] / نهج البلاغة كتاب ٤٥

[177] / (١) يمكن الرجوع لكتاب (مع الطب في القرآن الكريم) وايضا الاثر الهام للدكتور باكتراد: اولين دانشكاه وآخرين بيامبر (بالفارسية).

المبلغون عن الله لهم وظائف واخلاق، وباعتبار انهم بشر يعيشون (في) المجتمع لهم وظائف وقد يحدث أن يكون المجتمع في ظرف طبيعي فيطبقون فيه كل تعاليمهم وافكارهم، وقد لا يكون كذلك فيحافظون على اصل القيم بينما يتنازلون عن الاسلوب والمظهر، ولا يعني ذلك ضياع القيم الاساسية كما يتصور البعض خطأ، وانما التضحية بالاسلوب لصالح الاصل.

كذلك ذكرنا آنفا أن جزءا من اعمال المعصوم تتناول الجانب التبليغي والديني لذلك يفهم منه الحاضرون الحلية او الحرمة، كما مر عندما لم يتناول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم-) بعض الاطعمة سأله احد الاصحاب: هل تحرمه ؟! وهكذا الحال بالنسبة لأمير المؤمنين (عليه السلام).إضافة إلى ذلك فإنهم (عليهم السلام) لم يكونوا جاهلين بلذائذ الاطعمة فلو شاؤوا لاهتدوا الطريق إلا انهم ارادوا التواضع لله ، وعدم التعود على ذلك لكيلا يلح عليهم نداء البطن، وبالفعل كان (يعجبهم) بعض الاطعمة إلا ان هناك فرقا واضحاً بين ان (يعجبه) هذا الطعام وان يسيطر عليه ويأسره حتى يصبح له عبدا.

من كل ما تقدم نستطيع ان نجمع بين الاحاديث التي (تؤصل) الزهد والتقشف في متاع الدنيا وطعامها، وبين تلك الاحاديث التي تصف اطعمتهم بكونها كسائر الاطعمة بل ربما ابلغت في الوصف، فنوعت ما يعجبهم . ولنقرأ الحديث التالي:

عن يحى بن جعفر بن العاصم عن ابيه عن جده: قال: (حججت ومعي جماعة من اصحابنا فاتيت المدينة فقصدنا مكانا نترله فاستقبلنا غلام لابي الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) على حمار له يتبعه الطعام، فترلنا بين النخل وجاء ونزل واتى بالطشت والماء والاشنان (ما تغسل به الايادي من الحمض) فبدأ بغسل يديه وادير الطشت عن يمينه حتى بلغ آخرنا ثم اعيد الى من على يساره حتى اتى الى آخرنا ثم قدم الطعام فبدأ بالملح، ثم قال: كلوا بسم الله الرحمن الرحيم ثم ثنى بالخل، ثم اتى بكتف مشوي، فقالى: كلوا بسم الله الرحمن الرحيم فإن هذا طعام كان يعجب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم اتى بالخل والزيت فقال: كلوا بسم الله الرحمن الرحيم فإن هذا طعام كان يعجب فاطمة عليها السلام، ثم اتى بسكباج[178] فقال: كلوا بسم الله الرحمن الرحيم فهذا طعام كان يعجب امير المؤمنين (عليه السلام) ثم اتى بلحم

---

[178] / السكباج: (معرب) طعام يصنع من اللحم والخل.

مقلو فيه باذنجان فقال: كلوا بسم الله الرحمن الرحيم فإن هذا الطعام كان يعجب الحسن بن علي (عليه السلام) ثم اتى بلبن حامض قد ثرد فيه فقال كلوا بسم الله الرحمن الرحيم فإن هذا طعام كان يعجب الحسين بن علي (عليه السلام) ثم اتى باضلاع باردة فقال: كلوا بسم الله الرحمن الرحيم فإن هذا طعام كان يعجب علي بن الحسين (عليه السلام) ثم اتى بجبن مبزر (فيه توابل) فقال: كلوا بسم الله الرحمن الرحيم فإن هذا طعام كان يعجب محمد بن علي (عليه السلام) ثم اتى بتور (اناء من حجر) فيه بيض كالعجة فقال كلوا بسم الله الرحمن الرحيم فإن هذا طعام يعجب ابي جعفر (عليه السلام) ثم اتي بحلواء فقال: كلوا بسم الله الرحمن الرحيم فإن هذا طعام كان يعجبني ..)[١٧٩] .

فالحديث ناظر إلى ان تلك الاطعمة كانت " تعجبهم " وهذه مسألة ذوقية إلا انها لا تعني الاستجابة الدائمة لهذا الاعجاب ويظهر الاثر في ان هذا الاعجاب لا يمنع المعصوم من التخلي عنه لسائل او فقير ولا يمتلك ذلك الطعام.. فقد كان علي بن الحسين (عليه السلام) يعجبه العنب فاتته جارية له بعنقود عنب فوضعته بين يديه فجاء سائل فامربه فدفع اليه فوشى غلامه بذلك إلى ام ولد له، فامرته فاشتراه من السائل ثم اتته به فوضعته بين يديه فجاء سائل فسأل فامر به فدفع اليه ففعلت ذلك ثلاثا فلما كانت الرابعة اكله [١٨٠].

بل ربما قلنا ان الامر أظهر إذا كان يرتبط بضيافة الاصحاب وتوضيح الاحكام الشرعية.

فقد روى أبو خالد الكابلي قال: دخلت على ابي جعفر (عليه السلام) فدعا بالغداء فاكلت طعاماً ما أكلت انظف منه ولا اطيب، فلما فرغنا من الطعام قال: كيف رأيت طعامنا ؟! قلت: ما رأيت انظف منه قط ولا اطيب ولكني ذكرت الآية في كتاب الله (لتسألن عن النعيم) فقال ابو جعفر (عليه السلام): إنما تسألون عما انتم عليه من الحق [١٨١].

٣- بين الاعتدال والجوع المضعف:

هناك حدان في ما يرتبط بالطعام: البطنة وقد مر ذكر آثارها السلبية في حياة الإنسان سواء على

---

179 / بحار الأنوار٤٨ ص ١١٨

180 / مكارم الأخلاق ١٧٤

181 / وسائل الشيعة ج ١٦ ص ٥ ٤٤

صحته او نفسيته او فاعليته، وقد اكدت الاحاديث على ضرورة تجنب البطنة. وهناك حد آخر على الطرف المقابل تماما وهو الجوع المضعف، وهو بدوره غير محبذ لانه ينتهي الى الاضرار السابقة ولكن من زاوية اخرى، ذلك ان هذا النوع من الجوع يسلب الانسان القدرة على الحركة، ما دام جسمه لا يجد الطاقة الغذائية الكافية لتحريك فاعليات اعضائه، وكذلك فكما ان المعدة إذا امتلأت نامت الفكرة والحكمة، فإن المعدة أيضا إذا شعرت بعض الجوع، ومعاناة الحرمان التام فالها لا تسمح للفكرة ان تأتي حتى تنام!! ويتحدث امير المؤمنين (عليه السلام) مبيناً هذه المعادلة ذات الطرفين بقوله عن القلب: (لقد علق بنياط هذا الإنسان بضعة هي اعجب ما فيه: وذلك القلب، وذلك ان له مواد من الحكمة واضدادا من خلافها.. فإن سنح له الرجاء اذله الطمع.. وإن أجهده الجوع قعد به الضعف وإن افرط به الشبع كظته البطنة فكل تقصير به مضروكل افراط له مفسد) [١٨٢].

وما ورد من الاحاديث التي تمدح الجوع وتعتبر ان ميراثه الحكمة، ورده القلب، وما الى ذلك..

وما ورد من ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة كانوا يفضلون الجوع على الشبع، فانما هو محمول على الجوع المقابل للبطنة، لا الجوع المضعف الذي يقعد بالانسان عن اداء مهماته ومسؤولياته إذ كما الافراط في الطعام مذموم لآثاره السلبية، فكذلك التفريط فيه بالكامل مذموم لآثار اخرى. وربما يسأل القارىء إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تأت الاحاديث في ذم الجوع المضعف، كما اتت في ذم البطنة والشره، والجواب على ذلك اولا وجود هذا النوع من الاحاديث، وثانيا ان موضع الابتلاء بالجوع المضعف قليل عند الناس، بينما الابتلاء الاكبر هو حب الطعام، وكثرة الاكل، فبينما يشكل ضغط الحاجة الى الاكل صمام امان بالنسبة للذين يمارسون الجوع المضعف، لا يوجد صمام امان بالنسبة لمن يبالغون في الاكل، سوى الامراض و(بعد خراب البصرة)!!

وهذا نظير معنى الحديث المروي عن زين العابدين عليه السلام : اني لا اوصيكم بالدنيا فإني اعلم انكم مستوصون بها خيرا ولكن اوصيكم بالاخرة.

ولذلك ينبغي النظر الى الاحاديث بعين الاعتدال، فلا جوع يضعف المرء عن ممارسة ادواره، ويمنعه من التفكير في قضاياه- لصالح التفكير في الطعام- ولا بطنة تتحول الى منبع للامراض

---

182 / نهج البلاغة حكم/١٠٨

الجسمية والنفسية.

٤/ الطعام اداب وسنن:

بالرغم من أن مسألة الطعام هي استجابة لنداء الجسد لتلبية حاجته في رفع الجوع والضعف الناتج عنه، إلا ان الإسلام احاطها بمجموعة آداب وسنن، فاعطاها- بهذه الآداب- ابعادا اجتماعية، وعبادية..

والفرق بين من يلتزم بهذه الاداب ومن لا يلتزم، بعد اشتراكهما في تلبية حاجة الجسد ورفع الجوع، ان الاول يجعل من تناول الطعام عبادة، نعم تناول الطعام والاكل عبادة، وارتقاء في الدرجات الدينية، وبينما الاخر الذي يمارس نفس العمل ويتناول نفس الطعام وربما المقدار، لا يحصل على ذلك.

فهلم معي- عزيزي القارىء- للتعرف على الاداب والسنن التي مارسها المعصومون عليهم السلام ودعوا اليها، علنا بمعرفتها نمتلك احد اسباب تطبيقها في حياتنا:

ا- السنن العبادية:

وتبدأ بالنية، ذلك أن النية بما هي ربط للممارسات التفصيلية بالاهداف الكبرى التي يحملها الانسان تحتل جانبا مهما من التفكير الديني حتى صارت خيرا من عمله وحتى صار ا لكل امرىء ما نوى)، ولأنها كذلك فقد ندب المسلم لأن يكون له نية حتى في النوم والاكل فعن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال لابي ذر (يا ابا ذر ليكن لك في كل شيء نية حتى في النوم والاكل) [١٨٣]، اي إنك عندماتنوي انك تاكل هذا الطعام لكي تحصل على قوة توجهها في عبادة الله، والسعي في حوائج الناس، فإنك بهذا الاكك المقترن بهذه النية تحصل على الثواب والاجر، بينما زميلك الذي يجلس الى جانبك على نفس الخوان وياكل ذاهلا عن هذه النية لا يحصل على مثل اجرك!!

وجاء في روايات اخرى التاكيد علىء (المعرفة بما يأكل) وهذا عنوان يتسع لكثيرمن المفردات والمعاني، فقد ينطبق على معرفة حلية هذا الطعام وعدم كونه محرما أو مشتبها ومراعاة الا يدخل الانسان بطنه سوى الحلال الطيب، وقد يعني ذلك معرفة قدر هذه النعمة التي انعمها

---

183 / سفينة البحارج ٢ ص ٦٢٩

الله عليه، ذلك ان التفكير هنيهة في مراحل تكون هذه النعمة (فاكهة كانت أو طعاما) يوقف الإنسان على قدرة الله وعظمته الذي سخر كل شيء في الحياة له، (فلينظر الإنسان إلى طعامه إناصببنا الماء صبا* ثم شققنا الارض شقا* فانبتنا فيها حبا* وعنبا وقضبا * وزيتونا ونخلا "[١٨٤]،

وكذلك الاذكار كالبسملة في البدء، والحمد في الختام، فقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا وضعت المائدة بين يديه قال: (بسم الله اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعم الجنة) وعن امير المؤمنين (عليه السلام): (اذكروا الله عز وجل عند الطعام ولا تلغوا فيه فانه نعمة من نعم الله يجب عليكم فيها شكره وحمده واحسنوا صحبة النعم قبل فراغها). واوصى (عليه السلام) ابنه الحسن: يا بني لا تطعمن لقمة من حار ولا بارد ولا تشربن جرعة إلا وانت تقول قبل ان تأكله وقبل ان تشربه: (اللهم انني اسألك في اكلي وشربي السلامة من وعكه (مرضه) والقوة به على طاعتك وذكرك وشكرك فيما أبقيته في بدني وان تشجعني بقوته على عبادتك وان تلهمني حسن التحرز من معصيتك). فإنك ان فعلت ذلك امنت وعثه (مشقته) وغائلته [١٨٥].

٢- الآداب الاجتماعية:

بالرغم من أن الاكل عملية فردية عادة، إلا ان لها جهات اجتماعية. لذلك احيطت ببعض الآداب في هذا الجانب، فكرهت الاحاديث ان تكون آثار الاطعمة- وروائح بعضها- غير المحبذة سابقة في الحضور لصاحبها، فقبل وصوله للناس تصل تلك الروائح، وهذه الأحاديث وإن لم تحرم، هذه الاطعمة، إلا ان المسلم عندما ينظر الى هذه الاحاديث يستشعر الكراهة منها لهذه الحالة، ومما يؤسف له ان بعض المسلمين يحضرون في المساجد والمحافل والمجتمعات دون ملاحظة لهذه المسألة، فإذا بك تحضر الى المسجد راجياً ان تشم العطور والروائح الطيبة باعتبارها احد مصاديق الزينة في (خذوا زينتكم عند كل مسجد) ولكنك بدلا من ذلك تشم (عطور) الثوم والبصل والكراث وما الى ذلك. فالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يأكل الثوم تحريما له وانما لأنه يناجي الملك، وسئل الإمام الصادق (عليه السلام) عن اكل الثوم فقال: لا بأس بأكله

---

184 / سورة عبس، الآية ٢٤- ٢٩

185 / مكارم الاخلاق ١٤٣

بالقدر ولكن إذا كان كذلك فلا يخرج الى المسجد [١٨٦].

وكذلك فإن من الأداب الاجتماعية التي يقررها الإسلام تجنب ما يزري بالشخصية، كالاكل في السوق مثلا بالنسبة لأشراف الرجال، ويعتبره (دناءة)، وبالفعل فإن تناول الطعام في السوق وإن كان غير محرم في ذاته إلا انه يكره لما يخلفه من آثار اجتماعية سيئة على شخصية الآكل.. فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (الاكل في السوق دناءة).

وإذا اشترك الاكل مع قوم آخرين فإن عليه ان يراعي جملة من الأداب ايضا كأن لا ينظر الى اكلهم وان ياكل مما يليه، ولا يقوم بحركات- في اكله- يثير اشمئزاز الجالسين معه كالعادة القبيحة المستحكمة من بعض الناس (التجشؤ) فتراهم بعد كل وجبة يبدؤون (العزف) على هذه النوتة!! مع تقزز الجالسين ونفورهم فقد نهى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ابا جحيفة عن ذلك، لما يسببه من آثار اخروية إضافة الى الآثار الاجتماعية الدنيوية فعن ابي جحيفة قال: اتيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وانا أتجشأ، فقال: يا ابا جحيفة اخفض جشاءك فإن اكثر الناس شبعا في الدنيا اطولهم جوعا في يوم القيامة [١٨٧].

٣- الآداب ا لحياتية:

كما في الجانب العبادي والاجتماعي، فقد ندب المعصومون الى الاداب الحياتية وهي تلك التي ترتبط (بالكيفيات)، وقد يبدو للوهلة الاولى ان هذا ليس من شؤون المعصوم (عليه السلام) بل من شؤون الطبيب، لكن لما كانت توجيهات المعصومين تهدف الى سعادة الدنيا والاخرة فقد كان لديهم توجيهات ترتبط بالعباديات، واخرى ترتبط بكيفيات الاعمال الدنيوية، مما يضمن سلامة الإنسان وصحته. ما ستعرض اليه في الاسطر التالية هو من هذا النوع.

ففن تلك الاداب التأكيد على غسل اليد، وبالرغم من ان هذا العمل اليوم اصبح من البديهيات لدى الكثير من الناس، إلا انه بملاحظة الظروف التي جاء فيها هذا الحديث حيث البيئة العربية في الجاهلية التي لم تكن تقيم للنظافة وزنا كبيرا، وكانت تعاني من شحة الماء، فقد روي ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقول: من احب ان يكثر خير بيته فليتوضأ عند حضور الطعام وبعده فإنه من غسل يده عند الطعام وبعده عاش ما عاش في سعة وعوفي من بلوى في

---

186 / مكارم الاخلاق ١٨٢

187 / المصدر ١٤٩

جسده، وعن الصادق (عليه السلام) رواية قريبة من الفاظ هذه الرواية.

ومن هذه الآداب تجويد المضغ، ذلك أن احد مسببات المرض سوء مضغ الطعام، وقد كتبت بعض المجلات الطبية مؤخرا ان الذين يأكلون. عادة في مطاعم الوجبات السريعة المنتشرة اليوم في الغرب هم اكثر تعرضا للإصابة بامراض المعدة من غيرهم، ذلك أن إجادة المضغ تعني تقليل العبء الواقع على المعدة في هضم الطعام ذلك لأنه يأتي مطحونا وشبه مهضوم بعصارات الفم، بينما عندما يتناول الآكل طعامه مسرعا فإنه لا يتيح المجال لذلك الطعام ليستقر في فمه حتى يهضم او يطحن!!

وكذلك من الآداب الاعتدال في الاكل وقد مر ذكر ذلك، واخيرا تخليل الاسنان لاخراج بقايا الطعام من بين الاسنان، فقد روى الصادق (عليه السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (تخللوا على اثر الطعام فإنه مصحة للفم والنواجذ ويجلب الرزق على العبد). ومن المعلوم ان بقايا الطعام– خصوصا اللحوم– إذا استقرت بين الاسنان لساعات فانها تصبح آنئذ بؤرة للبكتريا والجراثيم المضرة، مما يؤدي الى إصابة اللثة وتسوس الاسنان..

ونختم بحثنا هذا بالتيمن بذكر حديثين يحتويان على آداب جامعة:

فعن الصادق (عليه السلام) عن ابائه عن الحسن السبط (عليه السلام) قال: (في المائدة اثنتا عشرخصلة يجب على كل مسلم ان يعرفها: أربع منها فرض، وأربع منها سنة، وأربع منها تأديب، فأما الفرض: فالمعرفة والرضا والتسمية والشكر، وأما السنة: فالوضوء [١٨٨] قبل الطعام والجلوس على الجانب الايسر، والاكل بثلاث اصابع ولعق الاصابع، واما التأديب فالاكل مما يليك وتصغير اللقمة والمضغ الشديد وقلة النظر في وجوه الناس) [١٨٩].

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): إذا وضعت المائدة بين يدي الرجل فليأكل مما يليه ولا يتناول مما بين يدي جليسه ولا يأكل من ذروة القصعة فإن من اعلاها تأتي البركة ولا يرفع يده وإن شبع فإنه ان فعل ذلك خجل جليسه وعسى ان يكون له في الطعام حاجة .

188/ سواء بمعناه اللغوي اي التنظيف، او بالمعنى الاصطلاحي الشرعي، وكلاهما يؤديان الى التنظيف.

189 / مكارم الاخلاق ١٤١

الخدم والموالي في حياتهم (ع)

تارة يتم الحديث عن الخدم والموالي في حياة اهل البيت (عليهم السلام) من منطلق اساسي في مدى فائدة هذا الامر، واخرى في طريقة التعامل بينهم وبين خدمهم..

وتعتبر هذه المسألة ذات اهمية ليس فقط بسبب كونها احدى مظاهر الحياة الفعلية لكثير من الناس، بل لأن هناك رأيين في النظرة الى اصلها. فبينما يرى فريق من الناس ان استخدام الخدم، حالة مترفة ينبغي ان يتنزه عنها المؤمن، خصوصا ان (الخادم) متساو تماماً مع المخدوم، وقيامه بأعمال الخدمة يجعله في منزلة ادنى وادون من نظيره. وما ورد من وجود خادم لدى اهل البيت (عليهم السلام) فانما يفسر بأنهم كانوا يريدون ان يحرروا أولئك الموالي الذين يشترون من الأسواق، فكانوا يبقون مدة تحت خدمتهم لتربيتهم تمهيدا لتحريرهم. وبالتالي فإن ذلك الاستخدام انما كان حالة استثنائية لا تكتسب صفة القاعدة ولا يمكن التأسيس عليها.

أما الفريق الثاني فيرى المسألة بطريقة عادية، فاضافة الى الحالة الاستثنائية التي يذكرها أصحاب الرأي الاول ووجود العبيد والارقاء وكون الاستخدام طريقا لتحريرهم إلا أننا نجد أن عدداً من (خدمهم) لم يكونوا من العبيد، بل كانوا احرارا، وبينما كان بعضهم موالي كان البعض الاخر عربا. وكيف كان.. فإن الثابت تاريخيا وجود عدد من الخدم. ونعتقد أن ذلك كان تحت العناوين التالية:

احدى طرق التحرير والعتق :

فكما نعلم أن الإسلام جاء فرغب الناس لعتق العبيد في الوقت الذي كانت فيه سوق بيعهم رائجة، سواء عن طريق جلبهم من المناطق غير الخاضعة لحكم الإسلام، أو عن طريق الحروب التي كانت تخلف وراءها عدداً من الارقاء.

وكان اهل البيت (عليهم السلام) يشترون اعدادا مختلفة من هؤلاء الأرقاء بعنوان خدم، ولاجل تحريرهم، إلا انهم كانوا يبقون فترة من الزمن تحت توجيه المعصومين وتهذيب اخلاقهم وعقائدهم، ثم يعتقون، ولعلنا نجد في ما ينقل عن عمل الإمام السجاد صورة كاملة عن هذا الاتجاه، ذلك انه كان يشتري العبيد ويقوم بتربيتهم خلال سنة كاملة، ويسجل عليهم اخطاءهم واشكالات عملهم دون ان يعاقبهم عليها في نفس الوقت، إلى ان يأتي رأس السنة الاخرى فيقوم

بتقريرهم عن تلك الاخطاء، وبعد ان يقروا بتلك الافعال منتظرين العقاب يعفو عنهم ويطلب منهم ان يدعوا الله له بالمغفرة كما عفى هو عنهم بعد ان استحقوا العقوبة [190].

فنحن نجد أن الإمام (عليه السلام) بعد ان ينهي معهم دورته التهذيبية خلال سنة كاملة يقدم على عتقهم.

* إلى جانب هؤلاء كان هناك عدد يتطوعون لخدمة المعصوم (عليه السلام) باعتبارها احدى القربات الى الله، كما نشاهد اليوم في حال العلماء الكبار الذين يلتصق ببيوتهم افراد متدينون للخدمة كسبا للأجر والثواب، أو رغبة في الاستفادة من علرمهم ومعارفهم. وسوف نجد في طي الصفحات القادمة ان نفوس بعضهم كانت تملك الاستعداد والقابلية، فلما التقت بغيث علم الأئمة، (اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج) فإذا بنا نلتقي بنماذج امثال قنبر (سكرتير) الإمام علي (عليه السلام) ومعاونه حسب التعبير المعاصر، ونلتقي ايضا بمنجح (الشهيد) مولى الحسين (عليه السلام) وبنصر الخادم (الثقة) وهكذا كما سيأتي فيما بعد.

هذا بالإضافة إلى أننا نجد من الاحاديث ما يتحدث عن كراهية مباشرة الرجل الشريف لحوائجه الصغيرة، تارة باعتبار الأهم والمهم إذ أن وقت الإنسان محدود، ومع تزايد مسؤولياته الدينية أو الاجتماعية أو السياسية، تصبح مفردات هذا الوقت واجزاؤه هامة للدرجة التي يمكن تقديرها احيانا بالصورة المادية عند التجار الكبار، ذلك ان تأخر هذا التاجر عن عمله- لمدة نصف ساعة يضيع عليه مبلغا من المال يتناسب مع حجم امواله، وكذا الحال بالنسبة لاصحاب المسؤوليات والمهمات، وإذا كان وقتك لا يتسع لكل اعمالك، فينبغي تقسيمه. بين الاهم منها، كما هومفاد حديث عن امير المؤمنين (عليه السلام) ومن الملحوظ ان الشؤون الحياتية ومتطلباتها تستغرق نسبة من وقت كل انسان، وتزداد وتقل بحسب الفرد وطريقة حياته ولك ان تتصور كم تستغرق تلك الشؤون من شخص يمتلك عائلة كبيرة. ووجود الخدم هنا ليس لصالح الكسل والترهل، وانما لصالح قيام الشخص بامور اخرى اكثر أهمية واكثر جهدا ولا يستطيع غيره القيام بها.

وتارة اخرى تتحدث تلك الروايات بلسان الكراهية الاجتماعية وما يخلفه تناول تلك الامـــور

---

190 / تجد تفصيلا لتلك الطريقة في كتاب بناء القادة في منهج اهل البيت (عليه السلام) للمؤلف.

(الصغيرة) من آثار سلبية. فعن معاوية بن وهب قال: رآني ابو عبد الله وانا احمل بقلا، فقـال: يكره للرجل السري (اي الشريف) ان يحمل الشيء الدنيئ فيجترى عليه [١٩١]. وعن عبد الله بن جبلة قال: استقبلني ابو الحسن (عليه السلام) وقد علقت سمكة في يدي فقال: اقذفها اني لأكره للرجل السري ان يحمل الشيء الدني بنفسه ثم قال: انكم قوم اعداؤكم كثيرة عاداكم الخلق يا معشر الشيعة، فتزينوا لهم بما قدرتم عليه [١٩٢].

وينبغي أن تؤخذ هذه الاحاديث مع ملاحظة الظروف الاجتماعية الموجودة، فمتى ما ادى مباشرة تلك الامور لمهانة الانسان والاجتراء عليه من غيره، فهو مجرى هذه الاحاديث اما إذا كانت العادة الاجتماعية قائمة على مباشرة الاشخاص لشؤونهم، فلا تكون هذه الاحاديث بالضرورة. بل ربما تكون هذه المباشرة مطلوبة إذا كانت تحقق اهدافا اخلاقية. كالتواضع والبراءة من الكبر او كان المقصود منها تعليم الآخرين، كما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال خمس لا أدعهن حتى الممات: الاكل على الحضيض مع العبيد وركوبي الحمار مؤكفا وحلبي العنز بيدي ولبس الصوف والتسليم على الصبيان لتكون سنة من بعدي [١٩٣].

وقد وردت احاديث عديدة تشير الى مباشرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والمعصومين كثيرا من المسائل بيدهم، فقد ورد ان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان إضافة الى حلبه العنز كان يعتقل البعير، ويذبح. الخ، وذلك لتكون سنة لمن بعده كما قال.

التعامل وطريقة التربية:

ليس في المصادر المتوفرة عندنا ما يبين بشكل كامل تفاصيل طريقة التعامل بين اهل البيت (عليهم السلام) وبين خدمهم، إلا ان الاحاديث الموجودة يمكن ان تكشف لنا عن طريقة هذا التعامل واصوله، كما أننا ايضا نستطيع ان نستطلع مفردات تلك الطريقة من خلال نتائجها.

رفي الجانب الأول نلتقي باحاديث مختلفة تنتهي الى عنوان واحد، هو (تأكيد شخصية اولئك الخدم)، سواء كانوا احرارا ام ارقاء وعربا أم موالى فخلافا للنظرة الشائعة الآن كما في

[191] / فروع الكافي ج ٢ ص ٢٠٢

[192] / فروع الكافي ج ٢ ص ٢٠٣

[193] / مكارم الاخلاق ص ١٠٠.

السابق. من ان الخادم لا شخصية له وان الفارق بينه وبين مخدومه- الفارق الظاهري والواقعي في رأيهم- فرق كبير، وجدنا اهلى البيت (عليهم السلام) رهم رواد الفكر الاسلامي. يعطون لخدمهم شخصيتهم التي يستحقونها كبشر وكمؤمنين.

وفي الحادثة التالية نستطيع ان نتبين نوعي التعامل مع الخدم، تلك التي تهين شخصيتهم، ولا تقبل لهم صرفا ولا عدلا، والاخرى التي تعتبر الخادم مساويا، بل وله علاوة على ذلك (شرة الشباب وعنفوانه) وبالتالي استحقاقه للكسوة الافضل والآنق.

فعن مختار التمار ان امير المؤمنين (عليه السلام) اتى سوق التمارين فإذا جارية تبكي على تمار فقال لها: ما لك ؟! قالت اني امة ارسلني اهلي ابتاع لهم بدرهم تمرا فلما اتيتهم به لم يرضوه فرددته فأبى التمار ان يقبله فقال (عليه السلام): يا هذا خذ منها التمر ورد درهمها فأبى، فقيل للتمار: هذا علي بن ابي طالب فقبل التمر ورد الدرهم على الجارية.

ثم اتى سوق الكرابيس (الثياب) فوقف على غلام فقال: يا غلام عندك ثوبان بخمسة دراهم ؟! قال نعم عندي فأخذ ثوبين احدهما بثلاثة دراهم رالاخر بدرهمين ئم قال يا قنبر خذ الذي بثلاثة فقال (قنبر): انت اولى به تصعد المنبر وتخطب الناس قال الإمام: وانت شاب ولك شرة الشباب، وانا استحي من ربي ان اتفضل عليك، سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: البسرهم مما تلبسون واطعموهم مما تطعمون.

وكذلك نقرأ في سيرة الإمام الرضا (عليه السلام) انه كان يجلس على مائدة واحدة مع خدمه ومماليكه ومواليه، الأمر الذي يعتبر خلاف العرف الاجتماعي الخاطىء القاضي بالتميز على هؤلاء. حتى اقترح عليه بعض اصحابه وانطلاقا من هذا العرف ان يتميز عليهم وان يعزل للخدم والمماليك مائدة فرفض ذلك. بل ربما قام (عليه السلام) بمناولة خدمه الطعام، ففي الخبر عن نادر الخادم: كان ابو الحسن الرضا (عليه السلام) يضع جوزينجة على الاخرى ويناولني [١٩٤].

وبينما اعتاد البعض من الناس لزيادة الأبهة والمظاهر الكاذبة، اعتادوا ايقاف الخدم على رأس الضيوف ناظرين إلى الاكل من غير حاجة لوقوفهم، فإننا نرى الإمام الرضا (عليه السلام) لم يكن يستدير احدا من خدمه، او يرسله في حاجة وقت طعامه الأ بعد ان ينتهي من تناوله وكما ينقل ياسر الخادم قال لنا ابو الحسن (عليه السلام) إن قمت على رؤوسكم وانتم تاكلون

---

194 / بحار الأنوار ج ٧١ ص ١٤١ والجوزينج نوع من الحلاوة يعمل من الجوز

فلا تقوموا حتى تفرغوا ولربما دعا بعضنا فيقال هم ياكلون فيقول دعوهم حتى يفرغوا .

كما يؤكدون على تجنب تكليفهم بأمر فوق طاقتهم، ذلك ان كون هذا الشخص خادما لا يعني ان (تملكه) بالعمل على مدار الساعة بل ينبغي التخفيف عنه سواء بملاحظة قدرته على انجاز كامل الاعمال المكلف فيها. او بمساعدته في انجازها. ففي الحديث عن الباقر (عليه السلام): (أربع من كن فيه من المؤمنين اسكنه الله في اعلى عليين في غرف فوق غرف في محل الشرف كل الشرف:.. ومن لم يخرق بمملوكه واعانه على ما يكلفه و لم يستسعه (يرسله) فيما لا يطيق).

وقد ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: في كتاب رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) إذا استعملتم ما ملكت ايمانكم في شيء ليشق عليهم فاعملوا معهم فيه.. قال: وإن كان ابي ليأمرهم فيأتي فينظر فإن كان ثقيلا قال بسم الله ثم عمل معهم وإن كان خفيفا تنحى عنهم ..

كل ذلك كان في جانب التوجيه، والنظر الى مفاد بعض الأحاديث الواردة. كما أننا نستطيع ان نعرف شيئا عن نمط التعامل ايضا من خلال تعرفنا على نماذج من مواليهم وخدمهم، إذ أن هؤلاء كان من الطبيعي ان ينتهوا كأشخاص من ذاكرة التاريخ كما انتهى مئات الالوف من امثالهم لو لم يكونوا في دائرة اهل البيت التربوية وسوف نتعرض الى ذكرموجزعن بعض هؤلاء وحياتهم وادوارهم:

١/زيد بن حارثة الكلبي:

بتربية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وحسن تلقيه لتلك التربية صعد من منزلة العبد الذي يباع ويشترى الى منزلة الابن المؤنس للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والقائد العسكري الذي يعتمد عليه فلنكن معه من البداية، حيث سرق زيد من والده حارثة الكلبي في احدى غزوات العرب، ثم جيء به وبيع في مكة.

اشترته السيدة خديجة بنت خويلد، واهدته الى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد زواجهما، فكان في ملك الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وما ان اظهر رسول الله دعوة الإسلام حتى كان زيد من السابقين الى الايمان به والتصديق برسالته وقد رافقه في تلك المسيرة الصعبة حتى انه لما خرج الى الطائف لدعوة اهلها للإسلام كان معه، وكان يذب عنه اذى وشر

ثقيف بعد ان رفضت دعوته، واغرت سفهاءها برميه بالحصى.

كان عميق الإيمان بالرسالة وصلب الانتماء الى الرسول، فقد وجده نبيا هاديا، وابا حانيا، واخا مربيا، لذلك وجد ذاته في وجوده مع الرسول. فعندما جاء والده بعد ان علم بكونه في ملك الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وكان من وجوه بني كلب، طلب من الرسول ان يرد عليه ابنه زيدا بعتق او بيع ..

قال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): زيد حر فليذهب حيث شاء.

فقال له ابوه: يا بني الحق بقومك ونسبك وحسبك،

فقال زيد: ما كنت لأفارق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فجهد به ابوه وتلطف به فقال: ما افارق رسول الله: فقال له: اتبرأ منك فقال له: ذلك اليك، فقال حارثة يا معاشر قريش والعرب اني قد تبرأت من زيد فليس ابني ولا انا ابوه.

فقال الرسول عند ذلك: يا معاشر قريش زيد ابني وانا ابوه، فدعى- عندئذ- زيد بن محمد حتى انزلت الآية المباركة (ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين.. وهكذا فضل زيد نسب الرسول والانتماء للرسالة، تاركا وراءه انتماءه للقبيلة عندما تعارضا، وظل يصعد في درجاته بالرغم من انه من حيث المظهر (قصير ادم شديد الأدمة- السمرة- في أنفه فطس) كما ينقل المؤرخون.

وبدأ زيد يبرز في قيادة عدد من السرايا الاسلامية، حتى جاءت غزوة (مؤتة) التي كانت من اهم الغزوات واخطرها إذ قرر الروم غزو المسلمين عبر التحرش بحدود المسلمين فقرر الرسول ان يبادرهم واختار ثلاثة من افضل الرجال اخلاصا وتضحية. وهنا تختلف الروايات في ترتيب هؤلاء القادة فهل كان المقدم زيدا أو جعفر بن ابي طالب.. ولنقرأ احداها:

لما بعث النبي عسكرا الى مؤتة ولى عليهم زيد بن حارثة ودفع الراية اليه وقال (ان قتل زيد فالوالي عليكم جعفر بن ابي طالب وإن قتل جعفر فالوالي عليكم عبد الله بن رواحة الانصاري) وسكت. فلما ساروا وقد حضر هذا الترتيب في الولاية من رسول الله رجل من اليهود فقال: إن كان محمد نبيا كما يقول سيقتل هؤلاء الثلاثة فقيل له: لم قلت هذا ؟! قال: لأن انبياء بني اسرائيل كانوا إذا بعث نبي منهم بعثا في الجهاد فقال: إن قتل فلان فالوالي فلان بعده عليكم فإن سمى للولاية كذلك اثنين أو مائة أو اقل او اكثر قتل جميع من ذكر فيهم

الولايات.

قال جابر فلما كان اليوم الذي وقع فيه حربهم صلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بنا الفجر ثم صعد المنبر فقال " قد التقى اخوانكم مع المشركين للمحاربة فاقبل يحدثنا بكرات بعضهم على بعض الى ان قال: قتل زيد بن حارثة وسقطت الراية ثم قال قد اخذها جعفر بن ابي طالب وتقدم للحرب بها ثم قال قد قطعت يده وقد اخذ الراية بيده الاخرى ثم قال: قد قطعت يده الاخرى وقد اخذ الراية في صدره.. ثم قال: قتل جعفر بن ابى طالب وسقطت الراية.. ثم اخذها عبد الله بن رواحة وقد قتل من المشركين كذا وكذا ومن المسلمين فلان وفلان.. إلى ان ذكر جميع من قتل من المسلمين باسماثهم، ثم قال: قتل عبد الله بن رواحة واخذ الراية خالد بن الوليد فانصرف المسلمون [١٩٥]..

وهكذا جسد زيد بن حارثة افضل مثال لشخص من الارقاء، والخدم كيف يتحول تحت تربية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الى مؤمن منتم، والى قائد عسكري وإلى حبيب للرسول، حتى لقد قال الإمام الصادق (عليه السلام) إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حين جاءته وفاة جعفر بن ابي طالب وزيد بن حارثة كان إذا دخل بيته كثر بكاؤه عليهما جدا ويقول: كانا يحدثاني ويؤنساني فذهبا جميعا.

٢/ قنبر مولى امير المؤمنين (عليه السلام)

لم يهتم المؤرخون بذكر نسبه، إلا بمقدار انهم قالوا: انه من مضر!! ربما جرياً على العادة في اغفال الخدم من الذكر، لأنه لا يتوقع ان يوجد من يهتم بانسابهم، ولا يتوقع ان يكون لهم كبير اثر أو ذكر في ا لتاريخ.

وربما إذا كنا متفائلين لانهم اكتفوا بنسبته الى دوره وموقعه من امير المؤمنين (عليه السلام) فإذا ذكر اصم قنبر كان ذلك كافيا لتعريف شخصيته بناء على الموقع الذي كان يمثله من أمير المؤمنين على (عليه السلام)، ومتى كان يرفع الانسان نسبه إن قعد به عمله ودوره ؟! وهل (للإنسان إلا ما سعى) ؟! قيل في صفاته كان قنبر كلام علي يحب عليا حبا شديدا فإذا خرج علي (عليه السلام) خرج على اثره بالسيف فرآه ذات ليلة فقال: ما لك يا قنبر ؟! قال: جئت

---

195 / بحار الأنوار ج ٢١ ص ٥٣

لأمشي خلفك يا امير المؤمنين فقال: ويحك أمن أهل السماء جئت تحرسني أم من اهل الارض ؟!
قالى: لا بل من اهل الارض ! فقال: إن اهل الارض لا يستطيعون شيئا إلا بإذن الله.. ارجع.

ركان يصحب امير المؤمنين (عليه السلام) فى جولاته التفقدية، التي يمر من خلالها على العوائل المحرومة والمستضعفة، وفي كل لقاء كان يتعلم دروسا في خدمة الناس وحب الفقراء من أب المساكين.

وكان يكلف من قبل الإمام (عليه السلام) بتنفيذ اوامره، فقد ورد اسمه في الشعر المنسوب لأمير المؤمنين (عليه السلام):

لما رأيت الأمر أمرا منكرا   أوقدت ناري ودعوت قنبرا

وقد روي أن امير المؤمنين (عليه السلام) كان يقول في صفين:

إني إذا الموت دنا وحضرا   شمرت ثوبي ودعوت قنبرا

قدم لوائي لا تؤخر حذرا

وهكذا تحول الى (يمين) لامير المؤمنين، بحيث اننا نلتقي اسمه في كثير من المواطن، ففي القضاء، يناديه امير المؤمنين للتفريق بين الشهود واخذ اقوالهم وفي جلب الطعام للفقراء يكون مع الإمام وفي الحرب.. وهكذا، تحول هذا الخادم الغلام الى رجل من (السابقين المقربين من أمير المؤمنين) و(من خواص اصحابه) ولذلك عندما طلب الحجاج ان (يتقرب الى الله بدم رجل من اصحاب ابي تراب!!) قيل له: ما نعلم احدا كان اطول صحبة لابي تراب من قنبر مولاه.

ويكفي لمعرفة شخصيته، التعرف على الحوار الذي دار بينه وبين الحجاج الثقفي.. فقد احضر قنبر فقال له الحجاج: من انت ؟! فقال قنبر: أنا مولى من ضرب بسيفين، وطعن برمحين، وصلى القبلتين وبايع البيعتين، وهاجر الهجرتين، ولم يكفر بالله طرفة عين، أنا مولى صالح المؤمنين، ووارث النبيين، وخير الوصيين، واكبر المسلمين ويعسوب المؤمنين ونور المجاهدين ورئيس البكائين، وزين العابدين، وسراج الماضين، وضوء القائمين، وافضل القانتين، ولسان رسول الله رب العالمين، واول المؤمنين من آل ياسين المؤيد بجبرئيل الامين، والمنصور بميكائيل المتين والمحمود عند اهل السماوات اجمعين، سيد المسلمين والسابقين، وقاتل الناكثين والمارقين والقاسطين، والمحامي عن حرم المسلمين ومجاهد اعدائه الناصبين ومطفيء نار الموقدين، وافخر من مشى من قريش اجمعين، وأول من أجاب واستجاب لله، أمير المؤمنين، روصي نبيه في العالمين

وأمينه على المخلوقين، وخليفة من بعث اليه أجمعين، سيد المسلمين والسابقين ، ومبيد المشركين، وسهم من مرامي الله على المنافقين، ولسان كلمة العابدين، ناصر دين الله، وولي الله، ولسان كلمة الله، وناصره في ارضه وعيبة علمه، وكهف دينه، إمام الابرار من رضي عنه العلي الجبار سمح سخي، بهلول سنحنحي ذكي مطهر ابطحي، باذل جريء همام، صابر، صوام، مهدي، مقدام، قاطع الاصلاب، مفرق الاحزاب، عالي الرقاب، اربطهم عنانا واثبتهم جنانا، واشدهم شكيمة، باذل، باسل صنديد، هزبر، ضرغام، حازم، عزام، حصيف خطيب، محجاج، كريم الاصل، شريف الفضل، فاضل القبيلة نقي العشيرة، زكي الركانة، مؤدي الامانة، من بني هاشم وابن عم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، والإمام مهدي الرشاد، مجانب الفساد، الحاتم، البطل الحماحم، والليث المزاحم بدري، مكي، حنفي، روحاني، شعشعاني من الجبال شواهقها، ومن الهضاب رؤوسها، ومن العرب سيدها، ومن الوغى ليثها البطل الهمام، والليث المقدام، والبدر التمام محك المؤمنين، ووارث المشعرين وابو السبطين، الحسن والحسين، والله أمير المؤمنين حقا، علي ابن أبي طالب عليه من الله الصلوات الزكية، والبركات السنية[١٩٦] (١).

فلما سمع الحجاج منه ذلك قال له:

ابرأ من دينه.

قال قنبر: فإذا برئت من دينه تدلني على دين غيره افضل منه ؟!

قال: إني قاتلك فاختر اي قتلة احب اليك ؟!

قال له: قد صيرت ذلك اليك، قال: ولِم ؟!

قال قنبر: لأنك لا تقتلني إلا قتلتك مثلها وقد اخبرني امير المؤمنين (عليه السلام) ان ميتتي تكون ذبحا ظلماً بغير حق، فأمر به فذبح.

٣/ وآخر ون شهداء

بينما تركز الثقافة السطحية على ظواهر الأمور، فتجد الشرف كل الشرف في الانتماء القبلي لا غير والمجد كل المجد في (العظام) من الآباء والأجداد، وهكذا يصبح الفرد- تبعا لهذه الثقافة- سيدا دون أن يعلم أو يساهم في هذه السيادة، أو حقيراً دون أن يرغب أو يختار.

---

196 / تنقيح المقال ج ٢ ص ٣٠

غير أن الثقافة الإسلامية الاصيلة تضع مقياسا آخر لعظمة الإنسان، وأهميته، وأفضليته، وأهمية هذا المقياس أنه يقع ضمن دائرة اختيار الإنسان، وباستطاعة المرء في أي وقت أن يستجيب له ويصعد بالتالي سلم المجد. أو يتركه فيبقى حيث هو ذلك المقياس هو (مواقف الانسان) سواء تجاه الرسالة والرسول وتجاه المجتمع والاحداث التي تجري فيه، وفي هذا يتساوى جميع الناس، بل بنتائج مواقفهم يتفاضلون فإذا (بالعربي) الذي تتوغل عروقه في عمق القبائل العربية، والذي يسبق بهذه الصفة– حسب الثقافة السطحية– غيره، يصبح تاليا بينما يسبق العبد، أو المولى وهو– بحسب تلك الثقافة– متأخر طبيعيا.

وربما كان هذا هو السبب وراء تقدم الموالي في الأمة الاسلامية في تاريخها الأول فنحن نجد أن منهم العلماء والفقهاء، بل وحتى المجيدين من شعراء اللغة العربية، مما لا يتسع المجال لبحثه. ذلك أن كثيرا من العرب رأوا أن (عروبتهم) كافية في تفضيلهم على من سواهم، فقصروا في طلب المعالي بينما شمر اولئك الموالي عن ساعد الجد فإذا هم السابقون في كثير من المجالات [١٩٧].

وهذا هو سر التقدم إذ أن (من قصر به عمله لم ينهض به نسبه)، كما يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) وهكذا فخلاصة حياة الإنسان: عمله وعلمه ومواقفه في الحياة، وقد أدرك هذا السر عدد من موالي أهل البيت (عليهم انسلام) فتسلقوا سلم مجد الخلود، وفاقوا بمواقفهم الحرة، الوف الرجال الاحرار نسبأ، والعبيد موقفا، فلنكن مع ترجمة مختصرة لعدد ممن استشهد منهم في واقعة الطف مع الإمام الحسين (عليه السلام).

أسلم التركي:

ابن عمرو.. اشتراه الإمام الحسين (عليه السلام) بعد وفاة الإمام الحسن (عليه السلام) ووهبه لابنه علي السجاد وكان ابوه تركيأ.. كان أسلم كاتبا عند الحسين (عليه السلام)[١٩٨] ، وكان موكلأ بحوائجه، حتى إذا خرج الإمام من المدينة إلى مكة، رافقه اسلم ولازمه حتى اتى

---

197 / يثبت ذلك القاب العلماء والمحدثين سواء من السابق أو اللاحق، فمؤلفو الصحاح ما بين بخاري ونيشابوري، وترمذي، وكليني، وقمي، وطوسي.

198 / استظهر العلامة المامقاني دلالة كتابة الشخص للمعصوم على وثاقته وصدقه عادة

معه كربلاء، وكان بامكانه أن يعود بعد أن أقال الإمام الحسين (عليه السلام) أصحابه عدة مرات من بيعته وخيرهم بين الاستمرار معه ونتيجة ذلك الشهادة، أو العودة إلى حياتهم الطبيعية، وكان بامكانه أن يصنع كما صنع غيره من أحرار النسب وعبيد المواقف، إلا أنه– وحيث كان قارئاً للقرآن– استلهم منه موقف النصرة للدين وقائده الحسين (عليه السلام) فاستأذن الإمام، فخرج يقاتل حتى قتل من القوم جمعا كثيرا ثم سقط صريعا، فمشى إليه الحسين فرآه وبه رمق فاعتنقه الحسين ووضع خده على خده ففتح عينيه فتبسم وقال: من مثلي وابن رسول الله واضع خده على خدي [199]!!

وهكذا.. عبد تركي سبق بموقفه أحرارا عربا.

– وسليمان:

مولى آخر للإمام الحسين (عليه السلام)، أمه جارية للحسين اسمها (كبشة) اشتراها بألف درهم وكانت تخدم في بيت أم اسحاق زوجة الإمام (عليه السلام) فتزوج بالجارية أبو رزين فولدت منه سليمان، فكان في خدمة الإمام الحسين (عليه السلام)، وترقى في هذه الدرجات، فاصبح رسول الإمام إلى أشراف أهل البصرة ثم أهل الكوفة، فحمل رسائل منه إليهم وبعد أن أدى تلك الرسائل، وأخذ بيعة أصحابها، وفي اخر ليلة ذهب الى المنذر بن الجارود العبدي إلا أنه كان عبدا خائر الموقف، فأخذ المنذر سليمان رسول الحسين (عليه السلام) وسلمه ومعه كتاب الإمام الحسين فسلمه إلى ابن زياد، فأمر بضرب عنقه، فقتل شهيدا وقد ورد السلام عليه في زيارة الناحية المقدسة المنسوبة للإمام الحجة (عج) وكفى بذلك فخرا له ولموقفه، أن يكون رسولا عن إمام، وموضعاً لسلام إمام آخر [200].

– ومنجح :

ومنجح.. كذلك مولى اخر للإمام اختار الشهادة إلى صف الإمام الحسين (عليه السلام) بعد أن قاتل قتال الابطال الاحرار. واستشهد في الحملة الأولى قبل الظهر ومعه قارب بن عبد الله

---

199 / تنقيح المقال ج اص ١٥٢.

200 / تنقيح المقال ج ٢ ص ٥

بن أرقد وهو أيضا مولى للإمام الحسين (عليه السلام) [٢٠١].

ولقد سجل التاريخ مواقف اثني عشر من هؤلاء الموالي صبروا على موقفهم وصابروا مع اخوانهم ورابطوا على طاعة إمامهم حتى استشهدوا في كربلاء.

نكتفي بهذا المقدار من الترجمات لشخصيات تعتبر حسب التصنيف المادي الخاطىء في المراتب الاجتماعية الدنيا باعتبارها تنتمي الى فئة العبيد والموالي، بينما في قانون الإسلام حيث أن (من يعمل مثقال ذرة خيرا يره) .وجدنا كيف تكون تحت ايادي رسول الله وامير المؤمنين والحسين، خلقا جديدا بعد خلق حتى أصبحت في مقام يغبطها به اشراف العرب الأقحاح!!

وقد كان بامكاننا ان نعرض الى اخرين مثل خيران الخادم الذي كان احد الوكلاء للإمام الكاظم (عليه السلام)[٢٠٢] ، أو ياسر ونادر خادمي الإمام الرضا (عليه السلام)، إلا ان خشيتنا من طول البحث وكون عرض هذه النماذج للاستشهاد. ادت بنا الى الاكتفاء بهذا القدر.

وفي الختام :

وبعد أن طوفنا في رحاب حياة أهل البيت الشخصية، مالئين- حسب قدرتنا- أيادينا من درر حياتهم، وجواهر سيرتهم، بقي الكثير من المواضيع لم نستطع التعرض له، على أمل أن نتوفق لذلك في المستقبل. فهناك الملامح المشتركة في الحياة السياسية لأهل البيت، وهناك مناهج التربية للاولاد وهناك.. وهناك..

إلا أننا حاولنا في هذا البحث أن نعطي صورة واضحة عن ذلك الجانب المهمل، بين خطي الغلو والتقصير، والإفراط والتفريط حيث كلاهما مضلة، ساعين أن نقترب الى اكثر القضايا ملامسة لحياتنا وشؤوننا.

---

201 / تنقيح المقال ج ٣ ص ٢٤٧

202 / يراجع كتاب بناء القادة في منهج أهل البيت للمؤلف

المصادر

ا- القرآن الكريم.

٢- نهج الفصاحة: كلمات رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

٣- نهج البلاغة: امير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام).

٤- الصحيفة السجادية: الإمام زين العابدين علي بن الحسين (عليه السلام).

٥- الإمام الصادق والمذاهب الاربعة: أسد حيدر- دار الكتاب العربي- بيروت ١٩٧١.

٦- الاسرائيليات واثرها في كتب التفسير د. رمزي نعناعة.

٧- احاديث أم المؤمنين عائشة- السيد مرتضى العسكري- دار الزهراء بيروت ١٩٨٥.

٨- بحار الأنوار الجامعة لدرر اخبار الأئمة الاطهار- المولى الشيخ محمد باقر المجلسي- مؤسسة الوفاء- بيروت ١٩٨٣.

٩- بناء القادة في منهج اهل البيت- فوزي آل سيف - مؤسسة الوفاء بيروت.

١٠- تحف العقول عن آل الرسول- ابن شعبة الحراني- مؤسسة الاعلمي- بيروت ١٩٧٤.

١١- تصحيح الاعتقاد بصواب الانتقاد/ الشيخ محمد النعمان المفيد- منشورات الرضي قم ١٩٨٤.

١٢- التفسير الكبير- للإمام الفخر الرازي- طبع ايران بدون تاريخ ولا دار نشر.

١٣- تنقيح المقال في علم الرجال- للعلامة الشيخ عبد الله المامقاني-.

ح ــ د

١٤- الحياة- محمد رضا الحكيمي- مكتب نشر الثقافة الاسلامية- طهران ١٣٩٩.

١٥- حياة الشعر في الكوفة- د. يوسف خليفة بدون تاريخ.

١٦- حياة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)- محمدحسين هيكل- مكتبة النهضة المصرية- القاهرة ١٩٦٨.

١٧- حدود الشريعة- الشيخ محمد آصف المحسني- مطبعة امير المؤمنين- قم- ا يران.

١٨- ديوان دعبل الخزاعي- عبد الصاحب الدجيلي- دار الكتاب اللبناني- بيروت ١٩٧٢.

١٩- الرسول القائد- اللواء الركن محمد شيت خطاب- دار الفكر بيروت ١٩٧٤.

(س- ش)
٢٠- سفينة البحار ومدينة الحكم والاثار- الشيخ عباس القمي- منشورات سنائي- قم ايران.
٢١- شرح نهج البلاغة- ابن ابي الحديد- مؤسسة اسماعيليان- قم- ايران.
٢٢- شرح المائة كلمة من كلام امير المؤمنين (عليه السلام)/ الشيخ ميثم البحراني- جامعة المدرسين في الحوزة العلمية- قم.
(ص- ض- ط)
٢٣- الصحيح من سيرة النبي الاعظم- جعفرمرتضي العاملي- قم ٤٠٣ اهـ.
٢٤- صحيح البخاري- الإمام محمد بن اسماعيل البخاري-.
٢٥- الضوابط الاخلاقية للسلوك الجنسي- الشيخ مرتضى مطهري- ترجمة صادق البقال مؤسسة البعثة- طهران- ١٤٠٥ هـ.
٢٦- الطفل بين الوراثة والتربية- الشيخ محمد تقي فلسفى- ترجمة فاضل الحسيني الميلاني- دار التعارف بيروت- ١٩٨١.
(ع- غ)
٢٧- عوالم العلوم والمعارف والاحوال- الشيخ عبد الله البحرانى- مدرسة الإمام المهدي قم- ١٤٠٥- عوالم الإمام الحسين (عليه السلام)- عوالم الإمام علي بن الحسين- عوالم الإمام موسى بن جعفر.
٢٨- الغدير في الكتاب والسنة والادب- الشيخ عبد الحسين الاميني- دار الكتاب العربي بيروت.
٢٩- الغذاء لا الدواء. د. صبري القباني- دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٥.
٣٠- الفقه- آية الله السيد محمد الشيرازي- مطبعة سيد الشهداء- قم ١٤٠٩ هـ . كتاب الآداب والسنن- كتاب النكاح.
٣١- في رحاب الصحيحين- الشيخ محمد صادق النجمي- ترجمة السيد حسن القزويني.
٣٢- الفكر العربي- مجلة معهد الانماء العربي- عدد ٣٢ ابريل ٩٨٣ ١.
٣٣- الفروع من الكافي- ثقة الإسلام الكليني- دار الكتب الاسلامية طهران.
٣٤ ـ مروج الذهب- علي بن الحسين المسعودي- دار المعرفة بيروت ١٩٨٢.

٣٥- مقاتل الطالبيين- ائو الفرج الاصفهاني- المكتبة الحيدرية- النجف ١٩٦٥.
٣٦- مع الطب في القرآن الكريم. د. عبد الحميد دياب ود. احمد قرقوز- مؤسسة علوم القرآن.
٣٧- معجم رجال الحديث آية الله السيد أبو القاسم الخوئي. منشورات مدينة العلم- قم- ايران.
٣٨- المحجة البيضاء في احياء الاحياء- الفيض الكاشاني- جامعة المدرسين في الحوزة العلمية- قم.
٣٩- مفاتيح الجنان- الشيخ عباس القمي- دار الاضواء بيروت ١٩٨٠.
٤٥- منتهى الآمال- الشيخ عباس القمي منشورات حسيني- طهران.
٤١- من العقيدة الى الثورة- د. حسن حنفي- دار التنوير.
٤٢- ميزان الحكمة- محمد ري شهري- مركز النشر مكتب الاعلام الاسلامي - قم-١٤٠٣ هـــ.
٤٣- الميزان في تفسير القرآن- العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي- دار الكتب الاسلامية طهران ١٩٨٣.
٤٤- مكارم الاخلاق- رضي الدين الطبرسي- مؤسسة الاعلمي بيروت ١٩٧٢.
٤٥- نظام الادارة الدينية عند الشيعة الإمامية- محمد فوزي- دار البيان العربي بيروت ١٩٨٩.
٤٦- نهج الحق وكشف الصدق- العلامة الحلي- دار الهجرة- قم ١٤٠٧.
٤٧- وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة- الحر العاملي- دار إحياء التراث العربي بيروت ١٩٨٣.

الفهرس

الفصل الأول

الفصل الثاني